

الْقِسْمُ الثَّانِي

أَثَرُ الْقُرْآنِ فِي التَّفْسِيرِ وَالْأَحْكَامِ

ويتضمن : الأبواب التالية :

الباب الأول : معنى العنوان وصلة القراءات بالتفسير .

الباب الثاني : القراءات التي بينت المعنى أو وسعته أو أزالته الإشكال .

الباب الثالث : القراءات المتعلقة بالعموم والإطلاق والإجمال .

الباب الرابع : القراءات المتعلقة بتنوع الأساليب .

الباب الأول

معنى العنوان وصلة القراءات بالتفسير

هذا باب تمهيدي أردت فيه شرح العنوان: «أثر القراءات في التفسير والأحكام»، وبيان صلة القراءات بالتفسير. وفيه فصلان:

الفصل الأول: معنى العنوان.

الفصل الثاني: القراءات والتفسير.

الفصل الأول

معنى العنوان

لما كان عنوان هذا القسم يتكون من هذه المفردات :

(١) الأثر .

(٢) القراءات .

(٣) التفسير .

(٤) الحكم .

رأيت توطئة للدراسة فيه بيان معانيها - عدا القراءات التي سبق بيانها - ليسهل معرفة المقصود في البحث، إن شاء الله .

(١) معنى الأثر :

تدور مادة [أ . ث . ر] حول ثلاثة أصول :

الأول : تقديم الشيء ، تقول : لقد أثرت بأن أفعل كذا تعني هممت .

الثاني : ذكر الشيء ، تقول : ما حلفت آثرا ولا ذاكرا، تعني : ما حلفت

مخبرا عن غيري . أنه حلف ولم أذكر ذلك عن نفسي .

الثالث : رسم الشيء، ومنه الأثارة في قوله تعالى : ﴿أَوْثَارَةٌ مِنْ عِلْمٍ﴾

الأحقاف: ٤، أي : بقية من علم (١).

(١) معجم مقاييس اللغة ٥٣/١-٥٧ وأنظر لسان العرب ٥/٤ - ١٠.

وذكر الجرجاني (١) أن «للأثر» ثلاثة معان :
الأول : بمعنى النتيجة وهو الحاصل من الشيء ، والثاني : بمعنى
العلامة ، والثالث : بمعنى الجزء .
وظاهر أن هذه المعاني التي ذكرها الجرجاني كلها من الأصل الثالث
لهذه المادة وهو : «بقية الشيء» أو «رسم الشيء الباقي» .
وحينما ندرس هنا «أثر القراءات في التفسير والأحكام» فإنما نريد بيان
النتيجة الحاصلة من اختلاف القراءات من جهة التفسير والأحكام .

(٢) معنى التفسير :

تدور مادة [ف . س . ر] في اللغة حول أصل واحد يدل على بيان شيء
وايضاحه، من ذلك الفسر، يقال : فسرت الشيء وفسرته إذا بيّنته، والفسر
والتفسر نظر الطبيب إلى ماء المريض (يعني : البول الذي يوضع في إناء
ويعطى للطبيب من أجل كشف حال المريض) وحكمه فيه (٢) .
والتفسير على ذلك الشرح والبيان .

أما في الاصطلاح فإن للعلماء عليهم الرحمة والرضوان في تعريف
التفسير باعتباره علما مدونا عبارات كثيرة من أجمعها وأمنعها قولهم في
تعريفه: «علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى
بقدر الطاقة البشرية» (٣) .

وشرح التعريف كما يلي :

قولهم : «علم» جنس يشمل سائر العلوم .

قولهم : «يبحث فيه عن أحوال القرآن» قيد احترز به عن العلوم الباحثة
عن أحوال غيره .

قولهم : «من حيث دلالته على مراد الله تعالى» قيد ثان احترز به عن
البحث في أحوال القرآن من غير هذه الحيثية ككونه شاهدا على صحة
قاعدة نحوية أو بلاغية أو حكم فقهي أو أصل عقدي أو نحو ذلك، واحترز
به كذلك عن البحث في أحوال القرآن من حيث كونه لفظا منطوقا أو خطا

(١) التعريفات ص ٩ .

والجرجاني هو علي بن محمد المعروف بالشريف الجرجاني فيلسوف من كبار العلماء
بالعربية (٧٤٠-٨١٦هـ) . الأعلام ٧/٥ .

(٢) معجم مقاييس اللغة ٥٠٤/٤ .

(٣) مناهل العرفان ٤٧١/١ .

مرسوما.

وقولهم : «بقدر الطاقة البشرية» فيه بيان أنه لا يقدح في العلم بالتفسير عدم العلم بمراد الله من الآية في الواقع و نفس الأمر في كثير من الأحيان، فهو اذن قيد للإدخال لا للاخراج (١).

(٣) معنى الحكم :

تدور مادة [ح . ك . م] في اللغة حول أصل واحد وهو المنع (٢). ومن ذلك «الحكم» بضم الميم وسكون الكاف وهو المنع من الظلم . وسميت الحديدة التي يمسك بها رأس الدابة حَكْمَةً لأنها تمنع الدابة من الجماح.

وتقول : حكمت السفية وأحكمته إذا أخذت على يده . ثم للفظ «حكم» اصطلاحات عرفية، والذي يتعلق بموضوع هذه الرسالة إطلاقان هما:

الأول : الحكم بمعنى إسناد أمر إلى آخر إيجابا أو سلبا (٣).
الثاني : الحكم في اصطلاح الأصوليين : «خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين للاقتضاء أو التخيير أو الوضع» (٤).
وشرح هذا التعريف عند الأصوليين كما يلي :
قولهم : «خطاب الله» يراد به القرآن والسنة وما قام عليهما من اجماع أو قياس صحيح ، واحترز بقوله «خطاب الله» فأخرج خطاب غيره .
قولهم : «المتعلق بأفعال المكلفين» قيد أخرج الخطاب المتعلق بذات الله أو بالاعتقاد فلا يسمى حكما في اصطلاح الأصوليين ، واحترز به أيضا عن غير المكلف بالقوة والفعل.
قولهم : «للاقتضاء» يعني : الطلب ، وهو إما أن يكون طلب فعل أو طلب ترك.

وطلب الفعل إما أن يكون على وجه الإلزام فهو الواجب وإما أن يكون على غير وجه الإلزام فهو المستحب.

(١) دراسات في مناهج المفسرين ٣٠/١-٣١.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٩١/٢.

(٣) التعريفات ص ٩٢.

(٤) منتهى الوصول والأمل ص ٣٢.

وطلب الترك إما أن يكون على سبيل الإلزام فهو المحرم، وإما أن يكون لا على سبيل الإلزام فهو المكروه.

قولهم: «أو التخيير» يعني: المباح، إذ يخير المكلف بين فعله وتركه.
قولهم: «أو الوضع» أي: ما وضعه الشارع من علامات على الصحة والبطلان أو الشرط والسبب والمانع (١).

والمقصود من الحكم في عنوان هذا القسم أعم من الحكم في اصطلاح الأصوليين؛ إذ القراءة عند افادتها لمعنى لم تفده القراءة الأخرى (بزيادة وصف أو شيء آخر) يعتبر هذا حكماً مَهْمَا كان موضوعه، أي: سواء كان حكماً أصلياً في العقائد، أو فرعياً في الفقه، أو لغوياً من جهة النحو، أو الصرف، أو البلاغة، ونحو ذلك، كما سنبين - إن شاء الله - فالحكم في عنوان الرسالة إنما يقصد به الإطلاق الأول الاصطلاحي لا الثاني، أي: مطلق إسناد أمر لأمر... الخ.

وبعد :

فإن تأمل معاني هذه المفردات التي يتكون منها عنوان هذا القسم «أثر القراءات في التفسير والأحكام» يوضح أنَّ المقصود في هذا القسم هو بيان النتيجة الحاصلة من اختلاف القراءات من جهة بيان مراد الله من كلامه المنزل على رسوله محمد ﷺ حسب الطاقة البشرية، مع بيان ما يفيد اختلاف القراءات من أحكام سواء في معنى الآية أم في الخطاب الشرعي المتعلق بأفعال المكلفين بالوضع والاقتضاء والتخيير، أم في تقرير معنى لغوي، ونحو ذلك.

(١) المحصول في علم الأصول ١٧/١-١٨ بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب ٣٢٥/١-٣٢٨.

الفصل الثاني القراءات والتفسير

ويشتمل على بيان المباحث التالية :
المبحث الأول : منزلة القراءات من التفسير.
المبحث الثاني : أقسام القراءات من جهة التفسير.
المبحث الثالث : نبذة موجزة عن اهتمام العلماء ببيان أثر
القراءات في التفسير.
المبحث الرابع : قواعد مهمة يحتاج لها أثناء دراسة أثر
القراءات في التفسير.

وإليك البيان :
المبحث الأول : منزلة القراءات من التفسير :
تتبين هذه المنزلة من خلال معرفة أفضل طرق التفسير، التي تنحصر في
الطرق التالية :

الأول : تفسير القرآن بالقرآن والسنة .
الثاني : تفسير القرآن بقول الصحابي .
الثالث : تفسير القرآن بقول التابعي وبلغه العرب (١).
وإذا كانت القراءات من جهة القبول تنقسم إلى (٢) :
(أ) قراءات مقبولة وهي : القراءة المتواترة والآحادية الموافقة
للرسم المتلقاة بالقبول.
(ب) قراءات مردودة وهي : القراءة التي لم يصح سندها أو لم
تتلق بالقبول من علماء الشأن.
(ج) قراءات متوقف فيها وهي : القراءة الشاذة التي صح سندها
وخالفت رسم المصحف.
فإذا كان ذلك فإن منزلة القراءات من التفسير تكون كالآتي :
أولاً : المعنى التفسيري الناتج عن اختلاف القراءات المقبولة
هو من نوع تفسير القرآن بالقرآن.
ثانياً : أما القراءة المردودة فإنه لا محل لها في التفسير أصلاً .

(١) بسط الكلام في ذلك ابن تيمية في «مقدمة في أصول التفسير» ص ٩٣-١٠٥ .

(٢) سبق بيان ذلك ص ١١٤-١٣٢ ولله الحمد والمنة .

ثالثا : أما المعنى التفسيري الناتج من القراءة الشاذة فإنه إن لم يكن من باب تفسير القرآن بالقرآن - لأننا لانجزم بقرآنيتهما ولا بعدمها - فإنه يكون من باب تفسير القرآن بقول الرسول ﷺ، أو على أدنى الأحوال من باب تفسير القرآن بقول الصحابي. وهذا هو الراجح في المسألة (١).

قال أبو الفتح ابن جني (ت ٣٩٢هـ) في كلامه عن القراءات وأنها ضربان قال: «ضرب اجتمع عليه أكثر قراء الأمصار وهو ما أودعه أبوبكر أحمد بن موسى بن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) رحمه الله كتابه الموسوم بـ«قراءات السبعة» وهو بشهرته غان عن تحديده.

وضرب تعدى ذلك فسماه أهل زماننا شاذاً أي : خارجاً عن قراءة القراء السبعة المقدم ذكرها، إلا أنه مع خروجه عنها نازع بالثقة إلى قرائه محفوف بالروايات من أمامه وورائه ولعله أو كثير منه مساوٍ في الفصاحة للمجتمع عليه.

نعم وربما كان فيه ما تَلَطَّفَ صَنَعَتَهُ وَتَعَنَّفَ (٢) بغيره فصاحته، وَتَمَطَّوْهُ (٣) قوى أسبابه وترسو به قدم إعرابه؛ ولذلك قرأ بكثير منه من جازب ابن مجاهد عنان القول فيه وما كنه عليه، وراده إليه، كأبي الحسن أحمد بن محمد ابن شنبوذ (٤) وأبي بكر محمد بن الحسن بن مقسم (٥) (ت ٣٥٤هـ) وغيرهما ممن أدى إلى رواية استقواها وأنحى على صناعة من الإعراب

- (١) تقدم بحث هذه المسألة في ص ١٢١-١٢٢.
- (٢) تعنف بغيره أي : تعذله وتلومه، من العنف خلاف الرفق، والتعنيف التشديد في اللوم. معجم مقاييس اللغة ١٥٨/٤.
- ويريد ابن جني رحمه الله : «ان فصاحة هذا الضرب من القراءات متفوقة تلوم غيره على تخلفه في مضمار الفصاحة» المحتسب ٣٢/١ حاشية رقم (٥).
- (٣) تمطوه تده . المحتسب ٣٢/١ حاشية رقم (٦).
- (٤) كذا ساق اسمه ، واعتبر ذلك ابن الجزري في غاية النهاية ٥٤/٢ وهما صوابه : «محمد بن أحمد بن أيوب بن الصلت بن شنبوذ ويقال : ابن الصلت بن أيوب بن شنبوذ (ت ٣٢٣هـ). وقال عنه ابن الجزري غاية النهاية ٥٤/١ : «كان يرى جواز القراءة بالشاذ وهو ما خالف رسم المصحف ... ثم ذكر الحروف التي أنكرت عليه».
- (٥) قال ابن الجزري رحمه الله في ترجمة ابن مقسم غاية النهاية ١٢٤/٢ : «ويذكر عنه أنه كان يقول : إن كل قراءة وافقت المصحف ووجها في العربية فالقراءة بها جائزة وإن لم يكن لها سند، وأنه عقد له مجلس ووقف للضرب فتاب ورجع، وهذا غير ما كان بنحوه ابن شنبوذ، فإنه كان يعتمد على السند وإن خالف المصحف، وهذا يعتمد على المصحف وإن خالف النقل، واتفقا على موافقة العربية».

رضيها واستعلاها.

ولسنا نقول ذلك فسحا بخلاف القراء المجتمع في أهل الأمصار على قراءتهم، أو تسويغا للعدول مما أقرأته الثقات عنهم؛ لكن غرضنا منه أن نرى وجه قوة ما يسمى الآن شاذاً، وأنه ضارب في صحة الرواية بجراحه (١) أخذ من سمت العربية مهلة ميدانه؛ لئلا يرى مري (٢) أن العدول عنه إنما هو غرض منه، أو تهمة له.

ومعاذ الله وكيف يكون هذا والرواية تنميه إلى رسول الله ﷺ؟ والله تعالى يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ الحشر: ٧.

وهذا حكم عام في المعاني والألفاظ، وأخذه هو الأخذ به فكيف يسوغ مع ذلك أن نرفضه ونجتنبه، فإن قصر شيء منه عن بلوغه إلى رسول الله ﷺ فلن يقصر عن وجه من الإعراب داع إلى الفسحة والاسهاب، إلا أننا وإن لم نقرأ في التلاوة به مخافة الانتشار فيه، ونتابع من يتبع في القراءة كل جائز رواية ودراية، فإننا نعتقد قوة هذا المسمى شاذاً، وأنه مما أمر الله تعالى بتقبله وأراد منا العمل بموجبه، وأنه حبيب إليه، ومرضي من القول لديه.

نعم و أكثر ما فيه أن يكون غيره من المجتمع عندهم عليه أقوى منه اعراباً وأنهض قياساً، إذ هما جميعاً مرويان مسندان إلى السلف رضي الله عنه؛ فإن كان هذا قادحاً فيه وما نعا من الأخذ به فليكونن ما ضعف إعرابه مما قرأ بعض السبعة به هذه حاله ... وهو أيضاً مع ذلك مأخوذ به .

ولعمري إن القاريء به من شاعت قراءته واعتيد الأخذ عنه فأما أن نتوقف عن الأخذ به لأن غيره أقوى اعراباً منه فلا؛ لما قدمنا اهـ (٣). قلت : لله دره ما أجل كلامه، فقد رمى وسدد واستهدى ورشد وتلاحظ الأمور التالية :

(١) القراءة الشاذة عند ابن جني رحمه الله مازاد على القراءات السبع سواء وافقت الرسم أم خالفته ، ما دامت تضرب في صحة الرواية بجراحها وتأخذ من سمت العربية مهلة ميدانها.

(٢) أن ابن جني رحمه الله قرر أنه لا تلازم بين الأخذ بالقراءة

(١) بجراحه بكسر الجيم وفتح الراء باطن العنق من البعير . انظر لسان العرب ٨٦/١٣ .

والمراد هنا أن هذا الشاذ ثبت واستقر .

(٢) المري: الرجل المقبول في خلقه وخلقه . لسان العرب ٢٧٩/١٥ .

(٣) المحتسب ٣٢-٣٣ باختصار وتصرف يسيرين .

الشاذة والعمل بها وبين عدم جواز القراءة بالشاذ في الصلاة؛ لأن القراءة إنما تكون بقراءة القراء المجتمع في أهل الأمصار على قراءاتهم.

(٣) أن في كلامه رحمه الله مبالغة في وصف الشاذ الذي لا يقرأ به (أعني: قوله: «فإننا نعتقد قوة...») وغاية ما يقال: إنها قراءات لها وجه من الإسناد يعمل بها في بيان المعنى.

(٤) أن كون بعض القراءات أقوى أعراباً من بعض لا يعد مسوغاً عنده رحمه الله للقبح في القراءة وعدم الأخذ بها. وصدق رحمة الله عليه، لأن الأصل في القراءة الرواية أساساً. هذا ما كان من شأن القراءة الشاذة في التفسير. فإن قيل: هل كل خلاف بين القراءات يؤثر في التفسير؟ فالجواب هو التالي فيما يأتي:

المبحث الثاني: أقسام القراءات من جهة التفسير: ليس كل اختلاف بين القراءات له أثر في التفسير؛ فإن للقراءات حالين:

أحدهما: لا تعلق لها بالتفسير بحال.

الثانية: لها تعلق بالتفسير من جهات متفاوتة (١).

أما الأولى؛ فهي اختلاف القراء في وجوه النطق بالحروف والحركات كمقادير المد والإمالات والتخفيف والتسهيل والتحقيق والجهر والهمس والغنة والاختفاء، فهذه الاختلافات لا تأثير لها في اختلاف معاني الآي، وإن كان لها أثر من جهات أخرى غير التفسير مثل التخفيف على الأمة في النطق وبيان سعة اللغة.

أما الثانية؛ فهي اختلاف القراء في حروف الكلمات، وهو على نوعين:

(أ) اختلاف اللفظ والمعنى جميعاً مع جواز أن يجتمعا في

شيء واحد لعدم تضاد اجتماعهما فيه.

(ب) اختلاف اللفظ والمعنى، مع امتناع جواز أن يجتمعا في

شيء واحد لا استحالة اجتماعهما فيه، بل يتفقان من وجه آخر لا يقتضي

(١) أصول التفسير وقواعده ص ٤٢٨-٤٢٩.

التضاد (١).

فهذه الحال بنوعيتها هي التي لها مزيد التعلق بالتفسير، لأن ثبوت أحد اللفظين في قراءة قد يبين المراد عن نظيره في القراءة الأخرى، أو يثير معنى غيره، ولأن اختلاف القراءات في الفاظ القرآن يكثر المعاني في الآية الواحدة.

قال صاحب «التحرير والتنوير من التفسير» في تقرير هذه المعاني : «إن للقراءات حالتين :

أحدهما لا تعلق لها بالتفسير بحال.

والثانية لها تعلق به من جهات متفاوتة .

أما الحالة الأولى فهي اختلاف القراء في وجوه النطق بالحروف والحركات ؛ كمقادير المد والامالات والتخفيف والتسهيل والتحقيق والجهر والهمس والغنة

ومزية القراءات من هذه الجهة عائدة إلى أنها حفظت على أبناء العربية مالم يحفظه غيرها؛ وهو تحديد كيفيات نطق العرب بالحروف في مخارجها وصفاتها وبيان اختلاف العرب في لهجات النطق بتلقي ذلك عن قراء القرآن من الصحابة بالأسانيد الصحيحة.

وهذا غرض مهم جدا لكنه لا علاقة له بالتفسير لعدم تأثيره في اختلاف معاني الآي.

ولم أر من عرّف لفن القراءات حقه من هذه الجهة، وفيها أيضا سعة من بيان وجوه الاعراب في العربية ؛ فهي لذلك مادة كبرى لعلوم اللغة العربية. فائمة العربية لما قرأوا القرآن قرأوه ب لهجات العرب الذين كانوا بين ظهرانيتهم في الأمصار التي وزعت عليها المصاحف... وكان في هذه الأمصار قراؤها من الصحابة قبل ورود مصحف عثمان إليهم فقرأ كل فريق بعربية قومه في وجوه الأداء لا في زيادة الحروف ونقصانها، و لا في اختلاف الاعراب دون مخالفته مصحف عثمان، ويحتمل أن يكون القاريء الواحد قد قرأ بوجهين ليُرى صحتها في العربية قصدا لحفظ اللغة مع حفظ القرآن الذي أنزل بها؛ ولذلك يجوز أن يكون كثير من اختلاف القراء

(١) تقدم بسط ذلك في ص ١٣٥-١٣٦.

في هذه الناحية اختياراً (١)

أما الحالة الثانية فهي اختلاف القراء في حروف الكلمات مثل: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ و ﴿مَلِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاحة: ٤] و ﴿نُنشِرُهَا﴾ و ﴿نُنشِرُهَا﴾ البقرة: ٢٥٩ و ﴿ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ بتشديد الذال أو ﴿قَدْ كُذِّبُوا﴾ بتخفيفه [يوسف: ١١٠] وكذلك اختلاف الحركات الذي يختلف معه معنى الفعل كقوله ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] قرأ نافع بضم الصاد وقرأ حمزة بكسر الصاد؛ فالأولى بمعنى: يصدون غيرهم عن الإيمان، والثانية بمعنى: صدودهم في أنفسهم، وكلا المعنيين حاصل منهم.

وهي (أي: الحال الثانية) من هذه الجهة لها مزيد تعلق بالتفسير لأن ثبوت أحد اللفظين في قراءة قد يبين المراد من نظيره في القراءات الأخرى، أو قد يثير معنى غيره؛ ولأن اختلاف القراءات في الفاظ القرآن يكثر المعاني في الآية الواحدة نحو ﴿حَتَّى يَظْهَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] بفتح الطاء المشددة والهاء المشددة، وبسكون الطاء وضم الهاء مخففة، ونحو ﴿لَا مَسْتَمُ النَّسَاءِ﴾ و ﴿لَمَسْتُمُ النَّسَاءِ﴾ [النساء: ٤٣، المائدة: ٦] وقراءة ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ اللَّهِ إِنَاثًا﴾ مع قراءة ﴿الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف: ١٩].

والظن (٢) أن الوحي نزل بالوجهين وأكثر؛ تكثيراً للمعاني إذا جزمنا (٣) بأن جميع الوجوه في القراءات المشهورة هي مأثورة عن النبي ﷺ . على أنه لا مانع من أن يكون مجيء الفاظ القرآن على ما يحتمل تلك الوجوه مراداً لله تعالى ليقرأ القراء بوجوه فتكثر من جراء ذلك المعاني، فيكون وجود الوجهين فأكثر في مختلف القراءات مجزئاً عن آيتين فأكثر،

(١) يريد الشيخ صاحب «التحرير والتنوير» رحمه الله من قوله : «اختياراً» أن القراء قرأوا القرآن بما ورد عن رسول الله ﷺ مما جاء على لهجات العرب، فهم يقرأون بذلك الوجه من اللغة حسبما نقل عن رسول الله ﷺ فيضاف إليهم ذلك الوجه من القراءة إضافة اختيار لا إضافة رأي واختراع. أنظر النشر ٥٢/١ .

(٢) الظن هنا في كلام الشيخ إذا كان بمعنى ادراك الطرف الراجح فهو متعلق بقوله : «تكثيراً للمعاني .. الخ» ولا يتعلق بقوله : «أن الوحي نزل بالوجهين ..» إذ هذا يقين . وإذا كان الظن بمعنى اليقين فيصح تعلقه بهما، وقد ثبت استعمال الظن بهذا المعنى في القرآن كما في قوله تبارك وتعالى : ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ﴾ الحاقة: ٢٠٠ .

(٣) أي : في ظرف جزمنا، فهنا معنى الظرفية غالب، لا معنى الشرط إذ لا مكان هنا للشك في ذلك، والله أعلم .

وهذا نظير التضمين (١) في استعمال العرب، ونظير التورية (٢) والتوجيه (٣) في البديع، ونظير مستتبعات التراكيب في علم المعاني وهو من زيادة ملاءمة بلاغة القرآن ؛ ولذلك كان اختلاف القراء في اللفظ الواحد من القرآن قد يكون معه اختلاف المعنى، ولم يكن حمل أحد القراءتين على الأخرى متعينا ولا مرجحا

و أنا أرى أن على المفسر أن يبين اختلاف القراءات المستواترة لأن في اختلافها توفيراً لمعاني الآية غالباً، فيقوم تعداد القراءات مقام تعداد كلمات القرآن» اهـ (٤).

قلت : وهذا بداهة مشروط بما قررناه سابقاً من عدم تناقض المعاني أو اختلافها في حلال وحرام.

فإن قلت : هل اهتم العلماء ببيان أثر القراءات في التفسير ؟
قلت الجواب : هو التالي :

المبحث الثالث : نبذة موجزة عن اهتمام السلف ببيان أثر القراءات في التفسير :

تعرض السلف رضوان الله عليهم لبيان أثر القراءات في التفسير، واهتموا به اهتماماً يعلمه الناظر في المنقول عنهم من تفسير القرآن العظيم بله المتأمل فيه.

والتنبيه لهذا في كلام السلف على معاني القرآن بحسب قراءة مخصوصة يرفع ما قد يظن أنه تفسيران في الآية الواحدة مختلفان بينما الواقع أنهما تفسيران للآية كل تفسير على قراءة (٥).

ومن النصوص التي تظهر اهتمام السلف رضوان الله عليهم ببيان أثر

(١) التضمين يستعمل في لسان العرب على صورتين الأولى : إيقاع لفظ موقع غيره لتضمنه معناه، الثاني : حصول معنى لفظ من غير ذكر له باسم هي عبارة عنه.

ويطلق بمعنيين آخرين عرفيين لا تعلق لهما هنا بالمراد ذكرهما السيوطي في الإتيان (أبوالفضل) ٢/١٦٩، ٢٧٠.

(٢) التورية في اصطلاح البلاغيين : أن يطلق لفظ له معنيان أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد المتكلم المعنى البعيد ويوري عنه بالمعنى القريب فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك. الإيضاح ص ٤٩٩ معجم البلاغة العربية ص ٧١٤.

(٣) التوجيه في اصطلاح البلاغيين إيراد الكلام محتملاً لوجهين مختلفين. الإيضاح ص ٢٨٥ معجم البلاغة العربية ص ٧٠٥.

(٤) التحرير والتنوير ١/٥١-٥٦ باختصار.

(٥) وقد نبه السيوطي رحمه الله على هذا في الإتيان ٤/١٩٤.

القراءات في تفسير القرآن العظيم ما يلي :
(١) في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا...﴾ البقرة: ٦١.

عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : « أخبرني عن قوله عز وجل : ﴿وَفُومِهَا﴾ ؟ »

قال : الفوم الحنطة .

قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال : نعم، أما سمعت أبا محجن الثقفي وهو يقول :

قد كنت أحسبني كأغني واحد قدم المدينة عن زراعة فوم

قال : يا ابن الأزرق ومن قرأها على قراءة ابن مسعود (يعني :

«ثومها») فهو هذا المنتن، قال أمية بن أبي الصلت :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة فيها الفراويس والفومات والبصل

وقال أمية بن أبي الصلت أيضا :

أنفى الدياس من الفوم الصحيح كما أنفى من الأرض صوب الوابل البرد
«اهـ» (١).

قلت : هذا النص فسر فيه ابن عباس رضي الله عنه الآية على القراءتين ﴿فومها﴾ و «ثومها».

(٢) في قوله تبارك وتعالى : ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيٍ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ آل عمران: ٣٩.

عن معاذ الكوفي قال: «من قرأ: «يبشرهم» مثقلة فإنه من البشارة، ومن قرأ: «يبشرهم» مخففة بنصب الياء فإنه من السرور يسرهم» اهـ (٢).

(١) إسناده ضعيف جدا .

نسخة مسائل ابن الأزرق برواية الطستى مخطوطة لم أقف عليها لكن سأقت سندها الدكتور: عائشة عبدالرحمن في كتابها «الإعجاز البياني للقرآن» ص ٢٩٨-٢٩٩، ٣٠٢ من النسخة المخطوطة التي وقفت عليها في دار الكتب المصرية في مجموع رقم ١٦٦ م (١٣٢-و١٤٣ظ) وفي المجموع رقم ٢٦٦ م (١-٣٣).

قلت : وفي السند أبوسهل السري بن سهل لا يحتج به . لسان الميزان ١٢/٣ .

وعيسى بن داب كذلك . لسان الميزان ٤٠٧/٤ .

ويلاحظ : أن أصل التفسير بالحنطة، ثابت، انظر: فتح الباري ١٦٢/٨ .

(٢) إسناده ضعيف .

أخرجه الطبري في تفسيره (شاكر) ٣٦٩/٦ من طريق إسحاق هو ابن الحجاج الطاحوني عن عبدالرحمن بن أبي حماد عن معاذ الكوفي .

(٣) في قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ التوبة: ٩٠.

عن السدي قال : «من قرأها ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ خفيفة قال : بنو مقرن، ومن قرأها ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ (يعني : مشددة) قال : اعتذروا بشيء ليس لهم عذر بحق» اهـ (١).

قلت : يريد السدي رحمه الله أن يبين أن الآية بالقراءتين شملت من جاء من الأعراب يعتذر بحق - وهذا على قراءة التخفيف وهم بنو مقرن كما قال مجاهد في سبب نزول الآيات بعدها (٢) - ، وشملت من جاء يعتذر بغير حق وهم أهل النفاق - وذلك على قراءة التشديد - والله أعلم (٣).

(٤) في قوله تبارك وتعالى : ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَاعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتْكَاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِيناً...﴾ يوسف: ٣١.

عن مجاهد قال : «من قرأ ﴿مُتْكَاً﴾ شدها فهو الطعام، ومن قرأ ﴿مُتْكَاً﴾ خففها فهو الأترنج» اهـ (٤).

(٥) في قوله تبارك وتعالى : ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ الحجر: ١٥.

عن قتادة قال : «من قرأ : ﴿سُكِّرَتْ﴾ مشددة يعني سدت، ومن قرأ ﴿سُكِّرَتْ﴾ مخففة فإنه يعني سحرت» اهـ (٥).

ولإسحاق الطاحوني ترجمة في الجرح والتعديل ٢١٧/٢ لم يذكر فيها بجرح ولا تعديل.

وشيوخ الطبري المثنى لم أقف له على ترجمة .

فالآثر ضعيف لجهالة حال إسحاق هذا ولعدم معرفة شيخ الطبري المثنى .

تنبيهه : الآية ﴿يَبْشُرُكَ﴾ والنص «يبشركم»، وقد ذكر في الإتحاف ص ١٧٤ تنوع القراءات في هذا الموضع بين التخفيف والتشديد، وكأن القصد هو: التمثيل للقاعدة العامة، وليس خصوص المثال المذكور .

(١) عزاه في الدر المنثور ٢٦١/٤ إلى ابن أبي حاتم .

(٢) أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٢٥٨ .

(٣) أنظر زاد المسير ٤٨٢/٣ - ٤٨٤ .

(٤) إسناده صحيح .

أخرجه الطبري في تفسيره (شاکر) ٧٢/١٦ .

وعزاه في الدر المنثور ٥٢٩/٤ - ٥٣٠ إلى أبي عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ .

(٥) إسناده ضعيف .

أخرجه الطبري في تفسيره (دارالفكر) ١٢/١٤ وفي السند «إسحاق الطاحوني» ذكره

(٦) في قوله تبارك وتعالى : ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زَخْرَفٍ...﴾ الاسراء:٩٣.

عن مجاهد قال : «كنا لاندرى ما الزخرف حتى رأيناه في قراءة ابن مسعود» أو يكون له بيت من ذهب». اهـ (١).

قلت : هذا نص صحيح صريح في اهتمام مجاهد رضي الله عنه ببيان أثر القراءات في التفسير ، وقد جاء عن مجاهد أنه قال : «عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقفه عند كل آية أسأله فيم نزلت وكيف كانت» اهـ (٢). وقال أيضا: «لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت» اهـ (٣).

قد يقال : إذا كان مجاهد يسأل ابن عباس عن كل آية فكيف كان يجهل معنى «الزخرف» ؟ فالجواب : لعل هذا كان قبل عرضه على ابن عباس وملازمته له.

(٧) في قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْرَأْنَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ رَّحْمَتِهِ وَيَهَيِّءْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ الكهف:١٦.

عن قتادة ﴿وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ قال: «هي في مصحف ابن مسعود: «وما يعبدون من دون الله» فهذا تفسيرها» (٤).

قلت : هذا نص صحيح في أن قتادة فسر القراءة بالقراءة الأخرى.

= ابن أبي خاتم في الجرح والتعديل ٢١٧/٢ ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا ، وفي السند «المثنى» شيخ الطبري لم أعرفه ، فالأثر ضعيف بهما .

(١) إسناده صحيح .

أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ٣٩٠/٢ من طريق الثوري عن رجل عن الحكم عن مجاهد ، وفي إسناده راو مبهم ، وأخرجه الطبري في تفسيره (دارالفكر) ١٦٣/١٥ من طريقين أحدهما : من طريق عبدالرزاق السابق والآخر من طريق محمد بن جعفر عن شعبة عن الحكم عن مجاهد ، وهذا إسناده صحيح كالشمس ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٢٨٤/٣ من طريق عمرو بن مرزوق عن شعبة به ، وإسناده حسن .

وعزاه في الدر المنثور ٣٤٠/٥ إلى أبي عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في «المصاحف» .

~~هذه القراءة مخالفة لرسم المصحف ، فلعلها تفسير منه ، والله أعلم .~~

(٢) حلية الأولياء ٢٧٩/٣-٢٨٠ سير أعلام النبلاء ٤٥٦/٤-٤٥٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤٥٤/٤ .

(٤) إسناده صحيح .

أخرجه الطبري في تفسيره (دارالفكر) ٢٠٩/١٥ من طريق يزيد هو ابن زريع عن سعيد هو ابن أبي عروبة عن قتادة ، وهذا إسناده صحيح .

وعزاه في الدر المنثور ٣٧١/٥ إلى ابن أبي حاتم .

(٨) في قوله تبارك وتعالى : ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ مريم: ٢٤.

عن أبي بكر بن عياش قال : «قرأ عاصم بن أبي النجود ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ بالنصب (يعني : الميم في «من») قال : وقال عاصم : من قرأ بالنصب فهو عيسى، ومن قرأها بالخفض فهو جبريل» اهـ (١).

(٩) في قوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذَا تَنَكَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا: أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مريم: ٧٣.

قال سفيان الثوري : «من قرأها ﴿مَقَامًا﴾ فإنما يعني : مقامه الذي يقيم فيه الدهر، والذي يقرأها ﴿خَيْرٌ مَقَامًا﴾ فإنما يعني: المقامة التي يقيم فيها» اهـ (٢).

قلت : لعله يعني رحمه الله بمقامه الذي يقيم فيه الدهر أي : منزله ومحل إقامته، وبمقامه الذي يقيم فيه أي : مكانته بين الناس ومقامه بينهم، خير إقامة، والله أعلم.

(١٠) في قوله تبارك وتعالى : ﴿قَالَ بَصَرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ طه: ٩٦.

عن أبي الأشهب قال : «كان الحسن يقرأها: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ بالصاد، يعني بأطراف أصابعه ، وكان أبو رجاء يقرأها: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ بالضاد، هكذا يجمع كفيه» اهـ (٣).

(١١) في قوله تبارك وتعالى : ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ، فَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهَا صَوَافٍ ۖ﴾ الحج: ٣٦.

عن مجاهد قال : «من قرأها: «صوافن» قال : معقولة، ومن قرأها: ﴿صواف﴾ قال: يصف بين يديها»

وفي لفظ : «الصواف» على أربعة ، و «الصوافن» على ثلاثة»

وفي لفظ : «من قرأها : ﴿صواف﴾ فهي قائمة مضمومة يديها، ومن

(١) عزاه في الدر المنثور ٥/٥٠٢ إلى عبد بن حميد، ولم أقف على كتاب عبد بن حميد. والقراءة بكسر الميم وجر «تحتها» لنافع وحفص وحمزة والكسائي وأبوجعفر وروح، والقراءة بفتح الميم ونصب «تحتها» للباقيين. الإتحاف ص ٢٩٨.

(٢) تفسير الثوري ص ١٨٨.

قلت: القراءة بضم الميم لابن كثير وتابعه ابن محيصن، والباقون بضمها. الإتحاف ص ٣٠٠.

(٣) عزاه في الدر المنثور ٥/٩٦٦ إلى عبد بن حميد.

قرأها: «صوافن» قياما معقولة» (١).

(١٢) في قوله تبارك وتعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ، قَالُوا: سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ القصص: ٤٨.

عن قتادة : ﴿قالوا: سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ قال: ذلك أعداء الله اليهود للإنجيل والقرآن، قال: ومن قرأها: ﴿ساحران﴾ يقول : محمد وعيسى (عليهما الصلاة والسلام). اهـ (٢).

(١٣) في قوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّا زِينَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ الصافات: ٦.

عن أبي بكر بن عياش قال : «قال لي عاصم رضي الله عنه : من قرأها: ﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ مضافا ولم ينون فلم يجعلها زينة للسماء وإنما جعل الزينة للكواكب» اهـ (٣).

قلت : ومفهوم كلامه أن من قرأها بالتنوين، فالزينة وصف للسماء.

(١٤) في قوله تبارك وتعالى : ﴿أَفْتَمَرُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ النجم: ١٢.

عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ: ﴿أَفْتَمَرُونَهُ﴾ قال: من قرأها: ﴿أَفْتَمَرُونَهُ﴾ قال: أفْتَجَارُونَهُ» اهـ (٤).

(١٥) في قوله تبارك وتعالى : ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ التكويد: ٢٤.

عن إبراهيم النخعي قال : ﴿الظنين﴾: المتهم و ﴿الضنين﴾: البخيل» اهـ (٥).

عن زر بن حبیش قال : «﴿الغيب﴾: القرآن، في قراءتنا ﴿بظنين﴾ متهم، وفي قراءتكم ﴿بضنين﴾: ببخيل» اهـ (٦).

(١) إسناده ضعيف .

أخرجه ابن أبي شيبة ٨٢/٤ واللفظ الأول له، والبيهقي في السنن الكبير ٢٣٧/٥ والسياق له.

وفي السند عند البيهقي من لم أقف له على ترجمه، وفي سند ابن أبي شيبة خلل في الطبع لم أتبين وجه الصواب فيه.

وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥٣/٦ إلى عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) عزاه في الدر المنثور ٤٢١/٦ إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٣) عزاه في الدر المنثور ٧٩/٧ إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٤) عزاه في الدر المنثور ٦٤٦/٧ إلى ابن المنذر.

قلت : معنى : أفْتَمَرُونَهُ: أي تجحدونه. لسان العرب ٢٧٨/١٥.

(٥) عزاه في الدر المنثور ٤٣٥/٨ إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٦) عزاه في الدر المنثور ٤٣٥/٨ إلى عبد بن حميد.

(١٦) في قوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَقَةٌ ۚ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ الهزمة ٨-٩.

عن السدي قال: «من قرأها «في عمد» (يعني: بضم العين وسكون الميم) فهو عمد من النار، ومن قرأها: ﴿في عمد﴾ (يعني: بنصب العين والميم) فهو حبل ممدود» اهـ (١).

قلت: هذه النصوص - سواء منها ما صح سنده أم لم يصح - تدل على أن السلف رضوان الله عليهم كانوا يستعينون بالقراءات في الآية من أجل تفسيرها وبيان المراد منها، وهذا الأمر لم يقتصر على طبقة الصحابة والتابعين، فقد رأينا تصورا واضحا لأثر القراءات في التفسير عند سفيان الثوري (ت ١٦١هـ) والفراء (ت ٢٠٧هـ) والأخفش (ت ٢١٥هـ) وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) والطبري (ت ٣١٠هـ) والزجاج (ت ٣١١هـ) وأبي جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) (٢).

ونجد مثل ذلك عند جمهرة المفسرين و يمتاز كتاب «البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي (ت ٧٥٤هـ) باحتفاله وعنايته البالغة بذلك بما لا تكاد تجد مثله بين المفسرين.

ولعل كتب توجيه القراءات من أظهر الكتب التي اهتمت ببيان معنى الآية باعتبار القراءات فيها، بقصد بيان وجه إختيار المقرئ لقراءته. والواقع أن كل مفسر للقرآن العظيم لا بد أن يتعرض للقراءات القرآنية عند تفسيره للقرآن، ولكن تتفاوت طرق التناول في المقدار والنوع، مما يجعل لكل مفسر صبغة خاصة في تفسيره، والذي لا شك فيه أن اعتماد المفسر على القراءات في تفسيره للقرآن الكريم من أهم المهمات التي تطلب منه إذ أن تفسير القراءة بالقراءة دائر بين تفسير القرآن بالقرآن وبين تفسير القرآن بالسنة أو بقول الصحابي على أدنى الأحوال.

ولذلك جاءت في كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل» القاعدة الأربعون حول القراءات العشر يقول فيها: «على متدبر كتاب الله أن يبحث عن المعاني وعن الصور البيانية الموصولة بإعجاز القرآن، التي تدل عليها وجوه القراءات المختلفة التي لا يظهر فيها بوضوح أن الغرض من الاختلاف فيها مجرد التهوين والتسهيل على السنة الناطقين العرب أبان تنزيل القرآن، مراعاة للهجاتهم المختلفة وقواعد سنتهم.

(١) عزاه في الدر المنثور ٦٢٥/٨ إلى ابن أبي حاتم.

(٢) تقدم استعراض القراءات في كتب هؤلاء العلماء ص ١٧٩ ...

وعليه أن يعتمد في بحثه الجزئي لكل نص على التدبر المتأني العميق، وفي بحثه الكلي التصنيفي على السبر الشامل وأن لا يقتصر على التقاط أمثلة يعثر عليها من هنا وهناك دون سبر شامل واستقراء تام، فهذا الأمر قد أصبح بحمد الله ممكناً لمن يريد أن يبذل جهداً وصبراً»

ثم ذكر أنه سبر القراءات (١) المتواترة في سورة البقرة فظهر له أن اختلاف القراءات فيها يتضمن الأغراض التالية :

الغرض الأول : تكامل المعاني (٢) فمن اختلاف القراءات في النص الواحد ما الغرض منه تأدية كل قراءة لمعنى لا تؤديه القراءة الأخرى، فتقوم القراءتان أو الأكثر مقام تعدد الآيات، وتؤدي القراءات المختلفة تكاملاً في المعاني المقصودة جميعاً.

الغرض الثاني : التكامل في الأداء البياني كأن يراعى في النص توجيهه مرة بأسلوب الحديث عن الغائب ... وتوجيهه أخرى بأسلوب الخطاب الوجيه المباشر ... وكأن يراعى في النص توجيهه بالبناء للمعلوم مرة ... وتوجيهه مرة أخرى بالبناء لما لم يذكر فاعله

الغرض الثالث : التنوع في الأداء الفني الجمالي مع ما قد يتضمنه من دلالات فكرية وبيانية، مثل جعل فعل الشرط بصيغة الفعل الماضي في قراءة وجعله بصيغة الفعل المضارع في قراءة أخرى

الغرض الرابع : إثبات وجوه عربية متكافئة فيما قسمه علماء العربية حين أرادوا ضبط هذه اللغة بعد اختلاط الشعوب إلى علوم اللغة والنحو والتصريف والبلاغة (المعاني - والبيان - والبدیع).

وجاء في التنزيل إثبات هذه الوجوه أمثلة يقاس عليها وشاهداء دائماً على أنها من الوجوه الجائزة في العربية، وأنه يحسن استمرار استعمالها في وجوه الكلام الغربي مع ما تتضمنه من تحقيق الأغراض الثلاثة الأولى اهـ (٣).

(١) السبر هو حصر الأوصاف في الأصل والغاء بعض ليتعين الباقي للعلية، ويلجأ إليه الفقيه في الأحكام من أجل استخراج علة الحكم . التعريفات ص ١١٦.

والمقصود هنا حصر القراءات ذات الأثر المتشابه من أجل استخراج الجامع الذي يجمع بينها، والاضافة التي تضيفها إلى معنى الآية.

(٢) في الأصل «التكامل الفكري»، والعبارة التي أثبتتها أليق بالمعنى.

(٣) قواعد التدبر الأمثل ص ٧٢٢-٧٢٣، بتصرف يسير

قلت : فاته بعض أغراض القراءات المتعلقة بجانب التفسير وهي التالية :

الغرض الأول : بيان المراد ؛ فمن اختلاف القراءات في النص الواحد ما الغرض منه بيان المراد، كما في القراءة المجملة والقراءة المفسرة، أو القراءة العامة و القراءة المخصصة بعض أفراد عموم القراءة الأخرى بالذكر، أو القراءة المطلقة والقراءة المقيدة.

الغرض الثاني : ترجيح معنى من المعاني التي تحتملها الآية وتوكيده .

الغرض الثالث : دفع الاشكال وبيان المعنى (١).

ولعل عذر صاحب كتاب «قواعد التدبر الأمثل» أنه إنما ذكر من الأغراض ماتبين له من اختلاف القراءات المتواترة دون الشاذة في سورة البقرة، والله أعلم.

المبحث الرابع : قواعد مهمة يتنبه لها أثناء دراسة أثر القراءات في التفسير.

من الأشياء المهمة للذي يبحث في «أثر القراءات في التفسير» مراعاة القواعد التالية :

(أ) الخلاف الواقع بين القراءات الصحيحة إنما هو من خلاف التنوع لا خلاف التضاد والتناقض (٢).

(ب) إضافة القراءة إلى المقرئ إنما هي إضافة اختيار واتباع وليست إضافة رأي وابتداع.

(ج) لا تفرقة بين القراءات الصحيحة المقبولة فكلها كلام الله تبارك وتعالى، وكلها قرآن، والمعاني التي تدل عليها كلها معان قرآنية لا تفضيل بينها .

قال أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) : «هذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يجز أن يقال احداهما أجود من الأخرى كما لا يقال ذلك في أخبار

(١) والأمثلة على هذه الأغراض، ستأتي في الباب الثاني والثالث من هذا القسم.

(٢) تقدم تقرير هذا الأصل ص ١٣٣ وما بعدها .

الآحاد إذا اختلفت معانيها» اهـ (١).

قلت : ولذلك حين بالغ بعضهم في التفضيل بين قراءة الكسائي وعاصم ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ الفاتحة؛ بالمد وقراءة باقي السبعة ﴿مَلِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ بحذف الألف تعقبهم أبو شامة الدمشقي (ت ٦٦٥هـ) بقوله : «قد أكثر المصنفون في القراءات والتفاسير من الكلام في الترجيح بين هاتين القراءتين حتى أن بعضهم يبالغ في ذلك إلى حد يكاد يسقط وجه القراءة الأخرى ، وليس هذا بمحمود بعد ثبوت القراءتين وصحة اتصاف الرب سبحانه وتعالى بهما فهما صفتان لله تعالى يتبين وجه الكمال له فيهما فقط، ولا ينبغي أن يتجاوز ذلك» اهـ (٢).

قلت : يقصد رحمه الله بالصفتين : «ملك»، و «مالك».

وقال أبو حيان الأندلسي (ت ٧٥٤هـ) في موضع شبيه : «هذا الترجيح الذي يذكره المفسرون والنحويون بين القراءتين لا ينبغي؛ لأن هذه القراءات كلها صحيحة ومروية ثابتة عن رسول الله ﷺ ، ولكل منها وجه ظاهر حسن في العربية، فلا يمكن ترجيح قراءة على قراءة» اهـ (٣).

وقال أيضا رحمه الله : «وتكلموا في ترجيح أحد القراءتين على الأخرى، وقد تقدم أنني لا أرى شيئا من هذه التراجيح؛ لأنها كلها منقولة متواترة قرآنا فلا ترجيح في إحدى القراءتين على الأخرى» اهـ (٤).

وقال أيضا رحمه الله : «لا ترجيح، إذ كل من القراءتين متواترة» اهـ (٥).

وقال في موضع آخر: «وقد تقدم لنا غير مرة أنا لا نرجح بين القراءتين المتواترتين، وحكى أبو عمر الزاهد في كتاب «اليواقيت» أن أبا العباس أحمد بن يحيى (ثعلبا) كان لا يرى الترجيح بين القراءات السبع، وقال : قال ثعلب: إذا اختلف الإعرابان في القرآن عن السبعة لم أفضل إعراباً على إعراب في القرآن، فإذا خرجت إلى الكلام (كلام الناس) فضلت الأقوى.

ونعم السلف لنا أحمد بن يحيى كان عالما بالنحو واللغة متدينا ثقة» اهـ (٦)
قلت : هذا هو الصواب - إن شاء الله - خلافا لما ذهب إليه بعضهم (٧).

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢٤٣/٣ ونقله القرطبي في تفسيره ٢٩١/١٤.

(٢) إبراز المعاني من حرز الأمانى ص ٧٠.

(٣) البحر المحيط ٢/٢٦٥.

(٤) ماسبق ٥٠٦/٢.

(٥) ماسبق ٨٨/٣.

(٦) ماسبق ٨٧/٤.

(٧) التحرير والتنوير ٦١/١-٦٣.

(د) القراءات الشاذة (وهي كل قراءة صح سندها وخالفت رسم المصحف) يستفاد منها في التفسير، إلا أنه لا تجوز القراءة بها في الصلاة.

وقد تقدم معك قريباً (١) نقل كلام ابن جني (ت ٣٩٢هـ) رحمه الله في ذلك وفيه قوله: «... إلا أننا وإن لم نقرأ في التلاوة به مخافة الانتشار فيه، ونتابع من يتبع في القراءة كل جائز رواية ودراية، فإننا نعتقد قوة هذا المسمى شاذاً، وأنه مما أمر الله تعالى بتقبله، وأراد منا العمل بموجبه وأنه حبيب إليه ومرضي من القول لديه» اهـ (٢).

قلت : المقصود أنه لاتناقض بين الاستفادة من القراءة الشاذة في التفسير وبين عدم القراءة بها في الصلاة وبالله التوفيق .

(هـ) القراءات المسندة في كتب الحديث، ولم تنتسب إلى أحد من أئمة الرواية اصطلاح على تسميتها بـ «قراءة النبي ﷺ».

قال في «التحرير والتنوير»: «وقد تروى قراءات عن النبي ﷺ بأسانيد صحيحة في كتب الصحيح مثل صحيح البخاري ومسلم وأضرابهما إلا أنها لا يجوز لغير من سمعها من النبي ﷺ القراءة بها؛ لأنها غير متواترة النقل فلا يترك المتواتر للأحاد، وإذا كان راويها قد بلغته قراءة أخرى متواترة تخالف ما رواه وتحقق لديه التواتر وجب عليه أن يقرأ بالمروية تواتراً .

وقد اصطلاح المفسرون على أن يطلقوا عليها قراءة النبي ﷺ؛ لأنها غير منتسبة إلى أحد من أئمة الرواية .

ويكثر ذكر هذا العنوان في تفسير محمد بن جرير الطبري [ت ٣١٠هـ] وفي «الكشاف» وفي «المحرر الوجيز» لعبدالحق الإشبيلي [ت ٥٤١هـ] وسبقهم إليه أبو الفتح ابن جني [ت ٣٩٢هـ] فلا تحسبوا أنهم أرادوا بنسبتها إلى النبي ﷺ أنها وحدها المأثورة عنه، ولا ترجيحها على القراءات المشهورة لأن القراءات المشهورة قد رويت عن النبي ﷺ بأسانيد أقوى، وهي متواترة على الجملة ... وما كان ينبغي إطلاق وصف «قراءة النبي» عليها؛ لأنه يوهم من ليسوا من أهل الفهم الصحيح أن غيرها

(١) ص ٣٠٥ وما بعدها وراجع تعليقنا هناك على غلوه في عبارته .

(٢) المحتسب ٣٣/١ .

لم يقرأ به النبي ﷺ... اهـ (١).

(و) القراءات المقبولة قد تتفاوت بما تشتمل عليه من خصوصيات البلاغة أو الفصاحة أو كثرة المعاني، وهو تمايز متقارب لا يجعل حمل أحد القراءتين على الأخرى متعينا ولا مرجحا (٢).

الا ترى أنه يكون قراءتان في لفظ واحد ولكل منهما توجيه يخالف الآخر (٣) ويتعين عدم حمل أحد القراءتين على الأخرى إذا تذكرنا القاعدة الكلية التي كثيرا ما يذكرها أهل العلم وهي : «إعمال الكلام أولى من إهماله» ومما يدخل فيها قاعدة : «التأسيس أولى من التأكيد» (٤) فلائ تكون القراءة مؤسسة لمعنى أولى من أن تجعل مؤكدة لمعنى القراءة الأخرى. وعلى هذا جرى جمهور المفسرين رحمهم الله تعالى.

(ز) التفاسير الواردة عن السلف في تفسير الآيات الكريمة، ينبغي قبل الحكم باختلافها: النظر في كونها تفاسير للآية على قراءة دون قراءة.

قال السيوطي (ت ٩١١هـ) : «من المهم معرفة التفاسير الواردة عن الصحابة بحسب قراءة مخصوصة، وذلك أنه قد يرد عنهم تفسيران في الآية الواحدة مختلفان فيظن اختلافًا وليس باختلاف وانما كل تفسير على قراءة ، وقد تعرض السلف لذلك... اهـ (٥).

(ح) الخلاف الواقع بين معاني القراءات على نوعين :

(١) اختلاف اللفظ والمعنى جميعا مع جواز أن يجتمعا في

شيء واحد لعدم تضاد اجتماعهما فيه.

(٢) اختلاف اللفظ والمعنى مع امتناع جواز أن يجتمعا في

شيء واحد لاستحالة اجتماعهما فيه ، بل يتفان من وجه آخر لا يقتضي التضاد (٦).

قال ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) بعد ذكره للنوعين السابقين من أنواع الخلاف

(١) التحرير والتنوير ١/٥٤-٥٥.

(٢) التحرير والتنوير ١/٦١، ٥٥.

(٣) البحر المحيط ٨/٢٢٦.

(٤) الأشباه والنظائر في قواعد فقه الشافعية ص ١٢٨، ١٣٥ والأشباه والنظائر في قواعد فقه الحنفية ص ١٣٥، ١٤٩.

(٥) الاتقان (أبوالفضل) ٤/١٩٣ وقد سبقت الإشارة إلى ذلك ص ٣٤١.

(٦) وقد سبق بسط هذا، مع ذكر الأمثلة ص ١٣٥ وما بعدها.

الواقع بين معاني القراءات : «وكل قراءة منها مع القراءة الأخرى بمنزلة الآية مع الآية يجب الإيمان بها كلها، واتباع ما تضمنته من المعنى علما وعملا، لا يجوز ترك موجب إحداهما لأجل الأخرى ظنا أن ذلك تعارض بل كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «من كفر بحرف منه فقد كفر به كله» اهـ (١).

قلت : ولعل هذا مما يدخل في قول سفيان : «ليس في القرآن اختلاف وإنما كلام جامع يراد به هذا وهذا» اهـ (٢).

ويدخل أيضا في قول ابن جني (ت ٣٩٢هـ) : «إذا تباعد معنيا قراءتين هذا التباعد وأمكن أن يجمع بينهما كان ذلك جميلا وحسنا» اهـ (٣).

(١) مجموع الفتاوى ٣٩١/١٣ وقارن بالنشر ٥١/١ وأثر ابن مسعود سبق تخريجه ص ٢٦٣.
(٢) عزاه في الدر المنثور ٤٠/١ إلى سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في كتاب الرؤية.
(٣) المحتسب ٢٧٧/١.

وبعد : فلتك أهم القواعد التي على الباحث في «أثر القراءات في التفسير» أن يتنبه لها.

أما عن النهج الذي سلكته في بيان «أثر القراءات في التفسير» فقد سلكت النهج التالي :

أولاً : القراءات التي لها أثر واضح في التفسير سعت الى استقراءها من قراءات القراء العشرة والقراءات الشاذة التي أوردها ابن جني (ت ٣٩٢هـ) في كتابه «المحتسب»، وكذا ما أورده عبدالرزاق الصنعاني (ت ٢١١هـ) في تفسيره، وأبوجعفر الطبري (ت ٣١٠هـ) في تفسيره، وابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ) في تفسيره مما أورده السيوطي (ت ٩١١هـ) في كتابه «الدر المنثور» من قراءات وهو يشمل ما أورده أئمة التفسير في تفاسيرهم المسندة من قراءات، وكذا ما أورده أئمة الحديث.

ومن كتب الحديث مايلي :

- موطأ الامام مالك (ت ١٧٩هـ)
- مسند الامام أحمد (ت ٢٤١هـ)
- الكتب الستة
- المستدرک للحاکم (ت ٤٠٥هـ)
- السنن الكبرى للبيهقي (ت ٤٥٨هـ).

وانتهجت السبيل التالي :

- (١) أورد الآية التي حصل فيها اختلاف في القراءة له أثر في التفسير برواية حفص عن عاصم فأجعلها أصل الباب.
- (٢) أذكر القراءات الأخرى في الآية بغير رواية حفص عن عاصم مبينا سندها وحكمها إذا أمكن ذلك .
- (٣) أبين معنى كل قراءة .

(٤) ثم أذكر حاصل القراءات في المعنى .

(٥) ثم أسجل ملاحظات حول الآية أو القراءة إن وجدت.

ثانياً : القراءات التي لها مدخل في التفسير من بعض جوانبه كتشوع القراءات الذي ينتج أسلوب الالتفات أو القراءات التي يتشوع فيها الأسلوب بين البناء للفاعل أو لما لم يسم فاعله؛ هذه القراءات استقرأتها من القراءات العشر المتواترة فقط لأنها - غالباً - لا تشيف معنى جديداً كسابقتها ورأيت أن استقرأها من القراءات العشر يحقق المقصود، والله المستعان.

ثالثاً: القراءات التي لم ينتج تشوعها أثراً واضحاً في التفسير إنما جاءت على سبيل تعدد اللغات أو تعدد الإعراب أكتفيت بإيراد جملة من الأمثلة عنه، دون التفصيل في البيان الذي جريت عليه في القراءات التي أنتج تشوعها أثراً بيئاً في التفسير والأحكام، لضعف تعلق هذا النوع بالتفسير.

وهذا أوان ذكر الآيات المتعلقة بذلك، بعون الله تبارك وتعالى :

الباب الثاني في القراءات التي بيّنت المعنى أو وسّعت أو أزالته الإشكال.

ويشتمل على الفصول التالية :

الفصل الأول : في القراءات التي بينت معنى الآية .

الفصل الثاني : في القراءات التي وسّعت معنى الآية .

الفصل الثالث : في القراءات التي أزالته الإشكال .

في هذا الباب أورد القراءات التي أنتج تنوعها بيان معنى الآية، أو وسَّع معنى الآية فصار شاملاً لأكثر من معنى، كما يتضمن القراءات التي أزال الإشكال الوارد في بعض الآيات ورفعته.
وفي هذا الباب الفصول التالية :

الفصل الأول : في القراءات التي بينت معنى الآية .

يتضمن هذا الفصل الآيات التي وردت فيها قراءات بينت معناها ووضحته، وغالبها أنتج فيه اختلاف القراءات أكثر من معنى في الآية لكنه يجتمع في معنى واحد جامع بلا تضاد، ولا شك أن ورودها على هذه الصفة مما يزيد المعنى وضوحاً وبياناً والله أعلم.
وأورد هنا مواضع الآيات حسب ورودها في ترتيب المصحف الشريف وعددها في هذا الفصل اثنان وعشرون موضعاً وهي التالية :

الموضع الأول :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ الفاتحة : ٤ .
تنوعت القراءات في قوله تعالى : ﴿مَالِكِ﴾ :
فقرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف : ﴿مَالِكِ﴾ بالالف مداً ، ووافقهم
الحسن والمطوعي عن الأعمش .
وقرأ باقي العشرة : ﴿مَلِكِ﴾ بغير ألف (١) .
معنى القراءتين :
القراءة بـ ﴿مَلِكِ﴾ : الملك هو المتصرف بالأمر والنهي في الأمورين ،
من الملك بضم الميم .
القراءة بـ ﴿مَالِكِ﴾ : المالك هو المتصرف في الأعيان المملوكة كيف
شاء من الملك بكسر الميم (٢) .
قال الأخفش (ت٢١٥هـ) : «يقال : «ملك» من الملك بضم الميم و «مالك» من
الملك بكسر الميم وفتحها» اهـ (٣) .
قال أبوحيان (٧٥٤هـ) : «الملك هو القهر والتسلط على من تتأتى منه
الطاعة، ويكون ذلك باستحقاق وبغير استحقاق .
والملك هو القهر على من تتأتى منه الطاعة ومن لا تتأتى منه، ويكون ذلك
منه باستحقاق، فبينهما عموم وخصوص من وجه» اهـ (٤) .
حاصل القراءتين :
يتحصل من القراءتين أن الله مالك يوم الدين وملكه فهو سبحانه وتعالى

(١) النشر ٢٧١/١ الاتحاف ص ١٢٢ .
فائدة :

وقرأ «ملك» على وزن سهل أبوهريرة وعاصم الجحدري ورواها الجعفي وعبدالوارث عن
أبي عمرو وهي لغة بكر بن وائل .

وقرأ «ملكي» باشباع كسرة الكاف أحمد بن صالح عن ورش عن نافع .

وقرأ «ملك» على وزن عجل أبوعثمان النهدي والشعبي وعطية .

ورويت قراءات غير ذلك بلغت الى ثلاث عشرة قراءة وجميعها راجع في المعنى إلى
القراءتين المتواترتين «مالك» و «ملك» .

انظر المصاحف لابن أبي داود ص ١٠٣-١٠٦ البحر المحيط ٢٠/١ النشر ٤٧/١-٤٨
روح المعاني ٨٢/١-٨٣ .

(٢) تفسير البيضاوي ص ٤ .

(٣) بواسطة البحر المحيط ٢١/١ وانظر معاني القرآن للأخفش ١٦٠/١ .

(٤) البحر المحيط ٢١/١ .

المالك ليوم الدين لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكما، كملكهم في الدنيا، وهو سبحانه الملك في يوم الدين دون جميع خلقه الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكا جبابرة ينازعونه الملك ويدافعونه الانفراد بالكبرياء والعظمة والسلطان والجبرية ، فأيقنوا بقاء الله يوم الدين أنهم الصغرة الأتلة، وأن له دونهم ودون غيرهم الملك والكبرياء والعزة والبهاء، كما قال جل ذكره وتقدسست أسماؤه في تنزيله : ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿غافر: ١٦﴾.

فأخبر تعالى في قوله : ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أنه المنفرد يومئذ بالملك دون ملوك الدنيا الذين صاروا يوم الدين من ملكهم إلى ذلة وصغار، ومن دنياهم في المعاد إلى خسار. (١).

وأخبر بقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أنه المنفرد بالمالكية في ذلك اليوم، فليس لأحد تصرف ولا حكم في شيء، إلا الله الواحد القهار .
ويلاحظ مايلي :

(١) الفرق بين الوصفين ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ و ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ بالنسبة إلى الرب سبحانه وتعالى أن «الملك» صفة لذاته و «المالك» صفة لفعله (٢).

(٢) بناء على ماتقدم لا يصح أن يقال : إن «مالك» أبلغ من «ملك» أو العكس (٣)، إذ القراءتان كلام الله تعالى، تتضمنان صفتين لله تعالى .
قال الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) : «والحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر، فالمالك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو ملك له بالبيع والهبة والعنق ونحوها، والملك يقدر على ما لا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك وحياطته ورعاية مصالح الرعية فالمالك أقوى من الملك في بعض الأمور، والملك أقوى من المالك في بعض الأمور» اهـ (٤).

قلت : وهذا التفريق الذي ذكره الشوكاني إنما هو من جهة الدلالة اللغوية للفظ ، وإلا فإن وصف الملك والمالكية بالنسبة لله غيره بالنسبة

(١) تفسير الطبري (دار الفكر) ١/٦٥ .

(٢) تفسير الشوكاني ١/٢٢ .

(٣) كما صنع بعض المفسرين عند هذا الموضع .

(٤) تفسير الشوكاني ١/٢٢ .

للشعر فإنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فالوصفان في حق الله تعالى وصفا كمال لا تتطرق إليهما معاني النقص التي تتطرق إليها عند استعمالها أو أحدهما في حق الخلق، وعليه فلا مجال للترجيح بهما بين القراءتين.

قال الألوسي (ت ١٢٧٠هـ) رحمه الله : «وعندي لا ثمرة للخلاف والقراءتان فرسا رهان ، و لافرق بين المالك» و «الملك» صفتين لله تعالى كما قاله السمين، و لا التفات إلى من قال إنهما كـ«حاذر» و «حذر»، ومتى أردت ترجيح أحد الوصفين تعارضت لدي الأدلة، وسدت على الباب الآثار، وانقلب إلي بصر البصيرة خاسئا وهو حسير، إلا أنني أقرأ كالكسائي ﴿مَالِكٌ﴾ لأحظى بزيادة عشر حسنات (١)، ولأن فيه إشارة واضحة إلى الفضل الكبير والرحمة الواسعة والطمع بالمالك من حيث أنه مالك، فوق الطمع بالملك من حيث أنه ملك، فأقصى ما يرجى من الملك أن ينجو الانسان منه رأسا برأس، ومن المالك يرجى ما هو فوق ذلك، فالقراءة به أرفق بالمذنبين مثلي، وأنسب بما قبله، وإضافته إلى يوم الدين بهذا المعنى ليكسر حرارته، فإن سماع يوم

(١) أي: لزيادة الألف في هذه القراءة، وهو لفت إلى قوله ﷺ : «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول «الم» حرف ولكن «ألف» حرف و «لام» حرف و «ميم» حرف»

حديث صحيح .

أخرجه الترمذي عن عبدالله بن مسعود في أبواب فضائل القرآن باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ماله من الأجر حديث رقم (٣٠٨٧) ورواه الدارمي وغيره. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٩/٣ حديث رقم (٢٣٢٧) وصححه محقق جامع الأصول ٤٩٨/٨.

قلت : وهذا الاستدلال من الألوسي رحمه الله بناء على كون الحرف المراد من الحديث هو أحد حروف الهجاء، بيد أن المحققين من أهل العلم بينوا أن المراد من الحرف في الحديث الكلمة، فالاسم وحده حرف، والفعل وحده حرف، وحرف المعنى وحده حرف، لقوله : «ألف حرف» وهذا اسم، ولهذا لما سأل الخليل أصحابه عن النطق بالزاي فقالوا: زاي . فقال: نطقتم بالاسم، وإنما الحرف زه.

وهذا قول ابن تيمية وابن كثير وتلميذه ابن الجزري وغيرهم كثير، وهو الصحيح - إن شاء الله - إن لو كان المراد بالحرف في الحديث حرف الهجاء لكان «ألف» بثلاثة أحرف، و «لام» بثلاثة أحرف، و «ميم» بثلاثة أحرف.

وهذا التقرير قد عُسِّرَ على الفهم، فينبغي أن يُتَفَتَّنَ له فكثير من الناس لا يعرفه كما قال ابن الجزري رحمه الله.

انظر النشر ٤٥٣/٢-٤٥٥ تفسير القاسمي ٢٣٢/١، ٢٨٩.

الدين يقلقل أفئدة السامعين.
ويشبه ذلك من وجه قوله تعالى : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ التوبة: ٤٣
والمدار على الرحمة لا سيما والأمر جدير والترغيب فيه أرغب، على أنه لا
يخلو الحال عن ترهيب.
وكأنني بك تعارض هذه النكتة، وما عليّ، فهذا الذي دعاني إليه حسن
الظن» اهـ (١).

قلت : أحسن الله إليك بظنك الخير، لكن تحرير المسائل العلمية لا بد منه،
فجزاك الله خيراً، والذي يظهر - والله أعلم - أن باب الترجيح بين
القراءتين ينبغي أن يغلق إذ الجميع كلام الله، وكل معنى دلت عليه قراءة
هو مراد الله سبحانه وتعالى، والمعنى المركب من اللفظ العربي من حيث
هو، حق في نفسه، ولكنه بالنسبة لله تعالى على ما يليق بجلاله سبحانه، فلا مجال
للترجيح بين القراءتين هنا بما أثاره - رحمه الله - من المعاني، إذ غايته
أنه متعلق فيها بدلالة اللفظ العربية لا من حيث تعلقها بصفتين له سبحانه
وتعالى والله أعلم.

(١) روح المعاني ٨٣/١ - ٨٤.

الموضع الثاني :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝ يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ البقرة: ٨-٩.

تنوعت القراءات في قوله : ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ :

فقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم الياء وألف بعد الخاء وكسر الدال : ﴿يَخَادِعُونَ﴾.

وقرأ باقي العشرة بفتح الياء وسكون الدال من غير ألف : ﴿يَخْدَعُونَ﴾ (١).

معنى القراءتين :

والقراءتان بمعنى واحد (٢)، غير أن في المفاعلة زيادة في المعنى؛ إذ تقتضي حصول الفعل من أكثر من واحد، فإذا لم يقتض الواقع المشاركة فهي للمبالغة (٣).

فإذا اعتبرنا المفاعلة على بابها من اثنين؛ فهم خادعون أنفسهم حيث منوها الأباطيل، وأنفسهم خادعتهم حيث منتهم ذلك أيضا.

وإذا اعتبرنا المفاعلة على غير بابها فهي على سبيل المبالغة في الفعل فهم يمعنون في الخداع ولكنهم في الحقيقة ما يخادعون إلا أنفسهم، إذ وبال ذلك ليس راجعا إلى أحد غيرهم، فكأنهم ماخادعوا ولا كادوا إلا أنفسهم بايرادها موارد الهلكة وهم لا يشعرون بذلك جهلا منهم.

ويؤيد هذا المنزع أنه قد يجيء «فاعل» من واحد كقولك «عاقبت اللص» و«داويت المريض» و«طارقت النعل» (٤).

ويمكن أن يقال تلخيصا لهذا الوجه (أعني: كون المفاعلة على غير بابها): قراءة : ﴿يَخْدَعُونَ﴾ تصف حالهم العادي في خداعهم المعتاد.

وقراءة : ﴿يَخَادِعُونَ﴾ تصف حالهم أثناء مبالغتهم في الخداع فهم في حال كونهم «يخدعون» وفي حال كونهم «يخادعون» لا يخدعون ولا يخادعون إلا أنفسهم؛ إذ وبال ذلك راجع إليهم (٥).

حاصل القراءتين :

بين القراءتين تكامل في المعنى؛ إذ قراءة ﴿يَخْدَعُونَ﴾ بينت مال أمرهم

(١) المبسوط ص ١١٥ النشر ٢٠٧/٢.

(٢) الكشف ٢٢٤/١.

(٣) ينظر شذا العرف ص ٤٢-٤٣ ودراسات لأسلوب القرآن الكريم ج ١ ق ٢ ص ٤٢٤.

(٤) البحر المحيط ٥٧/١.

(٥) قواعد التدبر الأمثل ص ٧٢٥.

في خداعهم المعتاد، وقراءة ﴿يُخَادِعُونَ﴾ بينت مآل أمرهم في حال مبالغتهم في الخداع، ففي الحاليين ما يخدعون إلا أنفسهم، إذ وبال ذلك عليهم. وتلاحظ الأمور التالية :

(١) قال الراغب (ت ٥٠٢هـ) : «الخداع إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبدية على خلاف ما يخفيه، قال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] أي : يخدعون رسوله وأوليائه، ونسب ذلك إلى الله تعالى من حيث أن معاملة الرسول كمعاملته ، ولذلك قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وجعل ذلك خداعا تفضيلا لفعلهم وتنبيها على عظم الرسول وعظم أوليائه.

وقول أهل اللغة : إن هذا على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه.

فيجب أن يعلم أن المقصود بمثله في الحذف لا يحصل لو أتى بالمضاف المحذوف لما ذكرنا من التنبيه على أمرين : أحدهما: فظاعة فعلهم فيما تحروه من الخديعة وأنهم بمخادعتهم إياه يخدعون الله.

والثاني: التنبيه على عظم المقصود بالخداع وأن معاملته كمعاملة الله كما نبه عليه بقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]. اهـ (١).

قلت : يعني رحمه الله أنه لو صرح بالمضاف فانت الدلالة على الأمرين المذكورين، وقد قيل : إنه ليس على حذف البتة وأن القوم لجهلهم يزعمون الله مما يصح خداعه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (٢).

(٢) لم يختلف القراء العشرة في قوله تعالى : ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ البقرة: ٩ و كذا في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ النساء: ١٤٢ و كذا في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ الأنفال: ٦٢. ولم يجر في هذه المواضع الثلاثة الخلاف الذي في هذا الموضع، وذلك لأن القراءة سنة متبعة مبنية على التوقيف (٣).

(١) المفردات ص ١٤٣-١٤٤.

(٢) عمدة الحفاظ ص ١٥٢.

(٣) المغني في توجيه القراءات العشر ١/ ١٢٨.

الموضع الثالث :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا لِلَّهِ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ البقرة: ٨٥.

تنوعت القراءات في قوله : ﴿تَفَادُوهُمْ﴾ :

فقرأ نافع وعاصم والكسائي وأبو جعفر ويعقوب بضم التاء وفتح الفاء وألف بعدها: ﴿تَفَادُوهُمْ﴾ وافقهم الحسن والمطوعي عن الأعمش.
وقرأ باقي العشرة بفتح التاء وسكون الفاء بلا ألف : ﴿تَفْدُوهُمْ﴾ وافقهم ابن محيصن واليزيدي والشنبوذي عن الأعمش (١).

معنى القراءتين :

معنى القراءة بـ ﴿تَفْدُوهُمْ﴾: تدفعون الفداء وهي بمعنى «فعل» المجرد إذ لا تقتضي الفعل إلا من واحد (٢).

معنى القراءة بـ ﴿تَفَادُوهُمْ﴾: أن الفعل حصل من اثنين لأن كل واحد من الفريقين يدفع من عنده من الأسارى ويأخذ من عند الآخرين من الأسرى فكل واحد مفاد فاعل، فـ ﴿تَفَادُوهُمْ﴾ على وزن «تفاعلوهم» تقتضي المفاعلة (٣). ويمكن أن تكون المفاعلة من الاثنين بصورة أخرى: يعطى الأسير المال ويعطى الأسر الاطلاق من الأسر (٤).

حاصل القراءتين :

بين القراءتين تعدد في المعنى ، فتارة يفدى الأسير بالمال وتارة يفدى الأسير باطلاق صراح أسير ؛ فقراءة ﴿تَفْدُوهُمْ﴾ بينت الحال الأول، وقراءة ﴿تَفَادُوهُمْ﴾ بينت الحال الثاني.

وتلاحظ الأمور التالية :

(١) أن القراءة بـ ﴿تَفَادُوهُمْ﴾ فسرت سابقا على أساس أن المفاعلة فيها بين اثنين، وأشير هنا إلى أنها قد تحتل أنها من واحد فلا تكون على بابها.

(١) المبسوط ص ١١٩ النشر ٢١٨/٢ الاتحاف ص ١٤١.

(٢) الكشف ٢٥٢/١ حجة القراءات ص ١٠٥.

(٣) الكشف ٢٥٢/١ المغني في توجيه القراءات العشر ١٥٦/١.

(٤) الاتحاف ص ١٤١ قلاند الفكر ص ١٧.

وتحتمل معنى آخر بينه مكى بن أبى طالب في قوله : «إن المفاعلة قد تكون من واحد فيكون معناه معنى قراءة من قرأ بغير ألف، فيتفق معنى القراءتين، فأما من قرأ بفتح التاء من غير ألف فانه بناه على أن أحد الفريقين يفدي أصحابه من الفريق الآخر بمال أو غيره من عرض، وكذلك العادة في المغلوب وهو يفدي ما أخذ له الغالب، فالفعل من واحد، إذ لا يكون كل واحد من الفريقين غالبا.

وإنما تحمل المفاعلة على القراءة بالآلف أن لكل واحد من الفريقين أسيرا فيفادي كل واحد منهما ويدفع ما عنده من الأسرى بما عند الفريق الآخر من الأسرى.

ويجوز أن يكونا تقاتلا فغلب أحدهما الآخر وأسر الغالب ثم تقاتلا فغلب المغلوب وأسر، ثم تقادوا، وإنما أسروا أسرى هؤلاء وأسرى هؤلاء» اهـ (١).

(٣) في البحر المحيط : «ومعنى ﴿تَفَادَوْهُمْ﴾: تفدوهم؛ إذ المفاعلة تكون من اثنين ومن واحد، ففاعل بمعنى فعل المجرد وهو أحد معانيها. وقيل : معنى «فادي» بادل أسيرا بأسير، ومعنى «فدى» دفع الفداء وقيل : معنى ﴿تَفَدَوْهُمْ﴾ بالصلح، و ﴿تَفَادَوْهُمْ﴾ بالعنف. وقيل : ﴿تَفَادَوْهُمْ﴾ تطلبوا الفدية من الأسير الذي في أيديكم من أعدائكم و ﴿تَفَدَوْهُمْ﴾ تَعَطَّوْا فديتهم. وقال أبو علي: معنى ﴿تَفَادَوْهُمْ﴾ في اللغة تطلقونهم بعد أن تأخذوا عنه شيئا، وفاديت نفسي، أي: أطلقتها بعد أن رفعت شيئا» اهـ (٢).

(١) الكشف ٢٥٢/١.

(٢) البحر الميط ٢٩١/١.

الموضع الرابع :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَا نُنَسِّخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة: ١٠٦.

تنوعت القراءات في قوله ﴿نُنْسِهَا﴾ :

فقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح النون والسين وهمزة ساكنة بين السين والهاء ﴿نُنْسِأُهَا﴾، ووافقهما ابن محيصن واليزيدي.

وقرأ باقي العشرة بضم النون وكسر السين من غير همزة ﴿نُنْسِهَا﴾ ووافقهم الحسن والأعمش (١).

وقرأ سعد بن أبي وقاص : «تنسأها» بتاء مفتوحة ونون ساكنة .

وقرأ أبي بن كعب: «أو ننسك» (٢).

عن القاسم بن ربيعة قال : «سمعت سعدا يقرأ : «ماننسخ من آية أو تنسأها» قال : فقلت : إن سعدا يقرأها ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ فقال: إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على ابنه (يعني: سعدا) قال (القاسم) : وحفظي أنه قرأ : ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦] ﴿وَأَذْكُرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] . (٣).

معنى القراءات :

القراءة بـ ﴿نُنْسِهَا﴾ بغير همز في معناها وجهان :

الأول: ننسها من النسيان ضد الذكر .

الثاني : ننسها من الترك، والمعنى أو نترك إنزالها أو نمحها فلا تترك لفظا يتلى ولا حكما يلزم، أو نأمر بتركها يقال: أنسيته الشيء أي: أمرت بتركه، ونسيته تركته (٤).

القراءة بـ ﴿نُنْسِأُهَا﴾ بالهمز من التأخير تقول العرب: نسأت الإبل عن

(١) المبسوط ص ١٢١ النشر ٢٢٠/٢ الاتحاف ص ١٤٥.

(٢) زاد المسير ١٢٨/١ البحر المحيط ٣٤٣/١، وأوردا قراءات شاذة أخرى تعود في المعنى إلى القراءتين المتواترتين وانظر «المحتسب» ١٠٣/١ الدر المنثور ٢٥٥/١.

(٣) أثر ضعيف الاسناد .

أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ٥٥/١ والنسائي في تفسيره ١٨١/١ تحت رقم (١٦) والطبري في تفسيره (شاكراً) ٤٧٤-٤٧٥ تحت رقم (١٧٥٥-١٧٥٧) وابن أبي داود في المصاحف ص ١٠٧ والحاكم في المستدرک ٢٢٤٢، ٢٢١، ٥٢١ وصححه ووافقه الذهبي.

ومدار الحديث على القاسم بن عبدالله بن ربيعة بن قانف الثقفي لم يرو عنه غير يعلى بن عطاء، وانفرد ابن حبان بتوثيقه كما في تهذيب التهذيب ٣٢٠/٨ وقال في التقريب ص ٤٥٠ : «مقبول» اهـ قلت : يعنى عند المتابعة ولم أقف له على متابع والله أعلم .

وعزاه في الدر المنثور ٢٥٥/١ إلى أبي داود في ناسخه وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) تفسير الرازي ٢٣١/٣ البحر المحيط ٣٤٣/١.

الحوض وأنسأ الابل عن ضمئها يوما أو يومين أو أكثر آخرها عن الورد،
والمعنى في الآية فيه ثلاثة وجوه :

الأول : تؤخر نسخها .

الثاني : تؤخر إنزالها .

الثالث : نمحها لفظا وحكما (١).

حاصل القراءات :

ما ينسخ الله من آية أو ينسيها الرسول ﷺ أو يؤخر نسخها فإنه
سبحانه يأتي بخير منها أو مثلها .

وتلاحظ الأمور التالية :

(١) قد أنكر قوم معنى النسيان وقالوا: غير جائز أن يكون رسول
الله ﷺ نسي من القرآن شيئا مما لم ينسخ إلا أن يكون نسي منه شيئا ثم
ذكره .

قالوا: وبعد، فإنه لو نسي منه شيئا لم يكن الذين قرأوه وحفظوه من
أصحابه بجائز على جميعهم أن ينسوه .

قالوا: وفي قول الله جل ثناؤه: ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾
الاسراء: ٨٦ ما ينبيء عن أن الله تعالى ذكره لم ينس نبيه شيئا مما آتاه من
العلم (٢).

قال أبو جعفر الطبري (٣١٠هـ) رادا لهذا المنكر من القول : «وهذا
قول يشهد على بطلانه وفساده الأخبار المتظاهرة عن رسول الله ﷺ
وأصحابه بنحو الذي قلنا:

عن أنس بن مالك : «إن أولئك السبعين من الانتصار الذين قتلوا ببئر
معونة قرأنا بهم وفيهم كتابا : «بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا
وأرضانا»، ثم إن ذلك رفع» (٣).

وما أشبه ذلك من الأخبار التي يطول باحصائها الكتاب .

وغير مستحيل في فطرة ذي عقل صحيح ولا بحجة خبر أن ينسي الله نبيه
ﷺ بعض ما قد كان أنزله إليه فإذا كان ذلك غير مستحيل من أحد هذين
الوجهين؛ فغير جائز لقائل أن يقول ذلك غير جائز .

وأما قوله: ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الاسراء: ٨٦] فإنه
جل ثناؤه لم يخبر أنه لا يذهب بشيء منه وإنما أخبر أنه لو شاء لذهب

(١) زاد المسير ١٢٨/١ البحر المحيط ٣٤٤/١ .

(٢) تفسير الطبري (شاكر) ٢٧٩/٢ البحر المحيط ٣٤٤/١ .

(٣) حديث صحيح . سبق تخريجه بنحوه ص ٥٩ .

بجميعه فلم يذهب به والحمد لله بل إنما ذهب بما لا حاجة بهم إليه منه، وذلك أن ما نسخ منه فلا حاجة بالعباد إليه وقد قال تعالى ذكره : ﴿سَنَقْرَأُكَ فَلَا تَنْسَى ۝ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦-٧] فأخبر أنه ينسى نبيه منه ما شاء فالذي ذهب منه الذي استثناه» اهـ (١).

وقال أبو محمد عبد الحق ابن عطية (٥٤٦هـ) : «والصحيح في هذا أن نسيان النبي ﷺ لما أراد الله أن ينساه ولم يرد أن يثبته قرآنا جائز، وأما النسيان الذي هو آفة في البشر فالنبي ﷺ معصوم منه قبل التبليغ وبعد التبليغ ما لم يحفظه أحد من الصحابة، وأما بعد أن يحفظ فجائز عليه ما يجوز على البشر لأنه قد بلغ وأدى الأمانة» اهـ (٢).

قلت : يشير رحمه الله إلى قوله ﷺ لما سمع رجلا يقرأ في سورة بالليل فقال: «يرحمه الله لقد أذكرني آية كذا وكذا كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا» (٣).

قال ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : «في الحديث حجة لمن أجاز النسيان على النبي ﷺ فيما ليس طريقه البلاغ مطلقا، وكذا فيما طريقه البلاغ لكن بشرطين:

أحدهما : أنه بعد ما يقع منه تبليغه .

والآخر : أنه لا يستمر على نسيانه بل يحصل له تذكرة إما بنفسه

وإما بغيره.

وهل يشترط في هذا الفور ؟. قولان، فأما قبل تبليغه فلا يجوز عليه فيه النسيان أصلا» اهـ (٤).

قال الإسماعيلي (٥) : «النسيان من النبي ﷺ لشيء من القرآن يكون على قسمين :

أحدهما: نسيانه الذي يتذكره عن قرب وذلك قائم بالطباع

البشرية وعليه يدل قوله ﷺ في حديث ابن مسعود في السهو: «إنما أنا بشر

(١) تفسير الطبري (شاکر) ٢/٢٧٩-٢٨٠.

(٢) بواسطة البحر المحيط ١/٣٤٤.

(٣) حديث صحيح .

أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن باب نسيان القرآن وهل يقول نسييت آية كذا وكذا ؟. حديث رقم (٥٠٣٨).

(٤) فتح الباري ٩/٨٦.

(٥) أحمد بن إبراهيم بن اسماعيل أبوبكر الإسماعيلي، حافظ من أهل جرجان جمع بين الفقه والحديث ورياسة الدين والدنيا (٢٩٧-٣٧١هـ). الأعلام ١/٨٦.

مثلكم أنسى كما تنسون» (١).

والثاني: أن يرفعه الله عن قلبه على إرادة نسخ تلاوته، وهو المشار إليه بالاستثناء في قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئَكَ فَلَا تَنسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦-٤٧].

قال: فأما القسم الأول؛ فعارض سريع الزوال لظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وأما الثاني؛ فدخل في قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] على قراءة من قرأ بضم أوله من غير همزة اهـ (٢).

(١) حديث صحيح .

أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه منها في كتاب الصلاة باب التوجه نحو القبلة حديث كان حديث رقم (٤٠١)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب المساجد باب السهو في الصلاة والسجود له حديث رقم (٥٧٢).

(٢) بواسطة فتح الباري ٨٦/٩.

الموضع الخامس :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ آل عمران : ٧ .
هكذا قرأ عامة القراء العشرة .

وقرأ ابن عباس : «وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به»

وقرأ ابن مسعود : «وان حقيقة تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به» (١) .

عن طاوس قال كان ابن عباس يقرأها : «وما يعلم تأويلها إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به» (٢) عن الأعمش قال في قراءة عبد الله : «وإن حقيقة تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به» (٣) .

معنى القراءات :

قراءة عامة القراء العشرة : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ تحتل معنيين (٤) :

الأول : أن قوله : ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ معطوف على لفظ الجلالة وجملة ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ في موضع نصب على الحال والتقدير وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم قائلين آمنا به، والمعنى : إن الله والراسخين في العلم يعلمون ما تشابه منه .

وعلى هذا المعنى يكون الوقف على قوله : ﴿فِي الْعِلْمِ﴾ .

الثاني : أن قوله : ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ جملة مستأنفة والمعنى

(١) الدر المنثور ١٥٠/٢ وسيأتي تخريجها عنهما قريباً .

(٢) إسناده صحيح

أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ١١٦/١ ومن طريقه أخرجه الطبري في تفسيره (شاذر) ٢٠٢/٦ وابن الأنباري في الأضداد ص ٤٢٦ وأخرجه الحاكم في المستدرک ٢٨٩/٢ وصححه على شرطهما وصححه السيوطي في الإتيقان (أبوالفضل) ٦/٣ .

(٣) إسناده حسن إلى الأعمش .

أخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف ص ٦٧، ٦٩ .

(٤) البيان في غريب اعراب القرآن ١٩٢/١ .

أن المتشابه لا يعلمه إلا الله، ويقول الراسخون في العلم: آمنا به كل من عند ربنا.

وقراءة ابن عباس وابن مسعود معناها: أن الراسخين في العلم لا يعلمون المتشابه، فلا يعلم المتشابه إلا الله عز وجل.
حاصل القراءات :

بينت قراءة ابن عباس وابن مسعود أن المعنى المراد في القراءة المتواترة: اثبات علم الله عز وجل للمتشابه، وتسليم أهل الرسوخ في العلم بذلك وإيمانهم به.

وتلاحظ الأمور التالية :

(١) ذهب جمهور العلماء إلى أن الوقف على لفظ الجلالة من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ على معنى أن المتشابه لا يعلمه إلا الله، وتكون الواو استئنافية في قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾. وقراءة ابن عباس وابن مسعود تدل لصحة هذا المذهب؛ لأن هذه الرواية وإن لم تثبت بها قراءة فأقل درجاتها أن يكون خبرا بإسناد صحيح إلى ترجمان القرآن فيقدم كلامه في ذلك على من دونه (١).

(٢) في الآية إشارات تدل على أن الواو استئنافية لا عاطفة قال موفق الدين ابن قدامة (ت ٦٢٠هـ) : «في الآية قرائن تدل على أن الله سبحانه منفرد بعلم تأويل المتشابه وأن الوقف الصحيح عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ لفظا ومعنى أما اللفظ فلأنه لو أراد عطف الراسخين لقال: «ويقولون آمنا به» بالواو.

وأما المعنى فلأنه ذم مبتغي التأويل ولو كان ذلك للراسخين معلوما لكان مبتغيه ممدوحا لا مذموما.

ولأن قولهم: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ يدل على نوع تفويض وتسليم لشيء لم يقفوا على معناه سيما إذا اتبعوه بقولهم: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ فذكرهم ربهم ها هنا يعطي الثقة به والتسليم لأمره وأنه صدر منه وجاء من عنده كما جاء من عنده المحكم.

ولأن لفظة «أَمَّا» لتفصيل الجمل، فذكره لها في الذين في قلوبهم زيغ مع وصفه إياهم بابتغاء المتشابه وابتغاء تأويله يدل على قسم آخر يخالفهم في هذه الصفة وهم: «الراسخون» ولو كانوا يعلمون تأويله لم يخالفوا القسم

(١) الاتفاق (أبوالفضل) ٦/٣.

الأول في ابتغاء التأويل» اهـ (١).

ومما يؤيد أن الواو استئنافية لا عاطفة: أن الأسلوب الغالب في القرآن أنه تعالى إذا نفى عن الخلق شيئاً وأثبتته لنفسه أنه لا يكون له في ذلك الاثبات شريك كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ النمل: ٦٥ وقوله: ﴿لَا يَجْلِيهَا لَوَقْتَهَا إِلَّا هُوَ﴾ الأعراف: ١٨٧ وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ القصص: ٨٨؛ فالمطابق لذلك أن يكون قوله: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ معناه: أنه لا يعلمه إلا هو وحده.

(٣) ذهب بعض أهل العلم إلى أنه يجوز الوقف على لفظ الجلالة في قوله: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ ويجوز وصله مع قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، فجواز الوصل على اعتبار أن معنى التأويل هو التفسير وفهم المعنى، وجواز الفصل على اعتبار أن معنى التأويل هو حقيقة ما يؤول إليه الأمر وذلك لا يعلمه إلا الله.

وتعقب هذا التفصيل صاحب «أضواء البيان» بقوله: «وهو تفصيل جيد لكن يشكل عليه أمران:

الأول: قول ابن عباس رضي الله عنهما: «التفسير على أربعة أنحاء:

وتفسير لا يعذر أحد [بجهالته].

وتفسير تعرفه العرب من [كلامها].

وتفسير يعلمه العلماء.

وتفسير لا يعلمه إلا الله» (٢).

فهذا تصريح من ابن عباس أن هذا الذي لا يعلمه إلا الله بمعنى التفسير لا ما تؤول إليه حقيقة الأمر.

الثاني: أن الحروف المقطعة في أوائل السور لا يعلم المراد بها إلا الله إذ لم يقم دليل على شيء معين أنه هو المراد بها من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا من لغة العرب، فالجزم بأن معناها كذا على التعيين تحكم بلا دليل» اهـ (٣).

(١) روضة الناظر ص ٦٥.

(٢) قول ابن عباس أسنده عنه الطبري في تفسيره (شاكراً) ٧٥/١.

(٣) أضواء البيان ٢٣٦/١، بتصرف يسير.

الموضع السادس :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِثَ حَجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءَ بَزْعَمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ الأنعام: ١٣٨.
هكذا قرأ عامة القراء العشرة : ﴿حَجْرٌ﴾ .

وقرأ أبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وابن الزبير والأعمش وعكرمة وعمرو بن دينار: «حرث حرج» (١).

معنى القراءتين :

القراءة بـ ﴿حَرِثَ حَجْرٌ﴾ أي : ممنوعة لا يتصرف فيها .

القراءة بـ «حرث حرج» أي: مضيق عليها فلا يتصرف فيها.

حاصل القراءتين :

عبرت القراءتان عن معنى واحد بكلمتين؛ فقلوه: «حرث حرج» في معنى ﴿حَجْرٌ﴾ إذ معناه عندهم أنها ممنوعة محجورة أن يطعمها إلا من يشاءون أن يطعموه أياها بزعمهم (٢).

وأفادت الآية بالقراءتين أن الأرض محجورة عليها وأنه محرج الأكل منها.

فائدة :

عد هذا أبو الفتح ابن جني (ت ٣٩٢هـ) من باب الاشتقاق الأكبر (٣).
حيث يقلب الأصل الواحد والمادة الواحدة الى صور مختلفه يخطمها كلها معنى واحد؛ فمادة : [ح. ج. ر] تقاليبها : [ح ج ر، ج ر، ح ر، ح ر ج، ح ج ر] أما [رح ج] فمهمل.

وهذه الصور الخمس تلتقي في معنى الشدة والضيق والاجتماع.
وقال رحمه الله : «وأعلم أننا لاندعي أن هذا مستمر في جميع اللغة، كما لا ندعي للاشتقاق الأصغر أنه في جميع اللغة ... وقد رَسَمْتُ لك منه رسماً فاحتذه وتقيله تحظ به، وتكثر إعظام هذه اللغة الكريمة من أجله، نعم وتسترفده في بعض الحاجة إليه فيعينك ويأخذ بيدك» اهـ (٤).

(١) المحتسب ٢٣١/١.

(٢) ماسبق.

(٣) الخصائص ١٣٣/٢ المحتسب ٢٣١/١.

(٤) الخصائص ١٣٨/٢-١٣٩.

الموضع السابع :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ، وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَا مَسْتَمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ النساء: ٤٣.

وقول الله تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوْهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنْبًا فَاطَهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَا مَسْتَمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ المائدة: ٦.

تنوعت القراءات في قوله : ﴿لَا مَسْتَمُ﴾ من الآيتين :

فقرأ حمزة والكسائي وخلف بغير ألف : ﴿لَمْسْتَمُ﴾ ووافقهم الأعمش.

وقرأ باقي العشرة بالالف فيهما : ﴿لَامَسْتَمُ﴾ ووافقهم الحسن وابن

محيسن واليزيدي (١).

معنى القراءتين :

معنى القراءة بغير ألف ﴿لَمْسْتَمُ﴾ أي: الجماع، ويحتمل أن يكون

المراد مجرد اللمس باليد (٢).

معنى القراءة بالالف ﴿لَامَسْتَمُ﴾ أي : جامعتم (٣).

حاصل القراءتين :

أن التيمم يرفع الحدث الأصغر والحدث الأكبر، وبيان ذلك فيما يلي :

(١) اختلف الصحابة ومن بعدهم في معنى الملامسة المذكورة في

الآية على قولين (٤) :

الأول : أنها الجماع، قاله علي بن أبي طالب وابن عباس

ووافقهم من التابعين الحسن ومجاهد وقتادة.

(١) المبسوط ص ١٥٧ النشر ٢٥٠/٢ الاتحاد ص ١٩١.

(٢) الكشف ٣٩١/١ حجة القراءات ص ٢٠٥.

(٣) الكشف ٣٩٢/١ حجة القراءات ص ٢٠٥.

(٤) زاد المسير ٩٢/٢ الدر المنثور ٥٤٩/٢-٥٥١.

الثاني : أنها الملامسة باليد، قاله ابن مسعود وابن عمر ووافقهم الشعبي وعبيدة وعطاء وابن سيرين والنخعي والحكم وحماد .
وبسبب اختلافهم في معنى الملامسة في الآية بحسب القراءات اختلف العلماء في مسألة نقض الوضوء بمجرد لمس بشرة المرأة (١) :
- ذهب أبوحنيفة النعمان رحمه الله إلى أن مباشرة الرجل للمرأة فيما دون الجماع لا تنقض الوضوء، إلا أن ينتشر ذكره، فينقض باللمس والانتشار جميعاً (٢).

- وذهب مالك وأحمد رحمهما الله تعالى إلى أن لمس الرجل المرأة بشهوة ناقض للوضوء (٣).

- وذهب الشافعي رحمه الله عليه إلى أن لمس الرجل المرأة ناقض للوضوء بكل حال إذا لم يكن حائل، والصحيح من مذهبه استثناء المحارم (٤).
(٢) الواقع أن القراءة بـ ﴿لَمْسْتُمْ﴾ ظاهرة في معنى الجماع والقراءة بـ ﴿لَامَسْتُمْ﴾ محتملة للجماع ولمجرد اللمس باليد لكن الاحتمال الأول هو المراد هنا بدلالة القرائن التالية :

(أ) أن الملامسة حقيقة في تماس البدنين بشيء من أجزائهما (٥)، لكن إذا أضيفت إلى النساء كان المعنى الجماع.
قال يعقوب بن اسحاق ابن السكيت (ت ٢٤٤هـ) : «لمست المرأة ألمسها لمسا إذا غشيته» اهـ (٦).

(ب) وثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت : «إن رسول الله ﷺ قَبَّلَ امرأة من نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ» (٧).

- (١) حلية العلماء ١٤٧/١-١٤٨ بداية المجتهد ٣٧/١-٣٨ رحمة الأمة ص ١٢.
- (٢) بدائع الصنائع ٢٩/١-٣٠ فتح القدير ٥٤/١.
- (٣) مقدمات ابن رشد ٦/١ الفواكه الدواني ١٣٤/١-١٣٥ الشرح الصغير للدردير ٥٤/١-٥٥، والكافي لابن قدامة ٤٦/١ المبدع شرح المقنع ١٦٥/١-١٦٧.
- (٤) التنبيه للشيرازي ص ١٧ الوجيز للغزالي ١٦/١ روضة الطالبين ٧٤/١-٧٥.
- (٥) معجم مقاييس اللغة ٢١٠/٥ روح المعاني ٤٢/٥.
- (٦) تهذيب اصلاح المنطق ص ٨٨ المشوف المعلم ٦٨٢/٢.
- (٧) حديث صحيح .

أخرجه أبوداود في كتاب الطهارة باب الوضوء من القبلة حديث رقم (١٧٨-١٨٠) والترمذي في كتاب الطهارة باب ما جاء في ترك الوضوء من القبلة حديث رقم (٨٦) والنسائي في كتاب الطهارة باب ترك الوضوء من القبلة ١٠٤/١ وغيرهم .
والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع ٢٧٣/٤ وحسنه محقق جامع الأصول ٢٠٤/٧.

وهو نص في أن لمس المرأة بشهوة وبغير شهوة لا ينقض الوضوء .
(ج) ومن القرائن : أن الآية بهذا القول (وهو تفسير الملامسة بالجماع) تكون شاملة للحدثين الأصغر والأكبر، فالأصغر في قوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾، والأكبر في قوله: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ﴾، ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ﴾ وهو الجماع؛ أما إذا أريد منه اللمس باليد فانه يكون قليل الفائدة إذ المجيء من الغائط واللمس حينئذ من واد واحد (١)، ولا تكون الآية حينئذ شاملة لحكم وجوب التيمم للجنب إذا لم يجد الماء.

واختار أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ) أنها في القراءتين بمعنى الجماع حيث قال: «وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: عني الله بقوله: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾: الجماع، دون غيره من معاني اللمس لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قبل بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ» اهـ (٢).

وقال أيضا رحمه الله: «وهما قراءتان متقاربتا المعنى لأنه لا يكون الرجل لا مسا امرأته الا وهي لا مسته، فاللمس في ذلك يدل على معنى اللباس، واللباس على معنى اللمس من كل واحد منهما صاحبه، فبأي القراءتين قرأ ذلك القاريء فمصيب لا تفاق معنيهما» اهـ (٣).

(د) ومن القرائن الدالة على إرادة الجماع بقوله: ﴿لَمَسْتُمُ﴾ ﴿لَمَسْتُمُ﴾ ما أشار إليه الصنعاني في قوله: «إن تركيب الآية الشريفة وأسلوبها يقتضي أن المراد باللامسة الجماع فإنه تعالى عد من مقتضيات التيمم المجيء من الغائط تنبيهها على الحدث الأصغر، وعد الملامسة تنبيهها على الحدث الأكبر وهو مقابل لقوله تعالى في الأمر بالغسل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ ولو حملت الملامسة على اللمس الناقض للوضوء لفات التنبيه على أن التراب مقام الماء في رفعه للحدث الأكبر وخالف صدر الآية» اهـ (٤).

(هـ) ومنها: ما أشار إليه ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) رحمه الله في قوله: «إن الأحكام التي تحتاج الأمة إلى معرفتها لا بد أن يبينها الرسول

= فائدة :

بين ابن تيمية بيانا شافيا بعد قول من قال مجرد اللمس ناقض للطهارة في مجموع الفتاوى ٢٣٣/٢١ - ٢٤٠.

(١) تفسير السائيس لآيات الأحكام ١١١/٢ أضواء البيان ٣٧/٢ - ٣٨.

(٢) تفسير الطبري (دار الفكر) ١٠٥/٥.

(٣) تفسير الطبري (دار الفكر) ١٠٨/٥.

(٤) سبل السلام ٦٦/١.

ﷺ بيانا عاما، ولا بد أن تنقلها الأمة، فإذا انتفى هذا علم أن هذا ليس من دينه وهذا كما يعلم أنه لم يفرض صيام شهر غير رمضان ، ولا حج بيت غير البيت الحرام، ولا صلاة مكتوبة في اليوم واللييلة غير الخمس وأنه لم يوجب الغسل من مباشرة المرأة بلا انزال (يعني: مخالطتها دون ايلاج).» إلى أن قال: «وبهذه الطريقة تعلم أيضا أنه لم يوجب الوضوء من لمس النساء، ولا من النجاسات الخارجة من غير السبيلين فإنه لم ينقل أحد عنه باسناد يثبت مثله أنه أمر بذلك مع العلم بأن الناس كانوا لا يزالون يحتجمون ويتقيئون ويجرحون في الجهاد وغير ذلك، وقد قطع عرق بعض الصحابة ليخرج منه الدم وهو الفصد ولم ينقل عنه مسلم أنه أمر أصحابه بالتوضوء من ذلك.

وكذلك الناس لا يزال أحدهم يلمس امرأته بشهوة وبغير شهوة ولم ينقل عنه مسلم أنه أمر الناس بالتوضوء من ذلك، والقرآن لا يدل على ذلك بل المراد بالملامسة الجماع كما بسط في موضعه» اهـ (١).

(و) ومنها: أن السنة قد جاءت مؤيدة لحكم الآية وجوب التيمم على من اجتنب ولم يجد الماء عن شقيق بن سلمة الأسدي قال : «كنت جالسا مع عبدالله بن مسعود وأبي موسى فقال أبو موسى : رأيت يا أبا عبد الرحمن لو أن رجلا أجنب فلم يجد الماء شهرا كيف يصنع بالصلاة ؟. فقال عبدالله : لا يتيمم وإن لم يجد الماء شهرا .

فقال أبو موسى : فكيف بهذه الآية في سورة المائدة [آية ٦] (٢) : ﴿لَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ ؟.

فقال عبدالله : لو رخص لهم في هذه الآية لأوشك إذا برد عليهم الماء أن يتيمموا بالصعيد ؟.

قلت : وإنما كرهتم هذا لذا ؟ . قال نعم .

فقال أبو موسى لعبدالله : ألم تسمع قول عمار لعمر بعثني رسول الله ﷺ في حاجة فأجنت، فلم أجد الماء فتمرغت في الصعيد كما تمرغ الدابة، ثم أتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له؛ فقال : إنما يكفيك أن تصنع هكذا وضرب بكفيه ضربة على الأرض ثم نفضها ثم مسح بها ظهر كفه بشماله أو ظهر

(١) حقيقة الصيام ص ٤٤ وقارن بأحكام القرآن للجصاص ٣٦٩/١-٣٧٠.

(٢) فائدة : وإنما عين أبو موسى سورة المائدة لكونها أظهر في مشروعية تيمم الجنب من آية النساء . فتح الباري ٤٥٦/١.

شماله بكفه ثم مسح بها وجهه ؟ .
 فقال عبد الله : أو لم تر عمر لم يقنع بقول عمار ؟ .
 وفي رواية : «قال أبو موسى فدعنا من قول عمار، فكيف تصنع بهذه الآية ؟
 فما درى عبد الله ما يقول» (١) .
 قال الحافظ ابن حجر (ت٨٥٢هـ) معلقا على الحديث السابق : «فيه جواز
 التيمم للجنب» اهـ (٢) .
 قلت : ومما تقدم تعلم أن الراجح أن لمس المرأة بشهوة وبدون شهوة
 غير ناقض للوضوء، وأن المراد بقوله : ﴿لَمَسْتُمُ﴾ أي : جامعتم، كما بينته
 قراءة : ﴿لَامَسْتُمُ﴾ (٣) والله أعلم .

(١) حديث صحيح .
 أخرجه البخاري في كتاب التيمم باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو
 خاف العطش يتيمم حديث رقم (٣٤٦، ٣٤٥) وباب التيمم ضربة حديث رقم (٣٤٧)،
 وأخرجه مسلم في كتاب الحيض باب التيمم حديث رقم (٣٦٨) وأبوداود في كتاب
 الطهارة باب التيمم حديث رقم (٣٢١) والنسائي في كتاب الطهارة باب تيمم الجنب
 ١٧٠/١ .

(٢) فتح الباري ١/٤٥٥ .
 (٣) انظر ما كتبه الشيخ: أحمد شاكر حول الموضوع تحت عنوان «القول الفصل في مس
 المرأة وعدم نقضه للوضوء» ضمن مقالاته المجموعة تحت عنوان «كلمة الحق»
 ص ٢٣٢-٢٤٨ .

الموضع الثامن :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءُ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ الأنعام: ١٤٢.

هكذا قرأ عامة العشرة: ﴿خُطَوَاتٍ﴾ بضم الخاء دون همز واختلفوا في الطاء؛ فأسكن الطاء نافع وأبو عمرو وحمزة وخلف وأبو بكر واختلف عن البزي فروى عنه أبو ربيعة الاسكان وروى عنه ابن الحباب الضم، وبضمها قرأ باقي العشرة ووافقهم الحسن (١).

وقرأ علي بن أبي طالب والأعرج وعمرو بن عبيد: «خُطَوَاتٍ» بالهمز مثقلاً. وقرأ أبو السمال: «خُطَوَاتٍ» بفتح الخاء المعجمة والطاء دون همز (٢).

معنى القراءات :

القراءة بـ ﴿خُطَوَاتٍ﴾ بضم الخاء والطاء دون همز أي جمع خطوة، وهي نزع ما بين القدمين، والمعنى لا تتبعوا طرق الشيطان ولا تسلكوها.

القراءة بـ ﴿خُطَوَاتٍ﴾ بفتح الخاء والطاء دون همز معناها كما سبق أي: لا تتبعوا خطوات الشيطان أي آثاره لا تقتدوا به، وتقديره على هذا بحذف المضاف أي لا تتبعوا مواضع أو طرق خطوات الشيطان .

قال ابن جني (ت ٣٩٢هـ) : «وإن شئت أجريته على ظاهره من غير تقدير حذف كقولك: «لا تتبع أفعال المشركين»» اهـ (٣).

القراءة بـ «خُطَوَاتٍ» بضم الخاء والطاء والهمز أي: جمع خطأ بمعنى الخطأ، والمعنى لا تتبعوا أخطاء الشيطان (٤).

حاصل القراءات :

في الآية نهي عن اتباع سبل الشيطان وسلوكها، وفي القراءة الشاذة نهي عن اتباع أخطاء الشيطان؛ وكل سبله أخطاء ولكن مجيء القراءة بهذا اللفظ فيه اشعار بعلّة النهي والله أعلم.

(١) النشر ٢١٦/٢ الاتحاف ص ١٤١.

(٢) المحتسب ٢٣٣/١.

(٣) ماسبق .

(٤) ماسبق .

الموضع التاسع :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ الأعراف: ٤٠.

هكذا قرأ عامة العشرة ﴿الْجَمَلُ﴾ بفتح الجيم وفتح الميم المخففة.
وقرأ ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وأبي العلاء بن الشخير ورويت عن أبي رجاء: «حتى يلج الجمل» بضم الجيم وتشديد الميم.
وقرأ ابن عباس وسعيد بن جبير بخلاف وعبد الكريم وحنظلة ومجاهد بخلاف: «حتى يلج الْجَمْلُ» بضم الجيم وفتحة الميم مخففة.
وقرأ ابن عباس وسعيد بن جبير بخلاف عنهما: «الجمل» بضم الجيم وسكون الميم.

وقرأ ابن عباس: «الْجُمْلُ» بضميتين والميم خفيفة.
وقرأ أبو السمال: «الْجَمْلُ» مفتوحة الجيم ساكنة الميم (١).
معنى القراءات :

القراءة بفتح الجيم وفتح الميم المخففة : ﴿الْجَمَلُ﴾ هو الحيوان المعروف.

القراءة بضم الجيم وتثقل الميم، وبضم الجيم والميم بالتخفيف معناها الحبل الغليظ، ويقال: حبل السفينة، ويقال: الحبال المجموعة، والمعاني متقاربة.

القراءة بضم الجيم وتسكين الميم: «جمل» جمع جمل كأسد وأسد.
القراءة بفتح الجيم وسكون الميم: «جمل» الأقرب أنه مخفف من الميم المثقلة فيكون بمعناها (٢).

حاصل القراءات :

أفادت الآية استحالة دخول الجنة على المكذبين بآيات الله تعالى والمستكبرين عليها، كما يستحيل دخول الحبل الغليظ من ثقب الإبرة، وكما يستحيل دخول الحيوان الكبير من ثقب الإبرة.
ويلاحظ مايلي :

(١) إن قيل كيف خص (الجمل) (على القراءة المتواترة) من دون

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/٣٥-٣٦ المحتسب ٢٤٩/١ الكامل للذهلي لوحة ١/١٩٣.
(٢) تفسير الطبري (شاكر) ١٢/٤٢٧-٤٣٣ معاني القرآن للنحاس ٣/٣٥-٣٦ المحتسب ٢٤٩/١.

سائر الدواب، وفيها ما هو أعظم منه ؟.

فالجواب : خص الجمل لأحد أمرين :

أحدهما : أن ضرب المثل بالجمل يحصل المقصود؛ والمقصود أنهم لا يدخلون الجنة كما لا يدخل الجمل في ثقب الإبرة، ولو ذكر أكبر منه أو أصغر منه جاز، والناس يقولون: فلان لايساوي ريالاً، وهذا لا يغني عنك فتيلاً، وإن كنا نجد أقل من الريال وأقل من الفتيل.

والثاني : أن الجمل أكبر شأنًا عند العرب من سائر الدواب فإنهم يقدمونه في القوة على غيره؛ لأنه يوقر بحمله فينهض به دون غيره من الدواب، ولهذا عَجَّبَهُم من خلق الإبل فقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ الغاشية: ١٧ فأثر الله ذكره على غيره لهذا المعنى (١).

(٢) بناء على اختلاف القراءات في الآية تنوعت الآثار الواردة عن السلف في معنى (الجمل) بحسب القراءة، فنقل عن ابن عباس وابن مسعود والحسن أنه الجمل الحيوان المعروف، ونقل عن ابن عباس وسعيد بن جبير وسالم بن عجلان (٢) ومجاهد وعكرمة أنه الحبل الغليظ (٣). وليس هذا باختلاف تضاد؛ إذ المعنى المقصود عند جميعهم واحد، وهم فسروا الآية بحسب القراءات الواردة فيها.

(١) زاد المسير ١٩٧/٣ نقلاً عن ابن الأنباري.

(٢) سالم بن عجلان الأفتس، الأموي مولاهم أبو محمد الحراني ثقة رمي بالارضاء مات سنة ١٥٣هـ. التقريب ص ٢٢٧.

(٣) تفسير الطبري (شاكر) ٤٢٧/١٢-٤٣٣ الدر المنثور ٤٥٥/٣.

الموضع العاشر :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَوُا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ التوبة: ٤٧.

هكذا قرأ عامة القراء العشرة : ﴿وَلَا أُضْعَوُا خِلَالَكُمْ﴾.

وقرأ مجاهد ومحمد بن زيد : «وَلَا وَفُضُوا خِلَالَكُمْ» (١).

وقرأ ابن الزبير : «وَلَا رَقَصُوا» بالراء والقاف (٢).

معنى القراءات :

القراءات جميعها بمعنى واحد.

قراءة عامة العشرة : ﴿وَلَا أُضْعَوُا خِلَالَكُمْ﴾ الإيضاع : الإسراع ومفعول «أوضعوا» محذوف تقديره : ولأوضعوا ركائبهم بينكم ؛ لأن الراكب أسرع من الماشي (٣).

قراءة مجاهد وابن زيد : «وَلَا وَفُضُوا خِلَالَكُمْ» أي : أسرعوا كقوله تعالى : ﴿إِلَىٰ نَصَبٍ يَوْفُضُونَ﴾ المعارج : ٣ ، ويقال : وفض يفض وأوفض يوفض ايفاض أي : عدا عذوا سريعا (٤).

قراءة ابن الزبير : «وَلَا رَقَصُوا خِلَالَكُمْ» أي : أسرعوا من رقص في مشيه أي : أسرع ، والرقص والرقصان ضرب من الخَبَب (٥).

حاصل القراءات :

القراءات بمعنى متحد ، وتنوعت الألفاظ في آرائه .

والآية بالقراءات شملت الأحوال التي يسعى بها الذين يبتغون الفتنة فهم إما سعيًا بأرجلهم وأما بركائبهم ، لا يتركون وسيلة إلا ركبوها ، والقراءات فيها إمعان في تصوير حال هؤلاء المنافقين في سعيهم للفتنة والله أعلم .

ويلاحظ مايلي :

في «المحتسب» (٦) : «لأرقصوا» كما أثبتته بالراء والقاف .

وفي «البحر» (٧) : «لأرفضوا» بالراء والفاء ، وهو تصحيف والله أعلم .

(١) البحر المحيط ٤٩/٥ .

(٢) المحتسب ٢٩٣/١ .

(٣) النهر الماد ٤٩/٥ .

(٤) عمدة الحفاظ ص ٦٣٧ .

(٥) المحتسب ٢٩٣/١ لسان العرب ٤٢/٧ .

والخبب : ضرب من العدو ، وقيل : هو مثل الرَّمْل . لسان العرب ٣٤١/١ .

(٦) ٢٩٣/١ .

(٧) البحر المحيط ٤٩/٥ .

الموضع الحادي عشر :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مَدَخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ التوبة: ٥٧.

هكذا قرأ عامة القراء العشرة : ﴿يَجْمَحُونَ﴾.

وقرأ الأعمش عن أنس : «يجمزون» (١).

معنى القراءتين :

يجمحون ويجمزون بمعنى واحد وهو يشتدون (٢).

تقول جمح الفرس بصاحبه جمحا وجماحا: ذهب يجري جريا غالبا، واعتز فارسه وغلبه، والجموح من الرجال الذي ركب هواه فلا يمكن رده، و يجمحون أي يسرعون اسراعا لا يرد وجوههم شيء (٣).

وتقول: جمز الانسان والبعير والدابة يجمز جمزا وجمزى وهو عدو دون الحضر الشديد وفوق العنق (٤).

حاصل القراءات :

عبرت القراءتان عن معنى واحد مع اختلاف اللفظ فيهما.

لكن القراءة بـ ﴿يَجْمَحُونَ﴾ أفادت أنهم في جريهم وشدتهم إنما يركبون هواهم في اندفاعهم في غيهم.

(١) المحتسب ٢٩٦/١ البحر المحيط ٥٥/٥.

(٢) ماسبق.

(٣) لسان العرب ٤٢٦/٢.

(٤) ماسبق ٣٢٣/٥ والحضر بالضاد من عدو الدواب وهو العدو. لسان العرب ٢٠١/٤. والعنق من أوصاف السير والمشى يطلق على السير المنبسط. لسان العرب ٢٧٣/١٠.

قال الثعالبي: «العنق أن يباعد بين خطاه ويتوسع في جريه» هـ. فقه اللغة ص ١٨٦.

الموضع الثاني عشر :

قول الله تبارك وتعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة: ١٢٨.

هكذا قرأ عامة العشرة : ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ بضم الفاء وكسر السين.

وقرأ عبد الله بن قسيط المكي: «أَنفَسِكُمْ» بفتح الفاء وكسر السين، وهي قراءة ابن عباس وأبي العالية والضحاك وابن محيصن ومحبوب عن أبي عمرو، ويعقوب من بعض طرقه ورويت عن فاطمة وعائشة رضي الله عنهما (١).

معنى القراءتين :

قراءة الجمهور: ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ بضم الفاء وكسر السين تعني: منكم أي: رسول الله ﷺ منكم وليس من غيركم.

والقراءة بفتح الفاء وكسر السين : «أَنفَسِكُمْ» معناها: من خياركم، ومنه قولهم: هذا أنفس المتاع، أي: أجوده وخياره واشتق منه النفس وهي أشرف ما في الانسان (٢).

حاصل القراءتين :

يمتن الله تبارك وتعالى بإرساله رسول الله ﷺ إلى العرب الذي هو منهم ومن خيارهم وأشرافهم (٣).

(١) المحتسب ٣٠٦/١ البحر المحيط ١١٨/٥.

(٢) البحر المحيط ١١٨/٥.

(٣) المحتسب ٣٠٦/١ الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١٦-١٥/١ البحر المحيط ١١٨/٥.

الموضع الثالث عشر :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ قَالَ : يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿هود: ٤٥-٤٦﴾

تنوعت القراءات في قوله : ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرٌ﴾ :

فقرأ يعقوب والكسائي بكسر الميم وفتح اللام : ﴿عَمِلٌ﴾ وبنصب الراء في : ﴿غَيْرٌ﴾.

وقرأ سائر العشرة بفتح الميم ورفع اللام منونة : ﴿عَمَلٌ﴾ وبرزع الراء في : ﴿غَيْرٌ﴾ (١).

عن أم سلمة : «إن النبي ﷺ كان يقرئها «إنه عمل غير صالح» (٢).
معنى القراءتين :

معنى الآية على قراءة يعقوب والكسائي : إن ابنك يانوح عمل عملاً غير صالح، يشير إلى أنه مشرك، أو إلى كونه مع الكافرين، وتركه الركوب مع المؤمنين (٣).

ومعنى قراءة باقي العشرة فيه وجوه :

الأول: إن مسألتك أي هذه عمل غير صالح، فيكون مرجع الضمير في ﴿إنه﴾ السؤال المضمن في قوله : ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي...﴾ وهذا مروي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والنخعي.

الثاني: أن يكون مرجع الضمير في ﴿إنه﴾ هو المسؤول فيه ابن نوح والمعنى: إن الذي ذكرت أنه ابنك عمل غير صالح أي لغير رشده، أو ذو

(١) المبسوط ص ٢٠٤ النشر ٢٨٩/٢ الإتحاف ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٢) حديث حسن .

أخرجه الترمذي في كتاب القراءات باب ومن سورة هود تحت رقم (٢٩٣٢) وعن أسماء بنت زيد أخرجه أبوداود في كتاب الحروف والقراءات تحت رقم (٣٩٨٣).

وفي السند شهر بن حوشب قال في التقريب ص ٢٦٩ : «صدوق كثير الإرسال والأوهام» اهـ.

وعن عائشة أخرجه الفراء في «معاني القرآن» ١٨-١٧/٢ ومن طريقه أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ٢٨٩/٢ وإسناده جيد، وهو يشهد لرواية شهر بن حوشب.

والحديث صحيحه الألباني في صحيح سنن الترمذي ١٣/٣.

(٣) زاد المسير ١١٤/٤ البحر المحيط ٢٢٩/٥.

عمل غير صالح (١).

قال أبو حيان (ت ٧٥٤هـ) : «وكون الضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ عائداً على غير ابن نوح عليه السلام تكلف وتعسف لا يليق بالقرآن» اهـ (٢).

قلت : كذا قال رحمة الله عليه، وغير ظاهر وجه التعسف والتكلف في ذلك خاصة وقد نقل عن ابن عباس ومجاهد والنخعي وقتادة القول بـرجوع الضمير إلى السؤال المضمن في كلام نوح عليه الصلاة والسلام. وفي مصحف ابن مسعود: «إنه عمل غير صالح أن تسألني ما ليس لك به علم» (٣).

ومجيء مرجع الضمير مضمناً في الكلام قبل الضمير ورد كثيراً في القرآن العظيم (٤) كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ النساء: ٨؛ فقوله: ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ الضمير في: ﴿مِنْهُ﴾ يعود إلى المقسوم المذكور ضمناً في قوله: ﴿الْقِسْمَةَ﴾، وكذا في قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ المائدة: ٨؛ فقوله تعالى: ﴿هُوَ﴾ ضمير لم يتقدم مرجعه صراحة لكن ضمناً في قوله: ﴿اعْدِلُوا﴾ فأفاد رجوع الضمير إلى العدل.

ولعل وجه التكلف والتعسف الذي عناه أبو حيان رحمه الله هو ما صرح به الدمياطي (ت ١١١٧هـ) في قوله: «وأما من جعله (أي: الضمير) عائداً إلى السؤال المفهوم من النداء ففيه خطر عظيم ينبغي تنزيه الرسل عنه ولذا ضعفه الزمخشري» اهـ (٥).

قلت كلام الزمخشري (ت ٥٣٧هـ) الذي أشار إليه هو قوله : «وقيل: الضمير لنداء نوح أي: نداءك هذا عمل غير صالح وليس بذاك» اهـ (٦). وتعقب ابن المنير (٧) كلام الزمخشري السابق ولم يرتضه فقال: «في كلام الزمخشري ما يدل على أنه يعتقد أن نوحاً عليه السلام صدر منه ما أوجب نسبة الجهل إليه، ومعاتبته على ذلك، وليس الأمر كما تخيله

(١) تفسير الطبري (دار الفكر) ١٢/٥٢-٥٣ زاد المسير ٤/١١٤ البحر المحيط ٥/٢٢٩.

(٢) البحر المحيط ٥/٢٢٩.

(٣) البحر المحيط ٥/٢٢٩.

(٤) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ق ٣ ج ١ ص ٥٢-٥٦.

(٥) الاتحاف ص ٢٥٧.

(٦) تفسير الزمخشري ٢/٢١٩.

(٧) أحمد بن محمد بن منصور، قاضي الاسكندرية وخطيبها (٦٢٠-٦٨٣هـ). الاعلام ١/٢٢٠.

الزمخشري، ونحن نوضح الحق في الآية منزلاً على نصها مع تنزيه نوح عليه السلام مما توهم الزمخشري نسبته إليه ؛ فنقول :

لما وعد نوح أولاً تنجية أهله إلا من سبق عليه القول منهم ولم يكن كاشفاً لحال ابنه المذكور ولا مطلعاً على باطن أمره بل معتقداً بظاهر الحال أنه مؤمن؛ بقي على التمسك بصيغة العموم للأهلية الثابتة، ولم يعارضها يقين في كفر ابنه حتى يخرج من الأهل ويدخل في المستثنين فسأل الله فيه بناء على ذلك؛ فتبين له أنه في علمه من المستثنين وأنه هو لا علم له بذلك فلذلك سأل فيه.

وهذا بأن يكون إبانة عذر أولى منه أن يكون عتبا؛ فإن نوحا عليه السلام لا يكلفه الله علما استأثر به غيبا.

و أما قوله : ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فالمراد منه النهي عن وقوع السؤال في المستقبل بعد أن علمه الله باطن أمره وأنه إن وقع في المستقبل في السؤال إنه من الجاهلين.

والغرض من ذلك تقديم ما يبقيه عليه السلام على سمة العصمة، والموعظة لا تستدعي وقوع ذنب بل المقصد منها أن لا يقع الذنب في الاستقبال؛ ولذلك امتثل عليه الصلاة والسلام ذلك واستعاذ بالله أن يقع منه ما نهى عنه والله أعلم اهـ (١).

قلت : وعلى فرض وقوع الذنب من نوح عليه الصلاة والسلام في مسألته لربه؛ فانا نقول: لكن الله وفقه للتوبة والاستغفار ففي الآية بعدها قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هود: ٤٧؛ فالله عصمه من الإقرار على الخطأ وهذا مفهوم العصمة عند السلف (٢) والله أعلم.

حاصل القراءتين :

ينهى الله عز وجل نوح عليه الصلاة والسلام عن سؤاله لولده المشرك، ويعلل هذا النهي بكون الولد (ابن نوح) عمل عملاً غير صالح في شركه وكونه مع الكافرين وعدم ركوبه مع المؤمنين.

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال ٢/٢١٩-٢٢٠.

(٢) عصمة الأنبياء بين المسلمين وأهل الكتاب ص ١٥٢ وأنظر منه ص ١٤-٢٤.

الموضع الرابع عشر :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ يوسف: ٤٥.

هكذا قرأ عامة القراء العشرة.

وقرأ ابن عباس وابن عمر و عكرمة ومجاهد بخلاف عنهم والضحاك وأبي رجاء وقتادة وشبيل بن عزرة الضبعي وربيعه بن عمر وزيد بن علي: «وادكر بعد أمة» بفتح الهمزة والميم وكسر.

وقرأ الأشهب العقيلي: «بعد امة» بكسر الهمزة ونصب الميم المثقلة وتنوين في آخره (١).

معنى القراءات :

من قرأ : ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ بضم الهمزة وتثقل الميم المفتوحة وتنوين آخره فالمعنى بعد حين.

ومن قرأ: «بعد أمة» بفتح الهمزة والميم أراد بعد نسيان (٢).

ومن قرأ : «بعد إمة» بكسر الهمزة فالمعنى : بعد أن أنعم الله عليه بالنجاة (٣).

حاصل القراءات :

بينت الآية بالقراءات الواردة فيها أن هذا الرجل تذكر بعد مدة وحين من الزمان، بعد أن كان قد نسي أمر يوسف علي السلام وبعد أن أنعم الله عليه بالنجاة والله أعلم .

(١) المحتسب ٣٤٤/١.

(٢) تفسير غريب القرآن ص ٢١٨.

(٣) المحتسب ٣٤٤/١.

الموضع الخامس عشر :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يوسف: ١١٠.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ :
فقرأ أبو جعفر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾
بضم الكاف وتخفيف الذال ووافقهم الأعمش.
وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب: ﴿قَدْ كُذِّبُوا﴾ بضم
الكاف وتشديد الذال ووافقهم ابن محيصة واليزيدي والحسن (١).
معنى القراءتين :

القراءة بالتخفيف فيها وجهان من التفسير :

الأول: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم، وظن قومهم أن
الرسل قد كذبوا، بمعنى أَخْلَفُوا ما وَعَدُوهُ من النصر جاء الرسل نصرنا .
الثاني: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم ، وظن قومهم أن
الرسل قد كذبتهم فيما أخبروهم به جاء الرسل نصرنا وهذا القول هو
المشهور عن ابن عباس وابن مسعود وابن جبير ومجاهد.
والضمائر في الآية على هذه القراءة والتفسير عائدة على المرسل
إليهم، والظن فيها على بابه الذي هو ترجيح أحد المحتملين (٢).
والقراءة بالتشديد فيها وجهان من التفسير أيضا:
الأول: أن الرسل أيقنوا أنهم كذبهم قومهم المشركون.
وعلى هذا الوجه يكون الظن بمعنى اليقين، وهذا قول الحسن وعطاء
وقتادة (٣).

الثاني: أن يكون الظن على بابه بمعنى ترجيح أحد المحتملين،
والمعنى: أن الرسل ظنوا أن من آمن معهم لما طالت عليهم المواعيد
حسبت الرسل أن المؤمنين أولا قد كذبوهم وارتابوا بقولهم، وهذا القول
منقول عن عائشة رضي الله عنها.

(١) المبسوط ص ٢١١ النشر ٢٩٦/٢ الإتحاف ص ٢٦٨.

(٢) حجة القراءات ص ٣٦٦ زاد المسير ٢٩٦/٤ البحر المحيط ٣٥٤/٥ تفسير ابن كثير
٤٩٨-٤٨٧/٢.

(٣) زاد المسير ٢٩٦/٤.

والضمان على هذه القراءة والتفسير عائدة كلها على الرسل صلوات الله وسلامه عليهم (١).

حاصل القراءتين :

أن الرسل لما تيقنوا تكذيب قومهم لهم وخافوا لما طالت المواعيد أن يرتاب من قد آمن بهم ، ولما ظن الذين أرسل اليهم الرسل أن رسلهم كذبت عليهم فيما جاءتهم به، وأن رسلهم كذبوا فيما وعدوه من النصر جاء نصر الله لرسله.

فالقراءتان بينت المراد مع الإيجاز.

وتلاحظ الأمور التالية :

(١) أن القراءتين مع اختلاف لفظهما ومعناها وامتناع اجتماعهما في شيء واحد، مع كل هذا لا يتضادان، ولا يتناقضان، فاختلفاهما من باب اختلاف التنوع، وكل قراءة تصدق الأخرى.

(٢) ورد عن ابن عباس أنه فسر الآية بأن الرسل ظنت أنهم قد كذبوا فيما وعدوا من النصر، وكانوا بشرًا فضعفوا ويئسوا وظنوا أنهم قد أخلفوا كما قال تعالى: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ﴾ البقرة: ٢١٤ فإذا كان ذلك جاء نصر الله للرسل.

ونقل عن عائشة رضي الله عنها أنها ردت هذا التفسير .

عن عبد الله بن أبي مليكة رضي الله عنه : «إن ابن عباس رضي الله عنهما قرأها: ﴿وَضُنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ مخففة، يقولوا: أخلفوا .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وكانوا بشرًا، وتلا: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ﴾ البقرة: ٢١٤.

قال ابن أبي مليكة : فذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أنهم يئسوا وضعفوا، فظنوا أنهم قد أخلفوا .

قال ابن أبي مليكة: وأخبرني عروة عن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته وقالت: ما وعد الله رسوله من شيء إلا علم أنه سيكون قبل أن يموت، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم، وكانت

(١) الكشف ١٥/٢ حجة القراءات ص ٣٦٧ البحر المحيط ٣٥٤/٥.

تقرؤها: ﴿وَضَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾ مثقلة للتكذيب» (١).
 عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ
 الرَّسُلُ﴾ قال: قلت: أَكُذِّبُوا أَمْ كَذَّبُوا؟.

قالت عائشة: كُذِّبُوا .

قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كَذَّبُوهم فما هو الظن؟.

قالت: أجل لعمرى، لقد استيقنوا بذلك .

فقلت: لها وظنوا أنهم قد كُذِّبُوا ؟ .

قالت: معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها .

قلت: فما هذه الآية ؟ .

قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم
 البلاء، واستأخر عنهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من
 قومهم، وظنت الرسل أن اتباعهم قد كذبوهم وجاءهم نصر الله عند ذلك» (٢).

قلت: زَيْفُ ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) رحمه الله هذا المعنى
 المنسوب إلى ابن عباس الذي ردته عائشة رضي الله عنها، ورده بالكلية
 وأباه ولم يقبله ولا ارتضاه حيث قال بعد ذكره لهذا المعنى المنسوب إلى
 ابن عباس رضي الله عنه: «وقول غيره من أهل التأويل أولى - عندي -
 بالصواب، وخلافه من القول أشبه بصفات الأنبياء والرسل، إن جاز أن
 يرتابوا بوعده الله إياهم ويشكوا في حقيقة خبره - مع معاينتهم من حجج
 الله وأدلتها ما لا يعاينه المرسل إليهم -؛ فيعذروا في ذلك؛ إن المرسل إليهم

(١) إسناده صحيح .

أخرجه البخاري في كتاب التفسير سورة البقرة باب ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا
 الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ﴾
 ...إلى ﴿قريب﴾ تحت رقم (٤٥٢٤) مختصرا بنحوه، وأخرجه الطبري في تفسيره
 (دارالفكر) ٨٧، ٨٦/١٣ واللفظ له، وأخرجه النسائي في تفسيره ٦٠٦/١-٦٠٧ تحت رقم
 (٢٧٦).

وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٩٦/٤ إلى ابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ وابن
 مردويه.

(٢) إسناده صحيح .

أخرجه البخاري في كتاب التفسير سورة يوسف باب ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ
 الرَّسُلُ﴾ تحت رقم (٤٦٩٥) والطبري في تفسيره (دارالفكر) ٨٧/١٣.

وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٩٥/٥ إلى أبي عبيد والنسائي وابن المنذر وابن
 أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه من طريق عروة.

لأولى في ذلك منهم بالعدر، وذلك قول ان قاله قائل لا يخفى أمره، وقد ذكر هذا أهل التأويل الذي ذكرناه أخيراً عن ابن عباس لعائشة فأنكرته أشد النكرة فيما ذكر لنا» اهـ (١).

ولم يرتض الخطابى (ت٣٨٨هـ) ظاهر هذا المعنى المنسوب إلى ابن عباس رضي الله عنه فقال: «أما الذي لا يُشك فيه من مذهب أنه لم يُجَوِّز على الرسل صلوات الله عليهم أن يكذبوا بالوحي الذي يأتيهم من قبل الله عزوجل، وأن يَشْكُوا في صدق الخبر عنه أو يرتابوا، لكنه قد يحتمل أن يقال: إنهم عند تطاول مدة البلاء عليهم وابطاء نجز العدة عنهم وشدة مطالبة القوم إياهم بما كانوا يعدونهم من النصره دخلتهم الريبة حتى توهموا أن الذي جاءهم من الوحي لعله كان حسباناً منهم ووهماً فارتابوا بأنفسهم وظنوا عليها الغلط في تلقي ماورد عليهم من القول؛ فيكون معنى الكذب في هذا متأولاً على الغلط، كقول القائل لصاحبه: كذبتك نفسك، وكقولك: كذب سمعي، وكذب بصري وقد قال ﷺ للرجل الذي وصف له العسل: «صدق الله وكذب بطن أخيك» (٢) وقد كان نبينا ﷺ أول ما بدىء بالوحي يرتاب بنفسه ويشفق أن يكون الذي يتراءاه أمراً غير موثوق به إلى أن ثبت الله قلبه، وسكن بذلك جأشه وشرح به صدره، فانزاح عنه الريب وخلفه اليقين، ومرجع الأمر في هذا الباب أن الذي عرض من الريبة إنما ينصرف إلى الوسائط التي هي مقدمات الوحي لا إلى نفس الوحي وأصله بعد حصول العلم به والله أعلم» اهـ (٣).

قلت : وهذا الاحتمال قال به الزمخشري (ت٥٣٨هـ) معلقاً له على صحة ماورد عن ابن عباس فقال : «إن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ويهيجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية، وأما الظن الذي هو ترجح أحد الجائزين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم وأنه متعال عن خلف الميعاد منزّه عن كل قبيح» اهـ (٤).

(١) تفسير الطبري (دارالفكر) ٨٦/١٣.

(٢) حديث صحيح عن أبي سعيد .

أخرجه البخاري في كتاب الطب باب الدواء بالعسل وقول الله تعالى ﴿فيه شفاء للناس﴾ [النحل: ٦٩] حديث رقم (٥٦٨٤).

(٣) أعلام الحديث ص ١٨١٣-١٨١٤.

(٤) الكشف (دارالمعرفة) ٢٧٨/٢.

واستبعد هذا التفسير المنقول عن ابن عباس الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) حيث قال بعد حكايته: «إلا أنه بعيد؛ لأن المؤمن لا يجوز أن يظن بالله الكذب بل يخرج بذلك عن الإيمان فكيف يجوز مثله على الرسل؟» اهـ (١).

قلت : الحقيقة إن هذا التفسير المنقول عن ابن عباس رضي الله عنه فيه نسبة أمر لا تليق نسبته إلى رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، ويبعد صدوره بهذا المعنى عن ترجمان القرآن وحبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

والذي يظهر - والله أعلم - أن ابن عباس لم يرد هذا المعنى الذي فهم من ظاهر كلامه؛ لأنه لم يأت عنه التصريح بأن الرسل هم الذين ظنوا ذلك، ولا يلزم ذلك من قراءة التخفيف بل الذي يُظن بابن عباس أنه أراد بقوله: «كانوا بشرا ... إلى آخر كلامه؛ الذي يظن به أنه أراد من آمن من اتباع الرسل لا ذات الرسل، وقول الراوي عنه «ذهب بها هناك» (٢) أي: إلى السماء معناه: أن اتباع الرسل ظنوا أن ما وعدهم به الرسل على لسان الملك تخلف، ولا مانع أن يقع ذلك في خواطر بعض الأتباع .

ويمكن أن يكون الضمير في: ﴿وَضَنُوا﴾ عائد على المرسل إليهم وفي: ﴿كَذَّبُوا﴾ عائد على الرسل أي: وظن المرسل إليهم أن الرسل كذبوا .

أو الضمائر للرسل والمعنى: يئس الرسل من النصر وتوهموا أنفسهم كذبتهم حين حدثتهم بقرب النصر أو كذبهم رجاءهم.

أو الضمائر كلها للمرسل إليهم أي: يئس الرسل من إيمان من أرسلوا إليه وظن المرسل إليهم أن الرسل كذبوهم في جميع ما أدعوه من النبوة والوعد بالنصر لمن أطاعهم والوعيد بالعذاب لمن لم يجيبهم .

وإذا كان ذلك محتملا وجب تنزيه ابن عباس عن تجويزه ذلك على الرسل . فإن قيل : على أي شيء يحمل إنكار عائشة ؟ .

فالجواب : يحمل إنكار عائشة على أنها فهمت المنقول عن ابن عباس على ظاهره (٣) والله أعلم .

ويؤكد أن ابن عباس لم يرد ظاهر النص المنقول عنه ما ثبت عنه أنه

(١) تفسير الرازي ٢٢٦/١٨ .

(٢) هذه اللفظة في رواية البخاري تحت رقم (٤٥٢٤) في كتاب التفسير سورة البقرة باب ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ...﴾ ولفظها: عن أبي مليكة يقول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حَتَّى اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ كُذِّبُوا﴾ خفيفة ذهب بها هناك، وتلا ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] .

(٣) فتح الباري ٣٦٩/٨ .

قرأ ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾ خفيفة قال: إذا استيأس
الرسول من إيمان قومهم وظن قومهم أن الرسول كذبوهم» (١).

وثبت نحو هذا عن سعيد بن جبير (٢) وهو من أكابر أصحاب ابن عباس
العارفين بكلامه والله أعلم.

(٣) ظاهر الروايات أن عائشة رضي الله عنها أنكرت القراءة
بالتخفيف بناء على أن الضمير للرسول، ويؤكد هذا رواية الإسماعيلي: «قلت
(عروة): فهي مخففة؟»

قالت: معاذ الله» اهـ (٣).

قلت: ولعلها رضي الله عنها لم تبلغها القراءة بالتخفيف ممن يرجع إليه
في ذلك (٤) والله أعلم.

(١) حديث حسن.

أخرجه النسائي في تفسيره ٦٠٨-٦٠٧/١ تحت رقم (٢٧٧) والطبري في تفسيره
(دارالفكر) ٨٤/١٣.

وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٩٦/٤ إلى أبي عبيد وسعيد ابن منصور وابن المنذر
وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٣٦٩/٨.

(٢) تفسير الطبري (دارالفكر) ٨٤/١٣ وأنظر فتح الباري ٣٦٩/٨.

(٣) فتح الباري ٣٦٧/٨.

(٤) فتح الباري ٣٦٨/٨.

الموضع السادس عشر :
 قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ النحل: ٦٢.
 تنوعت القراءات في قوله: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ :
 فقرأ نافع بكسر الراء مخففة: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ .
 وقرأ أبو جعفر بكسر الراء مشددة: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ .
 وقرأ باقي العشرة بالفتح مع التخفيف: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ ووافقهم ابن
 محيصن واليزيدي والحسن والأعمش (١).

معنى القراءات :

القراءة بسكون الفاء وتخفيف الراء وفتحها في معناها قولان :
 الأول : متركون قاله ابن عباس وقال ابن جبير: متركون منسيون،
 ونحوه قول مجاهد (٢).

الثاني : معجلون وهو قول ابن عباس أيضا والحسن (٣).
 قال الزجاج (ت٣١١هـ) : «ومعنى الفرط في اللغة: التقدم، وقد فرط إلى
 منه قول أي: تقدم ، فمعنى ﴿مُفْرَطُونَ﴾ مقدمون إلى النار ... ومن فسر
 متركون فهو كذلك أي : قد جعلوا مقدمين في العذاب أبدا متركين
 فيه» اهـ (٤).

القراءة بسكون الفاء وتخفيف الراء وكسرهما معناها: أفرطوا في
 معصية الله كما تقول: قد أفرط فلان في مكروهي أي: بالغ في الإساءة (٥).
 القراءة بفتح الفاء وتشديد الراء وكسرهما معناها: مضيعون أي: كانوا
 مضيعين في الدنيا (٦).

قال الزجاج (ت٣١١هـ) : «من قرأ ﴿مُفْرَطُونَ﴾ فالمعنى: أنه وصف لهم بنهم
 فرطوا في الدنيا فلم يعملوا فيها للأخرة، وتصديق هذه القراءة قوله : ﴿أَنْ
 تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].» اهـ (٧).
 حاصل القراءات :

أن للكافرين النار يعجل بادخالهم اليها ويتركون فيها، وذلك لأنهم بالغوا
 في معصية الله وضيعوا دينه في الدنيا.

(١) المبسوط ص ٢٢٥ النشر ٣٠٤/٢ الإتحاف ص ٢٧٩.

(٢) زاد المسير ٤٦٠/٤ معاني القرآن للنحاس ٧٩/٤.

(٣) ماسبق.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢٠٧/٣-٢٠٨.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٢٠٨/٣ معاني القرآن للنحاس ٨٠/٤.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٨١/٤.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٢٠٨/٣.

الموضع السابع عشر :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وإن عاقبتكم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ النحل: ١٢٦.
هكذا قرأها عامة القراء العشرة .
وقرأ ابن سيرين: «وإن عاقبتكم فعقبوا» (١).
معنى القراءتين :

قراءة العامة : ﴿وإن عاقبتكم فعاقبوا﴾ معناها: إن صنع بكم صنع سوء فافعلوا مثله ولا تزيدوا عليه، والعقوبة في الحقيقة إنما هي الثانية، وسميت الأولى عقوبة لمشكلة اللفظ ويحتمل أن يكون ﴿عاقبتكم﴾ بمعنى: أصبتم عقبي كقوله في سورة الممتحنة آية ١١ ﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتكم...﴾ بمعنى: غنمتم فيكون في الكلام تجنيس (٢).
قراءة ابن سيرين : «وإن عاقبتكم فعقبوا» معناها: إن تتبعتم فتتبعوا بقدر الحق الذي لكم ولا تزيدوا عليه (٣)، أي: إن قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم (٤).

حاصل القراءتين :

بينت القراءة الشاذة أن المراد في معنى القراءة المتواترة أن العقوبة إنما هي بعد أن يكون لكم العاقبة فتتبعوا بقدر الحق الذي لكم .

(١) المحتسب ١٣/٢ .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١٦٥/٢ .

(٣) المحتسب ١٣/٢ .

(٤) البحر المحيط ٥٤٩/٥ .

الموضع الثامن عشر :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّءْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ الكهف: ١٦.
هكذا قرأها عامة العشرة : ﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾.
وفي مصحف ابن مسعود: «وما يعبدون من دون الله» (١).
حاصل القراءتين :

بينت القراءة في مصحف ابن مسعود أن أصحاب الكهف اعتزلوا قومهم وما يعبدون من الآلهة سوى الله، وآووا إلى الكهف يطلبون رحمة الله عزوجل.

قال الطبري (٣١٠هـ) رحمه الله : «يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل بعض الفتية لبعض: وإذ اعتزلتم أيها الفتية قومكم الذين اتخذوا من دون الله آلهة.

﴿وما يعبدون إلا الله﴾ يقول: وإذ اعتزلتم قومكم والذين يعبدون من الآلهة سوى الله.

و ﴿وما﴾ إذ كان ذلك معناه في موضع نصب عطا لها على الهاء والميم التي في قوله: ﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ... ثم ساق بسنده عن قتادة: ﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ وهي في مصحف عبد الله: «وما يعبدون من دون الله» هذا تفسيرها (٢). «١٣٨هـ» (٣).

(١) الدر المنثور ٣١٧/٥ وتخريجها هو التالي :

(٢) إسناد صحيح إلى قتادة

أخرجه الطبري في تفسيره (بولاقي) ١٣٨/١٥.

عزاه السيوطي في الدر المنثور ٣١٧/٥ إلى ابن أبي حاتم، وانظر ما سبق ص ٣١٣.

(٣) تفسير الطبري (بولاقي) ١٣٨/١٥.

الموضع التاسع عشر :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾
الشعراء: ١٤٩.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿فَارِهِينَ﴾ :

فقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بآلف بعد الفاء:
﴿فَارِهِينَ﴾ ووافقهم الأعمش.

وقرأ باقي العشرة بغير ألف: ﴿فَرِهِينَ﴾ ووافقهم الحسن واليزيدي
وابن محيصن (١).

معنى القراءات :

القراءة بالآلف ﴿فَارِهِينَ﴾ من الفراهة والحنق في العمل أي: حاذقين،
فارهمين.

القراءة بغير ألف: ﴿فَرِهِينَ﴾ أي: أشرين بطرين (٢).

حاصل القراءات :

بينت الآية بالقراءات أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا والحال
أنهم حاذقون لها متكبرون في صنعها.

(١) المبسوط ص ٢٧٥ النشر ٣٣٦/٢ الإتحاف ص ٣٣٣.

(٢) معاني القرآن وأعرابه ٩٦/٤ إعراب القراءات السبع ١٣٧/٢.

الموضع العشرون :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانَُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ سبأ: ١٤.

تنوعت القراءات في قوله : ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ ﴾ :

فقرأ يعقوب : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ ﴾ بضم التاء والباء وكسر الياء على البناء للمفعول والنائب الجن.

وقرأ روح عن يعقوب من طريق أبي علي الضرير وغيرهما عن روح عنه، وقرأ باقي العشرة : ﴿ تَبَيَّنَتِ ﴾ بفتح التاء والباء والياء على البناء للفاعل (١). وقرأ ابن شنبوذ (٢) وهي قراءة ابن عباس (٣) وغيره : « فلما خر تبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً في العذاب المهين » معنى القراءات :

قراءة الجمهور : ﴿ تَبَيَّنَتِ ﴾ مبنياً للفاعل تحتل في معناها وجهين : الأول: أن تكون من « تبين » بمعنى « بان » أي: ظهرت الجن، والجن فاعل، و « أن » وما بعدها بدل من الجن كما تقول: تبين زيد جهله أي: ظهر جهل زيد، فالمعنى ظهر للناس جهل الجن علم الغيب، وأن ما ادعوه من ذلك ليس بصحيح.

الثاني: أن تكون من « تبين » بمعنى « علم وأدرك » والجن هنا خدم الجن وضعفتهم، والمعنى علم وأدرك خدم الجن وضعفتهم أن لو كانوا، أي: لو كان رؤساؤهم وكبراؤهم يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين (٤). قال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) : ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ ﴾ من تبين الشيء إذا ظهر وانجلي، و ﴿ أن ﴾ مع صلتها بدل اشتمال كقولك: تبين زيد جهله، والظهور له في المعنى أي: ظهر أن الجن ﴿ لَوْ كَانَُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ ﴾ أو علم الجن كلهم علما بينا بعد التباس الأمر على عامتهم وضعفتهم وتوهمهم أن كبارهم يصدقون في إدعائهم علم الغيب أو علم المدعون علم الغيب منهم عجزهم، وأنهم لا يعلمون الغيب وإن كانوا عالمين قبل ذلك

(١) المبسوط ص ٣٠٤ النشر ٢/٣٥٠ الإتحاف ص ٣٥٨.

(٢) غاية النهاية ٥٥/٢.

(٣) الدر المنثور ٦/٦٨٣.

(٤) البحر المحيط ٧/٢٦٦.

بحالهم وإنما أريد التهكم بهم كما تتهكم بمدعي الباطل اذا دحضت حجته
وظهر إبطاله بقولك: هل تبينت أنك مبطل؟، وأنت تعلم أنه لم يزل كذلك
متبيناً» اهـ (١).

قراءة يعقوب ﴿تُبَيَّنَتْ﴾ مبنياً للمفعول، معناها: عرفت الجن وأكتشف
أمرها وأنها لا تعلم الغيب.
والقراءة الشاذة بمعنى قراءة يعقوب غير أنها صرحت بالفاعل وأنه
الإنسان.

حاصل القراءات :

بينت قراءة يعقوب والقراءة الشاذة أن المعنى المراد في القراءة
المتواترة هو الوجه الأول من المعنيين الذين تحتلها.
ويلاحظ مايلي :

(١) القراءة بضم التاء والباء وكسر الياء على البناء للمفعول
نسبها في «النشر» (٢) إلى يعقوب من رواية رويس فقط، وأفاد ابن مهران (٣)
(ت ٣٨١هـ) أن هناك طرقاً لرواية روح كذلك مثل رواية رويس، وعليه فإن لروح
رواية مثل رواية رويس في هذه الآية من غير طرق «النشر» والله أعلم.

(٢) قال أبوحيان : «وعن ابن عباس وابن مسعود وأبي وعلي بن
الحسن والضحاك قراءة في هذا الموضع مخالفة لسواد المصحف ولما
روي عنهم ذكرها المفسرون، واضرب عن ذكرها صفحا على عادتنا في ترك
نقل الشاذ الذي يخالف لسواد مخالفة كثيرة» اهـ (٤).

قلت : يشير رحمه الله إلى هذه القراءة الشاذة التي أوردتها عن ابن
عباس وغيره.

(١) الكشف ٢٥٤/٣.

(٢) ٣٥٠/٢.

(٣) المبسوط ص ٣٠٤.

(٤) البحر المحيط ٢٦٨/٧.

الموضع الحادي والعشرون :
 قول الله تبارك وتعالى : ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا. وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
 فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾
 سبأ: ١٩.

تنوعت القراءات في قوله : ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ﴾ :
 فقرأ ابن كثير وأبو عمرو و هشام بنصب الباء وكسر العين مشددة من
 غير ألف مع اسكان الدال : ﴿رَبَّنَا بَعْدْ﴾ ووافقهم ابن محيصن واليزيدي.
 وقرأ يعقوب برفع الباء من ﴿رَبَّنَا﴾ وفتح العين والدال وألف قبل
 العين من ﴿بَاعِدْ﴾.
 وقرأ الباؤون بنصب الباء وكسر العين وبألف قبل العين وبتخفيف
 العين : ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ﴾ (١).
 معنى القراءات :

القراءة بنصب : ﴿رَبَّنَا﴾ وكسر العين وتشديدها وبدون ألف ﴿بَعْدْ﴾ أي:
 يارب بعد بين أسفارنا، فهي نداء منهم لله يطلبون فيه المباعدة بين
 أسفارهم، على وجه الجرأة والبطر (٢).

القراءة بضم ﴿رَبَّنَا﴾ وفتح العين المخففة وبالألف قبلها ﴿بَاعِدْ﴾ أي:
 إخبار منهم عن مباعدة الله بين أسفارهم؛ فهي إخبار منهم أن الله
 استجاب دعاءهم، على وجه الشكوى إفراطا في الترفه وعدم الاعتدال بما
 أنعم الله به عليهم (٣).

القراءة بنصب الباء ﴿رَبَّنَا﴾ وكسر العين وبألف قبلها ﴿بَاعِدْ﴾ أي: يارب
 بعد بين أسفارنا، فهي نداء كالأولى (٤).
 حاصل القراءات :

أن هؤلاء سألوا الله وطلبوه أن يباعد بين أسفارهم فأخبر الله أنه
 استجاب لهم، وأنهم صاروا يخبرون بذلك ويتشكون .
 قال أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) مبينا حاصل القراءات في الآية: «خبر

(١) الغاية ص ٢٤٢ النشر ٢/٣٥٠ الإتحاف ص ٢٥٩.

قال أبو جعفر النحاس: «وقرأ يحيى بن يعمر وعيسى بن عمر وتروى عن ابن
 عباس: «ربنا بعد» وقرأ سعيد بن أبي الحسن البصري أخو الحسن: «فقالوا ربنا بعد»
 (بفتح الباء وضم العين المخففة).» هـ. إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٤٢ وانظر
 المحتسب ١٨٩/٢، وهذه القراءات راجعة في المعنى إلى القراءات المتواترة.

(٢) تفسير الطبري (دار الفكر) ٨٥/٢٢ إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٤٢ تفسير القرطبي ١٤/٢٩٠.

(٣) تفسير الطبري (دار الفكر) ٨٥/٢٢ المذهب ١٥٣/٢ المغني ٣/١٦٣.

(٤) ماسبق، القلائد ص ١٢٠.

عنهم أنهم دعوا أن يباعد بين أسفارهم بطرا وأشرا، وخبر أنهم لما فعل بهم ذلك خبروا به وشكوا كما قال ابن عباس^{هـ} (١).

قلت : يشير رحمه الله إلى القراءة المروية عن ابن عباس : «رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا» (٢) وقد فسرهما ابن عباس بقوله: «شكوا أن ربهم باعد بين أسفارهم»^{هـ} (٣).

وتلاحظ الأمور التالية :

(١) أن القراءات مع اختلاف لفظها ومعناها لم تتناقض ولم تتضاد فكل قراءة حق، واختلافها من باب التنوع ولله الحمد^{هـ} (٤).

(٢) قال أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) : «هذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يجز أن يقال أحداها أجود من الأخرى؛ لا يقال ذلك في الأخبار إذا اختلفت معانيها»^{هـ} (٥).

قلت : وهذا هو الحق الذي لا محيد عنه إذ الجميع (أعني: القراءات الصحيحة) كلام الله، وكلها قرآن، وقد يشتد القلم ببعضهم فيفاضل بين القراءات فيوشك أن يلغي واحدة منها، وإن لم يصرح بذلك^{هـ} (٦) ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٣) قال سيبويه: «إن فاعل وفعل يجيئان بمعنى، كقولهم: ضاعف وضعف، وقارب وقرب، واللفظان جميعا على معنى الطلب والدعاء ولفظهما الأمر»^{هـ} (٧).

قلت : جاءت قراءتان «بَاعِدَ» و «بَعَدَ» وقراءة واحدة فقط «بَاعَدَ» وذلك في المتواتر من القراءات، ولا يخفى في أن مجيء قراءتين على معنى واحد فيه إشارة إلى المبالغة والتأكيد.

وفي القراءتين معنى النداء تأكيدا على حصول الإلحاح منهم في الدعاء بذلك على وجه الجرأة والإنكار لنعمة الله عليهم.

(١) اعراب القرآن ٣/٣٤٣.

(٢) ماسبق ، البحر المحيط ٧/٢٧٢.

(٣) اعراب القرآن ٣/٣٤٢.

(٤) أنظر مجموع الفتاوى ١٣/٣٩١.

(٥) اعراب القرآن ٣/٣٤٣.

(٦) كما حصل من ابن جرير الطبري رحمه الله، وقد صنف في الرد عليه مصنفات منها كتاب: «القراءات المتواترة التي أنكرها ابن جرير الطبري في تفسيره والرد عليه» لمحمد عارف عثمان الهري، ورسالة: «دفاع عن القراءات المتواترة في مواجهة الطبري المفسر» للبيب السعيد.

(٧) بواسطة حجة القراءات ص ٥٨٨.

الموضع الثاني والعشرون : قول الله تبارك وتعالى : ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ . وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ . وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ . لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ الإنشاق: ١٦-١٩ .

تنوعت القراءات في قوله : ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ :
فقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف : ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بفتح الباء ووافقهم ابن محيصن والأعمش .

وقرأ الباقر : ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بضم الباء ووافقهم الحسن واليزيدي (١) .
معنى القراءات :

القراءة بضم الباء خطاب لسائر الناس (٢) .

القراءة بفتح الباء فيها قولان :

الأول : أنه خطاب للرسول ﷺ أي : لتركبن يا محمد طبقا بعد طبق .

الثاني : أنه خبر عن السماء أي لتركبن السماء طبقا بعد طبق (٣) .

حاصل القراءات :

جميع هذه المعاني التي تدل عليها الآية بالقراءات لا تمنع بينها فإله يخاطب الناس بأنهم سيركبون طبقا عن طبق، كما يخاطب رسوله بأنه سيركب طبقا عن طبق ، ويخبر سبحانه عن السماء أنها ستركب طبقا عن طبق .

وتلاحظ الأمور التالية :

(١) قوله : ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ يتنوع المراد منه بحسب الخطاب

وأصل مادة [ط . ب . ق] تدل على وضع شيء مبسوط على مثله حتى يغطيه، ومن

ذلك الطبق، تقول أطبقت الشيء على الشيء، فالأول طبق للثاني، وقد تطابقا (٤)

وقيل للحال المطابقة لغيرها طبق (٥) .

ويحتمل المراد في قوله : ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ على القراءة بضم

(١) إرشاد المبتدي ص ٦٢٧ النشر ٢/٣٩٩ الإتحاف ص ٤٣٦ .

وقرأ ابن مسعود وأبو الجوزاء وأبو الأشهب : «ليركبن» بالياء وفتح الباء على نكر

الغائب، وقرأ أبوالمთوكل وأبو عمران وابن يعمر : «ليركبن» بالياء وضم الباء .

أنظر زاد المسير ٦٧/٩ البحر المحيط ٤٤٧/٨ .

وهي في المعنى راجعة إلى القراءات المتواترة السابقة .

(٢) الكشف ٢/٣٦٨ حجة القراءات ص ٧٥٧ زاد المسير ٦٧/٩ .

(٣) الكشف ٢/٣٦٧ حجة القراءات ص ٧٥٦ زاد المسير ٦٧/٩ .

(٤) معجم مقاييس اللغة ٣/٤٣٩ .

(٥) تفسير الرازي ٣١/١٠٩ .

الباء في ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ على أنها خطاب للجمع الأوجه التالية (١) :

الأول : لتركبن أيها الانسان أمورا وأحوالا أمرا بعد أمر، وحالا بعد حال، ومنزلا بعد منزل إلى أن يستقر الأمر على ما يقضى به على الإنسان من جنة أو نار.

الثاني : أن معنى الآية لتركبن أيها الانسان يوم القيامة أحوالا وشدائد حالا بعد حال، وشدة بعد شدة، كأنهم لما أنكروا البعث أقسم الله أن البعث كائن، وأن الناس يلقون فيها الشدائد إلى أن يفرغ من حسابهم فيصير كل أحد إلى ما أعد له من جنة أو نار.

الثالث : أن يكون المعنى لتركبن أيها الناس حالا بعد حال يوم القيامة عما كنتم عليه في الدنيا، فمن وضع في الدنيا يصير رفيعا في الآخرة، ومن رفيع يتضع ومن متنع يشقى، ومن شقى يتنع؛ فالآية كقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ الواقعة: ٣.

الرابع : أن يكون المعنى لتركبن أيها الناس سنة الأولين ممن كان قبلكم.

ويحتمل المراد في قوله: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ على القراءة بفتح الباء في ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ قولان :

الأول : أنه خطاب للرسول ﷺ أي: لتركبن يا محمد حالا بعد حال، يذكر حالات النبي ﷺ من يوم أوحى إليه إلى يوم قبضه الله عز وجل . أو أن يكون ذلك بشارة للرسول ﷺ أي: لتركبن يا محمد سماء بعد سماء، يعني: في المعراج.

الثاني : أن الآية خبر عن السماء وتغيرها من حال إلى حال تكون منشقة ثم منفطرة ثم تصير وردة كالدهان، وتارة كالمهل على ما ذكر الله تبارك وتعالى في القرآن العظيم (٢).

(١) تفسير الرازي ماسبق ١١٠-١٠٩/٣١.

(٢) حجة القراءات ص ٧٥٦-٧٥٧ تفسير الرازي ١١٠/٣١.

الفصل الثاني : في القراءات التي وسَّعت معنى الآية.

يتضمن هذا الفصل الآيات التي وردت فيها قراءات وسَّعت معناها وأفادت الآية بها أكثر من معنى.
وقد سقناها حسب ورودها في ترتيب المصحف الشريف ، وعددها في هذا الفصل ثمانية و تسعون موضعا وهي كالتالي :

اعتبار أن لكل قراءة معنى خاصاً بها؛ ﴿يَكْذِبُونَ﴾ بالتشديد غيرها بالتخفيف وهذا هو الراجح الواضح.

لكن يحتمل أن يكون المشدد في معنى المخفف على جهة المبالغة كما قالوا في صدق وصدق، وفي بان الشيء بين، وفي قلص الثوب قلص (١). وهذا الاحتمال الثاني رجحه الطبري (٢) وصوبه، وأورده أبوحيان (٣) (٧٥٤هـ) والألوسي (٤) (ت ١٢٧٠هـ) احتمالاً.

قلت : و ما قدمته هو الظاهر - إن شاء الله - اذ لا مانع منه، والتأسيس أولى من التأكيد ، ولأن تكثير المعاني أولى من مجرد تغير اللفظ مع اتحاد المعنى إلا إذا اقتضت ذلك ضرورة ما، والله تعالى أعلم .

-
- (١) البحر المحيط ٦٠/١ .
 - (٢) تفسير الطبري (دار الفكر) ١٢٣/١ - ١٢٤ .
 - (٣) البحر المحيط ٦٠/١ .
 - (٤) روح المعاني ١٥٠/١ .

الموضع الأول :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ البقرة: ١٠.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿يَكْذِبُونَ﴾ :

فقرأ أبو جعفر ونافع وأبو عمرو وابن كثير وابن عامر ويعقوب : ﴿يَكْذِبُونَ﴾ بضم الياء وفتح الكاف وتشديد الذال ووافقهم ابن محيصن واليزيدي.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف : ﴿يَكْذِبُونَ﴾ بفتح الياء وسكون الكاف وتخفيف الذال ووافقهم الحسن والأعمش (١).

معنى القراءات :

القراءة بالتشديد معناها: أنهم استحقوا العذاب الأليم بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ (٢).

القراءة بالتخفيف معناها: أنهم استحقوا العذاب الأليم بسبب إظهارهم الإسلام والإيمان وهم كافرون في باطنهم، فهم كاذبون في قولهم: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (٣).

حاصل القراءات :

أن المنافقين سيعذبون العذاب الأليم بسبب كذبهم وتكذيبهم ففي القراءتين تنوع في المعنى لشمول جميع أحوالهم تكذيبهم وكذبهم . قال أبو محمد مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) : «والقراءتان متداخلتان ترجع إلى معنى واحد؛ لأن من كذب رسالة الرسل وحجة النبوة فهو كاذب على الله ومن كذب على الله وجد تنزيله فهو مكذب بما أنزل الله» اهـ (٤).

قال ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) رحمه الله : «في ﴿يَكْذِبُونَ﴾ قراءتان مشهورتان؛ فانهم كَذَبُوا في قولهم : ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وَكَذَّبُوا الرَّسُولَ في الباطن وإن صدَّقوه في الظاهر» اهـ (٥).

وتلاحظ الأمور التالية :

ما سبق من بيان أثر القراءات في بيان مراد الله من الآية على

(١) المبسوط ص ١١٥ النشر ٢٠٧/٢ الإتحاف ص ١٢٩.

(٢) الكشف ٢٢٨/١ حجة القراءات ص ٨٩.

(٣) ماسبق وتفسير القرطبي ١٩٨/١.

(٤) الكشف ٢٢٩/١.

(٥) مجموع الفتاوى ١٨٢/٧.

الموضع الثاني :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ البقرة: ٨٨.

هكذا قرأ عامة العشرة : ﴿غُلْفٌ﴾ بتسكين اللام.

وقرأ ابن عباس والأعرج وابن هرمز وابن محيصن : «غلف» بضم اللام وهي مروية عن أبي عمرو (١).

عن ابن عباس : «أنه كان يقرأ: «قلوبنا غلف» مثقلة أوعية للحكمة، كيف تتعلم، وإنما قلوبنا غلف للحكمة أي: أوعية للحكمة» (٢).

معنى القراءات :

قراءة العامة: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: قلوبهم مستورة عن الفهم والتمييز (٣).
قراءة ابن عباس والآخرين: «غلف» بضم اللام جمع غلاف مثل حُمْر جمع خمار والمعنى يحتمل الوجوه التالية :

الأول : أنها أوعية للعلم أقاموا العلم مقام شيء مجسد وجعلوا الموانع التي تمنعهم غلفاً له، ليستدل بالمحسوس على المعقول .
الثاني : أنها أوعية للعلم، تعي ما تخاطب به لكنها لا تفقه ما تحدث به؛ فلو كان ما تقوله حقاً لوعته قلوبنا، قاله ابن عباس وقتادة والسدي.
الثالث : أنها أوعية مملوءة علماً من دينهم وشريعتهم واعتقادهم أن دوام ملتهم إلى يوم القيامة، وهي لصلابتها وقوتها تمنع أن يصل إليها غير ما فيها كالغلاف الذي يصون المغلف أن يصل إليه ما بغيره، أو لا حاجة لها إلى علمك.

الرابع : أنها أوعية خالية، كالغلاف الخالي لا شيء فيه (٤).

حاصل القراءات :

بينت القراءة المتواترة أن يهود يقولون : قلوبنا لا تفهم ولا تميز، وهم أبناء بني إسرائيل الذين كانوا بحضرة رسول الله ﷺ، قالوا ذلك بهتا

(١) زاد المسير ١١٣/١ تفسير القرطبي ٢٥/٢ البحر المحيط ٣٠١/١ الإتحاف ص ١٤١.
(٢) قال في مجمع الزوائد ١٥٤/٧ : «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه سليمان بن أرقم وهو متروك» اهـ.

قلت : قال في التقريب ص ٢٥٠ : «سليمان بن أرقم البصري أبو معاذ ضعيف من السابعة» اهـ.

(٣) تفسير القرطبي ٢٥/٢ البحر المحيط ٣٠١/١.

(٤) ما سبق و القراءات الشاذة وتوجيهها ص ٣١.

ودفعا لما قامت عليهم الحجج وظهرت لهم البيّنات، وأعجزتهم المعجزات عن مدافعة الحق؛ نزلوا عن رتبة الإنسانية الى رتبة البهيمية ففيها بيان لزمهم أنفسهم بما ليس فيهم دفعا لقبول الحق. وبيّنت القراءة الأحادية ما يتذرعون به من الحجج في عدم قبولهم لدعوة الرسول ﷺ، ففيها بيان لحال قلوبهم (١).

(١) تفسير القرطبي ٢٥/٢ البحر المحيط ٣٠١/١ القراءات الشاذة وتوجيهها ص ٣١.

الموضع الثالث :

قول الله تبارك : ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ البقرة: ١٦٥.

تنوعت القراءات في قوله : ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ﴾ :

فقرأ نافع وابن عامر ويعقوب بالتاء : ﴿وَلَوْ تَرَى الَّذِينَ﴾ .

وروى ابن شبيب عن الفضل من طريق النهرواني عن ابن وردان عن أبي جعفر بالخطاب.

وقرأ باقي العشرة : ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ﴾ بالياء (١).

معنى القراءات :

القراءة على الخطاب، أي: أن الله عزوجل يخاطب الرسول ﷺ وخطاب الله لرسوله ﷺ خطاب للخلق كافة لأنه ﷺ الله إليهم .
ويحتمل هذا الخطاب تقديرات كما يلي :

الأول : لو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب وفزعهم منه واستعظامهم له لأقروا أن القوة لله تعالى.

الثاني : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب وفزعهم منه لعلمت أن القوة لله جميعا، وقد كان الرسول ﷺ يعلم ذلك ولكن خوطب به باعتبار عين اليقين، أي: العلم الحاصل عن الرؤية المباشرة وهو أوقع من العلم النظري، و أمته عليه الصلاو والسلام مرادة بهذا .
الثالث : قل يا محمد للظالم هذا .

الرابع : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم للعذاب؛ لأن القوة لله لعلمت مبلغهم من النكال وما حل بهم (٢).

القراءة على الغيب، أي: لو يرى الذين يتخذون شركاء مع الله تعالى؛ العذاب الذي أعده الله لهم في الآخرة لأيقنوا أن القوة لله وحده وأنه شديد العذاب وأن الأنداد والشركاء لا حول لهم ولا قوة، ولم يغنوا عنهم من عذاب الله شيئا (٣).

(١) المبسوط ص ١٢٤ ولم يحك خلافا عن أبي جعفر وذلك على حسب الطرق والروايات التي يسوق عنها قراءة أبي جعفر، النشر ٢٢٤/١ وحكى الخلاف عن أبي جعفر.

(٢) تفسير القرطبي ٢٠٥/٢ البحر المحيط ٤٧١/١-٤٧٢.

(٣) تفسير القرطبي ٢٠٤/٢-٢٠٥ المغني في توجيه القراءات ٢١٠/١.

حاصل القراءات :

لا منافاة بين جميع المعاني السابقة، لكن يلاحظ أن الاحتمال الأول والثالث في معنى القراءة بالخطاب يتفق في المعنى مع القراءة بالياء : ﴿وَلَوْ يَرَى﴾ (١)، ولا مانع من ارادة الاحتمالات الأخرى في معنى القراءة بالخطاب.

ويلاحظ مايلي :

أن تقدير جواب «لو» في الآية مبني على تنوع القراءات في قوله تعالى في الآية السابقة : ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ... أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ البقرة: ١٦٥.

فقرأ أبوجعفر ويعقوب : ﴿إِنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ بكسر الهمزة فيهما على تقدير أن «إن» ومابعداها جواب «لو» أي: لقلت: إن القوة لله جميعا ... الخ على قراءة الخطاب ﴿وَلَوْ تَرَى﴾.

أو لقالوا: إن القوة لله جميعا ... الخ على قراءة الغيب : ﴿وَلَوْ يَرَى﴾. ويحتمل أن يكون على الاستئناف على أن جواب «لو» محذوف والتقدير: لرأيت أو لرأوا أمرا عظيما.

وقرأ باقي العشرة بفتح الهمزة فيهما : ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ وتقدير الجواب: لعلمت أن القوة لله جميعا ... الخ على قراءة الخطاب، أو لعلموا أن القوة لله جميعا على قراءة الغيب (٢).

(١) الكشف ٢٧٢/١.

(٢) الإتحاف ص ١٥١ المغني في توجيه القراءات ٢١٣/١ وانظر البحرالمحيط ٤٧١/١-٤٧٢ فقد ذكر أوجها أخرى أشرت إليها في معنى القراءات في هذه الآية.

الموضع الرابع :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۚ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٨٣-١٨٤.

هكذا قرأ عامة القراء العشرة : ﴿يُطِيقُونَهُ﴾.

وقرأ عبدالله بن عباس في المشهور عنه : «يطوقونه» مبنيًا للمفعول من طوق على وزن «قطع» (١).

وقرأت عائشة ومجاهد وطاوس وعمرو بن دينار: «يطوقونه» من «أطوق» وأصله تطوق، يتطوقونه، ثم أدرغمت التاء في الطاء (٢).

وقرأ ابن عباس وعكرمة ومجاهد: «يطيقونه».

وقرأ ابن عباس أيضا : «يطيقونه».

معنى القراءات :

القراءة المتواترة معناها: أن القادر على الصوم له أن يترك الصوم إلى الفدية ولا يلزمه القضاء وهي على هذا منسوخة (٤).

القراءات الشاذة معناها: أن الذي يتكلف ويتجشم الصوم ويكون له كالطوق في عنقه؛ له أن يترك الصوم إلى الفدية ولا يلزمه القضاء، وهي على الشيخ الكبير الهرم، والعجوز الكبيرة الهرمة، والمرضع والحامل، على خلاف في وجوب القضاء عليهما مع الفدية (٥).

حاصل القراءات :

دلت الآية بالقراءات الواردة فيها على حكمين :

أحدهما: أن القادر على الصوم له أن يترك الصوم إلى الفدية ولا

(١) وزاد ابن جني في المحتسب ١١٨/١ نسبتهما إلى سعيد بن المسيب وطاوس وابن جبير ومجاهد وعكرمة وأيوب السخيتاني.

(٢) قال ابن جني في المحتسب ١١٨/١ عن هذه القراءة : «رويت عن ابن عباس وعن عكرمة» هـ.

(٣) زاد المسير ١٨٦/١ نواسخ القرآن ص ٦٥-٧٠ البحر المحيط ٣٧-٣٥/٢.

(٤) الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص ١٤٩-١٥٤ الكشف ١١٣/١ تفسير القرطبي ٢٨٧/٢-٢٨٩.

يلزمه القضاء، وهذا على قراءة : «يُطِيقُونَهُ» وهذا الحكم منسوخ .
 الثاني : أن الذي يتكلف ويتجشم الصوم ويكون الصوم كالطوق في عنقه فيجد فيه مشقة؛ له أن يترك الصوم إلى الفدية ولا يلزمه القضاء، وهذا الحكم للشيخ الهرم والعجوز الهرمة والحامل والمرضع على خلاف في وجوب القضاء أو الفدية على الحامل والمرضع، وهذا على قراءة : «يطوقونه» و «يطوقونه» و «يطيقونه» ، وهو حكم محكم غير منسوخ.
 وتلاحظ الأمور التالية :

(١) قال القرطبي (ت٦٧١هـ) عن قراءة : «يطوقونه» : «ليست من القرآن خلافا لمن أثبتها قرآنا، وإنما هي قراءة على التفسير» اهـ (١).
 قلت : لم يرتض أبو حيان (ت٧٥٤هـ) رحمه الله ذلك فقال : «قال بعض الناس: هو تفسير لا قراءة خلافا لمن أثبتها قراءة .

والذي قاله الناس خلاف مقالة هذا القائل وأوردها قراءة» اهـ (٢).
 قلت : أوردها ابن جني (ت٣٩٢هـ) في كتابه «المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها» (٣)، وعلى كل حال فاحتمال أنها قراءة تفسيرية وارد، واحتمال أنها قراءة من غير الحرف الذي جمع عليه عثمان رضي الله عنه الناس عليه وارد أيضا وفي الحاليين يستفاد منها في التفسير والله أعلم.

(٢) اختلفت الآثار الواردة عن ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية فتارة يفسرها بمعنى ويحكم بنسخها، وتارة يفسرها بمعنى آخر ولا يحكم بنسخها، وليس هذا تناقضا منه رضي الله عنه؛ لأن مراده بالنسخ هنا التخصيص حيث كان السلف يطلقون كلمة «نسخ» على رفع الحكم بالكلية وعلى رفع بعض الحكم سواء بالتخصيص أم بالتقييد، بل يسمون الاستثناء والشرط والصفة نسخا لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر وبيان المراد، فكل ما بين المراد بغير ذلك اللفظ بل بأمر خارج عنه فهو نسخ عندهم (٤).

فقول ابن عباس رضي الله عنه : «رخص للشيخ الكبير والعجوز الكبيرة في ذلك وهما يطيقان الصوم أن يفطرا إن شاءا، ويطعما عن كل يوم مسكينا

(١) تفسير القرطبي ٢/٢٨٧.

(٢) البحر المحيط ٢/٣٥.

(٣) ١١٨/١.

(٤) نبه على ذلك القرطبي في تفسيره ٢/٢٨٨-٢٨٩ وابن القيم في اعلام الموقعين ١/٣٥-٣٦ والشاطبي في الموافقات ٣/١٠٨.

ولا قضاء عليهما ، ثم نسخ ذلك في هذه الآية : ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وثبت للشيخ الكبير والعجوز إذا كانا لا يطيقان الصوم، والحبلى والمرضع إذا خافتا أفطرتا وأطعمتا كل يوم مسكينا» (١).

هذا القول من ابن عباس لا يعارض ما جاء عن عطاء أنه سمع ابن عباس يقرأ: «وعلى الذين يطوقونه فدية طعام مسكين».

قال: ابن عباس : «ليست بمنسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فليطعمان مكان كل يوم مسكينا» (٢).

لأن قوله : «ليست بمنسوخة» يفسره قوله : «ثم نسخ ذلك في هذه الآية : ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وثبت للشيخ الكبير والعجوز إذا كانا لا يطيقان الصوم ، والحبلى والمرضع إذا خافتا أفطرتا وأطعمتا كل يوم مسكينا»؛ فمراده من قوله: «ليست بمنسوخة» أي: حكم الآية لم يرفع بالكلية، ومراده من قوله : «ثم نسخ» أي: خصص بعض أفراد الحكم، وثبت الحكم في حق من ذكره (٣).

وبهذا يتفق كلام ابن عباس رضي الله عنه والصحابة رضوان الله عليهم.

قال ابن أبي ليلى حدثنا أصحاب محمد ﷺ: «نزل رمضان فشق عليهم فكان من أطعم كل يوم مسكينا ترك الصوم ممن يطيقه، ورخص لهم في ذلك، فسختها : ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤] فأمرُوا بالصوم» (٤).
عن سلمة بن الأكوع قال: «لما نزلت : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ كان من أراد أن يفطر ويفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسخت» (٥).

(١) إسناده صحيح .

أخرجه أبوداود في كتاب الصوم باب من قال: هي مثبتة للشيخ والحبلى حديث رقم (٢٣١٨) والطبري في تفسيره (شاكر) ٢٥٠/٣ حديث رقم (٢٧٥٢، ٢٧٥٣) وابن الجارود تحت رقم (٣٨١).

وانظر ارواء الغليل ١٨/٤ .

(٢) أثر صحيح .

أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ...﴾ تحت رقم (٤٥٠٥).

(٣) تفسير ابن عباس ومروياته من كتب السنة ٧٣/١ .

(٤) حديث صحيح .

أخرجه البخاري في كتاب الصوم باب ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ﴾ تعليقا .

(٥) حديث صحيح .

أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب ﴿مَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ حديث

قلت : ومما يؤكد اتفاق الجميع على أن حكم الآية لم ينسخ بالكلية كما أشار إليه حبر الأمة عبد الله بن عباس؛ ما جاء عن ابن أبي ليلى (١) عن معاذ بن جبل قال: « أحييت الصلاة ثلاثة أحوال وأحيل الصوم ثلاثة أحوال فذكر أحوال الصلاة ثم قال : «وأما أحوال الصيام؛ فإن رسول الله ﷺ قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وصام يوم عاشوراء .

ثم ان الله عزوجل فرض عليه الصيام فأنزل الله عزوجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣] إلى هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] قال: فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكينا فأجزأ ذلك عنه .

قال : ثم ان الله عزوجل أنزل الآية الأخرى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] إلى قوله : ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] قال: فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورخص فيه للمريض والمسافر وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام فهذان حولان ... «الحديث (٢).

قلت : قوله: «فهذان حولان» أي: حولان بعد الأول وهو صيام ثلاثة أيام وعاشوراء فتصير ثلاثة أحوال، فهذا الحديث صريح في أن الآية منسوخة بالنسبة للذي يطيق الصيام، غير منسوخة بالنسبة للذي يشق عليه الصيام أي أن الآية مخصوصة .

وعليه فإن حكم هذه الآية باق في حق الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة

= رقم (٤٥٠٧) ومسلم في كتاب الصيام باب بيان نسخ قوله تعالى : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وأنظر جامع الأصول ٢٣/٢ .

(١) ابن أبي ليلى. لم يسمع من معاذ كما قال ابن المديني ونقله في تهذيب التهذيب ٢٦٢/٦ ولم يتعقبه، لكن نبه الحافظ الزيلعي في نصب الراية ٢٦٧/١ إلى مجيء الحديث من طريق آخر عن ابن أبي ليلى : قال حدثنا أصحابنا : - يريد صحابة رسول الله ﷺ - فهو متصل، يشهد لحديثه عن معاذ والله أعلم .

(٢) حديث صحيح لغيره .

أخرجه أبوداود في كتاب الصلاة باب بدء الأذان تحت رقم (٥٠٧، ٥٠٦) وأخرجه الترمذي في كتاب الصلاة باب ما جاء أن الإقامة مثنى مثنى، وأخرجه أحمد في المسند ٢٤٦-٢٤٧/٥ واللفظ له وأخرجه الحاكم في المستدرک ٢٧٤/٢ والبيهقي في السنن الكبرى ٢٠٠/٤ .

وأنظر نصب الراية ٢٦٦-٢٦٧/١ إرواء الغليل ٢٠/٤-٢١ جامع الأصول ٢٧١/٥-٢٧٦ .

الذين يشق عليهما الصيام ، وكذا في حق الحامل والمرضع إذا خافتا على نفسيهما أو ولديهما.

وهذا الحكم الذي ذكره ابن عباس في الآية لا مخالف له فيه من الصحابة (١)، بل نقل عنهم ما يوافقه :

عن ابن عباس رضي الله عنه قال : «إذا خافت الحامل على نفسها والمرضع على ولدها في رمضان قال يفطران ويطعمان مكان كل يوم مسكينا ولا يقضيان صوما» (٢).

وعنه أيضا أنه رأى أم ولد له حاملا أو مرضعا فقال: «أنت بمنزلة الذي لا يطيقه عليك أن تطعمي مكان كل يوم مسكينا ولا قضاء عليك» (٣).

وسئل ابن عمر عن المرأة الحامل إذا خافت على ولدها فقال: «تفطر وتطعم مكان كل يوم مسكينا مدا من حنطة» (٤).

وعنه أيضا قال : «الحامل والمرضع تفطر ولا تقضي» (٥).

وسألت امرأة ابن عمر وهي حبلى فقال: «افطري واطعمي عن كل يوم مسكينا ولا تقضي» (٦).

عن سعيد بن المسيب قال في قول الله تبارك وتعالى : ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] قال: «هو الكبير الذي كان يصوم فكبر وعجز عنه، وهي الحامل التي ليس عليها الصيام فعلى كل واحد منهما طعام مسكين مد حنطة

(١) ذكر ابن قدامة في كتابه: «المغني في الفقه» ١٤٠/٣ قول ابن عباس وابن عمر المذكورين هنا ، وعقب عليهما بقوله: «ولا مخالف لهما في الصحابة» هـ.

(٢) إسناده صحيح .

أخرجه الطبري في تفسيره (دارالفكر) ١٣٦/٢.

(٣) إسناده صحيح .

أخرجه الطبري في تفسيره (دارالفكر) ١٣٦/٢ والدارقطني في سننه ٢٠٦/٢ وقال: «إسناده صحيح» هـ.

(٤) إسناده صحيح .

أخرجه الشافعي في المسند (ترتيب السندي) ٢٧٨/١ والبيهقي في سننه الكبرى ٢٣٠/٤.

(٥) إسناده حسن .

أخرجه الطبري في تفسيره (دارالفكر) ١٣٦/٢ مقتصرًا على السند، والدارقطني في سننه ٢٠٧/٢ وصححه.

(٦) إسناده حسن .

أخرجه الدارقطني في سننه ٢٠٧/٢.

لكل يوم حتى يمضي رمضان» (١).
عن أنس بن مالك أنه أفطر في رمضان وكان قد كبر فأطعم مسكينا كل يوم (٢).

وهذا الحكم المستفاد من الآية وضع الصوم عن الحامل والمرضع إذا خافتا على نفسيهما أو ولديهما جاء صريحا في حديث مرفوع عن أنس بن مالك الكعبي قال: «غارت علينا خيل رسول الله ﷺ فأتيت رسول الله ﷺ فوجدته يتغدى فقال: أدن فكل. فقلت: إني صائم. فقال: ادن أحدثك عن الصوم - أو الصيام - إن الله تبارك وتعالى وضع عن المسافر شطر الصلاة وعن الحامل والمرضع الصوم - أو الصيام - والله لقد قالهما النبي ﷺ كليهما أو أحدهما فيالهدف نفسي ألا أكون طعمت طعام النبي ﷺ» (٣).

قلت : وقال الترمذي معقبا على هذا الحديث: «والعمل على هذا عند بعض أهل العلم، وقال بعض أهل العلم: الحامل والمرضع يفطران ويقضيان ويطعمان وبه يقول سفيان ومالك والشافعي وأحمد .
وقال بعضهم: يفطران ويطعمان ولا قضاء عليهما وإن شاءتا قضتا ولا اطعام عليهما وبه يقول إسحاق» اهـ (٤).
فإن قيل : هذا الحكم الذي أشار إليه ابن عباس والصحابة رضوان

(١) إسناده حسن .

تفسير الطبري (دارالفكر) ١٣٧/٢ .

(٢) إسناده صحيح .

علقه البخاري في كتاب التفسير باب ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ بنحوه، وعزاه الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٨٠/٨ وتغليق التعليق ١٧٧/٤-١٧٨ إلى عبد بن حميد وفوائد محمد ابن هشام الملاس .

قلت : وأخرجه الدارقطني ٢٠٧/٢-٢٠٨ وسنده صحيح كما قال صاحب كتاب «صفة صوم النبي ﷺ» ص ٦٠ .

(٣) حديث حسن .

أخرجه الترمذي في كتاب الصوم باب الرخصة في الإفطار للحبلى والمرضع حديث رقم (٧١٥) وأخرجه أبوداود في كتاب الصوم باب اختيار الفطر حديث رقم (٢٤٠٨) وأخرجه النسائي في كتاب الصيام باب ذكر وضع الصيام عن المسافر ١٨٠/٤ وأخرجه ابن ماجه في كتاب الصيام باب ما جاء في الإفطار للحامل والمرضع حديث رقم (١٦٦٧) وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه ٢٦٨/٣ حديث رقم (٢٠٤٣) .

والحديث حسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٢٧٩/١ وصحيح سنن النسائي ٤٨٤/٢ وصحيح سنن الترمذي ٢١٨/١ .

(٤) صحيح سنن الترمذي ٢١٨/١ .

الله عليهم من بقاء حكم الآية في حق الشيخ الهرم والعجوز الكبيرة الذين لا يستطيعان الصوم الا بمشقة، وفي حق المرأة الحامل والمرضع إذا خافتا على نفسيهما أو ولديهما؛ يخالف تمام الآية حيث قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٨٤ فكيف يكون الحكم باق في حق من لا يستطيع الصوم ثم يقول الله: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾؟

فالجواب : أن الآية هنا من نوع الموصول لفظا المفصول معنى (١)، فقله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ كلام منفصل في معناه عما قبله، يقرر فيه تبارك وتعالى تفضيل الصيام، فخير لمعنى التفضيل لا الأفضلية، ف«خير» هنا ضدها «الشر» (٢)، فعدم الصيام شر (٣).

(٢) قال الألويسي (ت ١٢٧٠هـ) : «والحق أن كلا من من القراءات يمكن حملها على ما يحتمل النسخ وما لا يحتمله» اهـ (٤).

(٣) قال الطبري (ت ٣١٠هـ) : «إن قراءة كافة المسلمين ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾، وعلى ذلك خطوط مصاحفهم، وهي القراءة التي لا يجوز لأحد من أهل الاسلام خلافها لنقل جميعهم تصويب ذلك قرنا عن قرن» (٥).

وقال رحمه الله : «أما قراءة من قرأ ذلك : «وعلى الذين يطوقونه» فقراءة لمصاحف أهل الاسلام خلاف، وغير جائز لأحد من أهل الاسلام الاعتراض بالرأي على ما نقله المسلمون وراثته عن نبيهم ﷺ نقلا ظاهرا قاطعا للعدر؛ لأن ما جاءت به الحجة من الدين هو الحق الذي لا شك فيه أنه

(١) أفرد السيوطي في كتابه الإتيان (أبوالفضل) ٢٥٢/١ النوع التاسع والعشرين في بيان الموصول لفظا المفصول معنى، وقال في مطلعته: «هو نوع مهم جدير أن يفرد بالتصنيف...» وبه يحصل حل اشكالات وكشف معضلات كثيرة» اهـ.

(٢) نبة السيوطي في الحاوي للفتاوي ٣٧٦-٣٧٧ إلى أن لفظة «خير» لها استعمالان: أحدهما : أن يراد بها معنى التفضيل لا الأفضلية وضدها «الشر»، وهي كلمة باقية على أصلها لم يحذف منها شيء.

والثاني : أن يراد بها معنى الأفضلية وهي التي توصل بـ«من» وهذه أصلها «أخير» حذفت همزتها تخفيفا، ويقابلها «شر» التي أصلها «أشر».

(٣) هذا الجواب مبني على ما تقدم من أن حكم الآية لم ينسخ بالكلية إنما خصص فقط، وهناك جواب آخر مبني على أن حكم الآية نسخ بالكلية، وإنما استفاد ابن عباس ومن معه ثبوت الحكم في حق الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة والحامل والمرضع، استفادوا الحكم من السنة لأن مثله لا يقال بالرأي.

انظر إرواء الغليل ٢٢/٤-٢٥.

(٤) روح المعاني ٥٩/٢.

(٥) تفسير الطبري (دارالفكر) ١٣٢/٢.

من عند الله ولا يعترض على ما قد ثبت وقامت به حجة أنه من عند الله بالآراء والظنون والآقوال الشاذة» اهـ (١).

قلت : نحن نجزم بأن هذه القراءات الشاذة ليست من الحرف الذي جمع عثمان رضي الله عنه عليه الناس، ولكن لا نجزم بأنها ليست من باقي الأحرف السبعة، ولا بأنها منها بل نتوقف في ذلك وهذا هو مذهب الطبري الذي صرح به في كتاب القراءات له، نقل عبارته في ذلك مكي بن أبي طالب القيسي (٢) (ت ٤٣٧هـ) رحمهم الله.

(١) تفسير الطبري (دار الفكر) ١٤١/٢.
(٢) الإبانة ص ٦٠.

الموضع الخامس :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ...﴾ البقرة: ١٩٦.

هكذا قرأ عامة العشرة : ﴿والْعُمْرَةَ﴾ بالنصب .

وقرأ الأصمعي عن نافع، والقزاز عن أبي عمرو، والكسائي عن أبي جعفر: «والعمرة» برفعها، وهي قراءة ابن مسعود بخلف عنه وأبي رزين والحسن والشعبي (١).

وقرأ ابن مسعود : «وأتموا الحج والعمرة إلى بيت الله» (٢).

وقرأ علقمة : «وأقيموا الحج والعمرة لله» (٣).

وقرأ علي بن أبي طالب وابن مسعود : «وأقيموا الحج والعمرة للبيت» (٤).

وقرأ ابن مسعود : «وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت لله» (٥).

عن إبراهيم عن علقمة : ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ قال هو في قراءة عبد الله: «وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت» قال: لا تجاوزوا بالعمرة البيت.

قال إبراهيم : فذكرت ذلك لسعيد بن جبير فقال: كذلك قال ابن عباس (٦).
عن علي : «أنه قرأ: «وأقيموا الحج والعمرة للبيت» ثم قال: هي واجبة مثل الحج» (٧).

عن يزيد بن معاوية قال: إني لفي المسجد زمن الوليد بن عقبة في حلقة

(١) زاد المسير ٢٠٤/١ تفسير القرطبي ٣٦٩/٢ البحر المحيط ٧٢/٢ الدر المنثور ٥٠٢/١-٥٠٤.

(٢) تفسير القرطبي ٣٦٩/٢ البحر المحيط ٧٢/١ الدر المنثور ٥٠٢/١.

(٣) البحر المحيط ٧٢/١.

(٤) الدر المنثور ٥٠٣/١.

(٥) تفسير القرطبي ٣٦٩/٢ البحر المحيط ٧٢/١.

(٦) إسناده صحيح .

أخرجه الطبري (شاكراً) ٧/٤ وأبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٣٦ تحت رقم (٥٦٤).
وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥٠٢/١ إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري.

وقع في المطبوعة من كتاب «فضائل القرآن» لأبي عبيد (على الآلة الكاتبة) قوله تعالى ﴿وَأَتِمُّوا...﴾ بدلاً من: «وأقيموا...» ولعل الصواب - إن شاء الله - : «وأقيموا» كما في تفسير الطبري والدر المنثور والله أعلم.
(٧) إسناده ضعيف .

أخرجه الطبري (شاكراً) ١٢/٤.

وفي السند ثوير بن أبي فاختة قال في التقريب ص ١٣٥ : «ضعيف رمي بالرفض» اهـ.
وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥٠٣/١ إلى عبد بن حميد .

فيها حذيفة وليس إذ ذاك حجرة و لاجلاوزة(١) إذ هتف هاتف من كان يقرأ قراءة أبي موسى فليأت الزاوية التي عند أبواب كندة، ومن كان يقرأ على قراءة عبدالله بن مسعود فليأت هذه الزاوية التي عند دار عبدالله. واختلفا (يعني عبدالله بن مسعود وأباموسى) في آية من سورة البقرة قرأ هذا: «وأتموا الحج والعمرة للبيت» وقرأ هذا: «وأتموا الحج والعمرة لله».

فغضب حذيفة واحمرت عيناه ثم قام - وذلك زمن عثمان - فقال: إما أن تركب إلى أمير المؤمنين وإما أن أركب؛ فهكذا كان من قبلكم، ثم أقبل فجلس فقال: إن الله بعث محمدا فقاتل بمن أقبل من أدبر حتى أظهر الله دينه ثم إن الله قبضه فطعن الناس في الإسلام طعنة جواد، ثم إن الله استخلف أبا بكر وكان ما شاء الله، ثم إن الله قبضه فطعن الناس في الإسلام طعنة جواد، ثم إن الله استخلف عمر فنزل وسط الاسلام، ثم إن الله قبضه فطعن الناس في الإسلام طعنة جواد، ثم إن الله استخلف عثمان وأيم الله ليوشكن أن تطعنوا فيه طعنة تحلقونها له(٢).
عن ابن مسعود : «أنه قرأ: «وأقيموا الحج والعمرة للبيت» ثم قال:

(١) الجلاوزة حملة السوط، وهو اسم يطلق على رجال الشرطة في ذلك العصر لأنهم يحملون في أيديهم الأسواط، وجلز السوط مقبضه عند قبيعته، ويفهم هذا المعنى من مراجعة لسان العرب ٣٢٢/٥.
(٢) حسن لغيره .

أخرجه ابن أبي داود في المصاحف ص ١٨.
وفي السند عنده: «عبدالله بن عبدالمك بن أبجر»، لم أجد له ترجمة وغلب على ظني وجود تصحيف في الاسم والصواب: «عبدالرحمن بن عبدالمك بن أبجر» إذ يروي عنه يحيى بن عبدالرحمن الأرحبي كما في التهذيب ٢٥٠/١١ وهو صدوق ربما أخطأ كما في التقريب ص ٥٩٣؛ فإن صح ذلك فالاسناد حسن إن شاء الله والا فضعيف.
وبمراجعة مخطوطتي كتاب المصاحف (نسخة تشستريتي ٣٥٨٦ لوحة ٧/أ، ونسخة الظاهرية ١١٩٨، ٤٠٧ لوحة ٧/ب) وجد فيهما كلاهما: «عبدالله بن عبدالمك بن أبجر» قاله أعلم بحقيقة الحال .
لكن هناك ما يشهد للأثر أنظر المصاحف لابن أبي داود ص ٢٠-٢١، وأورد بعضه الحافظ في الفتح ١٨/٩.
ويلاحظ ما يلي:

(١) وقع في المطبوعة من كتاب المصاحف ذكر الآية الأولى: «وأتموا الحج والعمرة للبيت» وكذا في المخطوطتين السابقتين وأثبت ما في الدر المنثور للسيوطي ٥٠٣/١.

(٢) وقع في المطبوعة في آخر الأثر قوله في آخره... طعنة تخلفونه كله» وأثبت ما في الدر المنثور.

والله لولا التحرج أني لم أسمع فيها من رسول الله ﷺ شيئاً لقلنا: إن العمرة واجبة مثل الحج» (١).

معنى القراءات :

معنى قراءة عامة العشرة : ﴿الْعُمْرَةُ﴾ بالنصب مفعول به لـ ﴿أَتَمُّوْا﴾ والمعنى: يأمر الله الناس باتمام الحج والعمرة.

معنى القراءة : «العمرة» بالرفع يأمر الله باتمام الحج ثم يستأنف كلام جديد يخبر الله عزوجل فيه بأن العمرة لله.

معنى القراءة بـ ﴿أَتَمُّوْا﴾ فيه أربعة أقوال :

الأول : أن معنى إتمامها أن يفصل بينهما فيأتي بالعمرة في غير أشهر الحج، قاله عمر بن الخطاب والحسن وعطاء .

الثاني : أن يحرم الرجل من دويرة أهله قاله علي بن أبي طالب وطاووس وابن جبير.

الثالث : أنه إذا شرع في أحدهما لم يفسخه حتى يتم، قاله عبد الله بن عباس.

الرابع : أنه فعل ما أمر الله فيهما، قاله مجاهد (٢).

قال أبوحيان (ت٧٥٤هـ) : «الاتمام ضد النقص والمعنى: افعلوهما كاملين ولا تأتوا بهما ناقصين شيئاً من شروطهما وأفعالهما التي تتوقف وجود ماهيتهما عليهما... هذا ظاهر اللفظ» اهـ (٣).

ومعنى القراءة بـ «أقيموا الحج والعمرة» أي: أديموا فعلهما وحافظوا عليهما.

والقيام والقوام اسم لما يقوم به الشيء، أي: يثبت كالعماد والسناد لما يعمد ويسند به (٤).

(١) إسناده ضعيف .

أخرجه الطبري في تفسيره (شاکر) ١٣/٤ وابن أبي داود في المصاحف ص٦٦ والبيهقي في السنن الكبرى ٣٥١/٤.

ومدار السند عندهم على ثوير بن أبي فاختة قال في التقريب ص١٣٥: «ضعيف رمي بالرفض» اهـ.

وعزه السيوطي في الدر المنثور ٥٠٤/١ إلى عبد بن حميد .

(٢) زاد المسير ٢٠٤/١ تفسير القرطبي ٣٦٥-٣٦٦/٢ البحر المحيط ٧٢/٢.

(٣) البحر المحيط ٧١/٢-٧٢.

(٤) انظر المفردات ص٤١٦-٤١٧.

حاصل القراءات :

قال الماتريدي (ت ٣٣٣هـ) : «إنما قال: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ لأن الكفرة كانوا يفعلون الحج لله والعمرة للصنم» اهـ (١).

قلت : فالقراءة المتواترة بنصب (العمرة) أفادت مجرد الأمر باتمام الحج والعمرة بعد الشروع فيهما لله تعالى، والمفعول لأجله ﴿لِلَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿وَأَتِمُّوا﴾ وفيها إشارة إلى ما كان يفعله بعض المشركين من الحج والعمرة للأصنام.

وقد أفادت وجوب اتمام الحج والعمرة بعد الشروع فيهما. والقراءة الأحادية برفع «العمرة» أفادت الأمر باتمام الحج ثم استئناف كلام جديد يخبر الله تعالى بأن العمرة لله، وهو خبر بمعنى الأمر ليفيد مزيد الاهتمام بالعمرة فلا تصرف إلا لله لأن بعض المشركين كان يحج لله ويعتمر للصنم كما قال الماتريدي في كلامه السابق والله أعلم.

والقراءة الشاذة: «أقيموا الحج والعمرة» فسرت الالتزام في القراءة المتواترة بأنه على ظاهره، وأن المراد بـ ﴿وَأَتِمُّوا﴾ أي: أفعلوها كاملين ولا تأتوا بهما ناقصين شرطاً من شروطهما وأفعالهما التي تتوقف وجود ماهيتهما عليهما، وهي بهذا لا تتعارض مع ما أفادته القراءة المتواترة إنما تتكامل معها في أداء المعنى فيكون كلا المعنيين مراداً.

والقراءة الشاذة: «أقيموا الحج والعمرة إلى البيت لله» والأخرى : «... للبيت» أفادت التنصيص على قصد بيت الله الحرام بالحج والعمرة لا الأصنام ولا غيرها تأكيداً على مغايرة حال المشركين والله أعلم. ويلاحظ مايلي :

(١) قال أبوحيان (ت ٧٥٤هـ) بعد إيراده للقراءات الشاذة السابقة: «وينبغي أن يحمل هذا كله على التفسير لأنه مخالف لسواد المصحف الذي أجمع عليه المسلمون» اهـ (٢).

(٢) قال ابن الجوزي (ت ٩٧٧هـ): «قراءة الجمهور تدل على وجوبها (يعني: العمرة)». اهـ (٣).

قال القرطبي (ت ٦٧١هـ): «وقرأ الشعبي وأبو حيوة برفع التاء في

(١) بواسطة البحر المحيط ٧٢/٢.

(٢) البحر المحيط ٧٢/٢.

(٣) زاد المسير ٢٠٤/١.

الموضع السادس :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ البقرة: ٢١٠.

تنوعت القراءات في قوله : ﴿... وَالْمَلَائِكَةُ﴾ :

فقرأ أبو جعفر: ﴿... وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بالخفض .

وقرأ الباقر من العشرة : ﴿... وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بالرفع (١).

وقرأ أبي وابن مسعود: «هل ينظرون الا أن يأتيهم الله والملائكة في

ظلل من الغمام» (٢).

وقرأ معاذ: «... وقضاء الأمر وإلى الله ترجع الأمور» (٣).

عن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال في قراءة أبي بن كعب : «هل

ينظرون الا أن يأتيهم الله والملائكة في ظلل من الغمام» قال : «تأتي

الملائكة في ظلل من الغمام ويأتي الله عزوجل فيما شاء» (٤).

معنى القراءات :

قراءة أبي جعفر: ﴿... وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بالخفض تحتل في المعنى وجهين :

الأول : أن تكون معطوفة على قوله : ﴿ظُلُلٌ﴾ فيكون التقدير: هل

ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام وفي الملائكة وقضي الأمر....

الثاني : أن تكون معطوفة على قوله: ﴿مِنَ الْغَمَامِ﴾ فيكون التقدير هل

ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ومن الملائكة وقضي الأمر....

(١) المبسوط ص ١٢٩ النشر ٢٢٧/٢ الإتحاف ص ١٥٦.

وقسّع في المبسوط نسبة هذه القراءة : ﴿... وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بالخفض لـ«أبي عمرو وحده» هكذا وهو تصحيف أو خطأ مطبعي صوابه: «لأبي جعفر وحده» كما صرح صاحب المبسوط نفسه في كتابه الغاية ص ١١٣.

(٢) تفسير الطبري (شاکر) ٢٦١/٤ البحر المحيط ١٢٥/٢ الدر المنثور ١/٨٠٥.

(٣) البحر المحيط ١٢٥/٢.

(٤) إسناده حسن .

أخرجه الطبري في تفسيره (شاکر) ٢٦١/٤ واللفظ له، والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٤٦٥ بنحوه كلاهما من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية.

وأبو جعفر الرازي صدوق سيء الحفظ خصوصا عن المغيرة كما في التقريب ص ٦٢٩ هـ. وأبو العالية هو الرياحي ثقة كثير الإرسال يروي عن أبي ابن كعب. تهذيب التهذيب ٢٨٤/٣ التقريب ص ٢١٠.

وعزاه السيوطي في الدر المنثور ١/٨٠٥ إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

«العمرة» وهي تدل على عدم الوجوب» اهـ (١). قلت : لا يظهر في الآية على قراءة : ﴿وَأَتِمُّوا﴾ دليل وجوب العمرة، لأن الله عزوجل إنما قرنهما بالحج في وجوب الاتمام لا في الابتداء . وعلى قراءة : «وأقيموا الحج والعمرة» يكون في الآية دليل ظاهر على الوجوب - والله أعلم - ولذلك قال ابن مسعود فيما يروى عنه - إن صح - : «أمرتم بإقامة أربع : أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت، والحج: الحج الأكبر، والعمرة: الحج الأصغر» (٢). وممن ذهب إلى وجوب العمرة علي بن أبي طالب وابن عمر وابن عباس والحسن وابن سيرين وعطاء وطاووس وسعيد بن جبيرة ومجاهد وأحمد والشافعي والثوري والأوزاعي وإسحاق وداود. وذهب أبو حنيفة ومالك إلى أنها سنة وتطوع (٣).

(١) تفسير القرطبي ٣٦٩/٢.

(٢) إسناده ضعيف.

أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٣٥١/٤ وأبو القاسم الأصبهاني في كتاب «الترغيب والترهيب» ٤٣٣/١-٤٣٤ كلاهما من طريق الفضل بن العلاء عن أشعث بن سوار عن أبي إسحاق عن مسروق عن ابن مسعود.

والفضل هو أبو العباس ويقال أبو العلاء الكوفي صدوق له أوهام كما في التقريب ص ٤٤٦، وأشعث بن سوار هو الكندي ضعيف كما قال في التقريب ص ١١٣. وعزاه في الدر المنثور ٥٠٣/١ إلى ابن مردويه.

في نسخة ما يلي :

(١) وقع في السند عند أبي القاسم الأصبهاني مطبوعة كتابه «الترغيب والترهيب» ٤٣٤/١ : «أبو بكر عن نافع» وهو خطأ صوابه : «أبو بكر بن نافع» كما عند البيهقي في السنن الكبرى ٣٥١/٤.

(٢) وقع في المتن في مطبوعة الترغيب والترهيب ٤٣٤/١ : «... وأتموا الحج والعمرة...» وهو خطأ صوابه : «وأقيموا الحج والعمرة» كما عند البيهقي وكما في الدر المنثور ٥٠٣/١ وليتفق أول الكلام وآخره و يتفق مع القراءة المروية عنه.

(٣) معجم فقه السلف ٨٢/٤-٨٣.

وانظر في مسألة حكم العمرة : الأم ١٣٢/٢ بدائع الصنائع ٢٢٦/٢ المغني في الفقه ٢٢٣/٣ تفسير القرطبي ٣٦٨/٢ المجموع شرح المذهب ٣/٧ فتح القدير لابن الهمام ١٣٩/٣ المبدع شرح المقنع ٨٣/٣-٨٤ الدر الثمين ص ٣٨٦ الفواكه الدواني ٤٣٧/١ نيل الأوطار ٣/٥ أضواء البيان ٦٥١/٥.

قراءة الجمهور: ﴿... وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بالرفع، معطوفة على لفظ الجلالة والتقدير هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام وتأتيهم الملائكة وقضي الأمر، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿فِي ظِلِّ﴾ مضافا إلى الملائكة فقط، والإتيان مضاف إلى الله.

قراءة ابن مسعود: «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة في ظلل من الغمام»، فيكون المضاف إلى الله تعالى هو الإتيان فقط.

ومعنى قراءة معاذ: «... وقضاء الأمر» تكون معطوفة على: ﴿... وَالْمَلَائِكَةُ﴾ والتقدير: ... في ظلل من الغمام وفي الملائكة وفي قضاء الأمر، و﴿فِي﴾ على هذا بمعنى الباء، أي: بظلل من الغمام وبالملائكة وبقضاء الأمر (١).

حاصل القراءات :

أثبتت القراءات إتيان الله سبحانه وتعالى، وبينت أنه سبحانه يأتي في ظلل من الغمام ومن الملائكة.

وأثبتت القراءة الشاذة إتيانه سبحانه وتعالى، وأضافت قوله: ﴿فِي ظِلِّ﴾ من الغمام للملائكة، وذلك - والله أعلم - لبيان أن لله عز وجل الإتيان فيما شاء كما يشاء، وهو ما نبه إليه أبو العالية فيما سيأتي عنه - إن شاء الله - . قال ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) : «اختلف أهل التأويل في قوله: ﴿ظِلِّ﴾ من الغمام» وهل هو من صلة فعل الله جل ثناؤه أو من صلة فعل (الملائكة) ومن الذي يأتي فيها ؟.

فقال بعضهم : هو من صلة فعل الله، ومعناه: هل ينظرون إلا يأتيهم الله في ظلل من الغمام، وأن تأتيهم الملائكة، قال ذلك مجاهد وقتادة وعكرمة . وقال آخرون : بل قوله: ﴿فِي ظِلِّ مِنَ الْغَمَامِ﴾ من صلة فعل الملائكة وإنما تأتي الملائكة فيها، وأما الرب تعالى ذكره فإنه يأتي فيما يشاء، قال ذلك الربيع بن أنس.

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين بالصواب في ذلك تأويل من وجه قوله : ﴿فِي ظِلِّ مِنَ الْغَمَامِ﴾ إلى أنه من صلة فعل الرب عز وجل وأن معناه: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام وتأتيهم الملائكة؛ لما جاء عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : «إِنَّ مِنَ الْغَمَامِ طَاقَاتٍ يَأْتِي فِيهَا اللَّهُ مُحْفُوفًا وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ

(١) البحر المحيط ١٢٥/٢.

الأمْرُ. (١). اهـ (٢).

وتلاحظ الأمور التالية :

(١) مَنْ قال أن قوله : ﴿فِي ظِلِّ مِنَ الْغَمَامِ﴾ من صلة فعل الله عزوجل فقوله صواب على قراءة، ومن قال: هو من صلة فعل الملائكة فقوله صواب على قراءة، ولا منافاة بين القولين بل القراءة التي أفادت أنه من صلة فعل الملائكة أستفيد منها التنبيه على أن لله الإتيان فيما شاء كما يشاء سبحانه وتعالى والله أعلم .

(٢) وصف الله عزوجل نفسه بالآتيان في ظل من الغمام كوصفه سبحانه بالمجيء في آيات أخر، ونحوها مما وصف به نفسه في كتابه أو وصفه به رسوله ﷺ، والقول في جميع ذلك من جنس واحد وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفونه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، والقول في صفاته سبحانه وتعالى كالقول في ذاته، والله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته (٣).

(١) حديث ضعيف .

أخرجه الطبري في تفسيره (شاكر) ٢٦٤/٤-٢٦٥ والديلمي في فردوس الأخبار ٢٥٨/١ ولم يذكر سنده، لكن قال ابن حجر في تسديد القوس: «أسنده عن ابن عباس» اهـ وفي السند عند الطبري زمعة بن صالح الجندي قال في التقريب ص ٢١٧ : «ضعيف» اهـ وضعف الحديث الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه لتفسير الطبري .

وقال السيوطي في الدر المنثور ٥٨٠/١ : «أخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية قال : «يأتي الله يوم القيامة في ظلل من السحاب قد قطعت طاقات» اهـ

قال الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه لتفسير الطبري ٢٦٥/٤ : «ولعله موقوفاً أشبه بالصواب» اهـ

(٢) تفسير الطبري (شاكر) ٢٦٣/٤-٢٦٥ باختصار وتصرف .

(٣) محاسن التأويل ١٧٨/٣ .

الموضع السابع :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما آثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما، ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ البقرة: ٢١٩.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿آثم كبير﴾ :

فحمزة والكسائي بالثاء المثلثة: ﴿آثم كثير﴾ ووافقهما الأعمش.

وقرأ باقي العشرة: ﴿آثم كبير﴾ بالموحدة (١).

معنى القراءات :

قراءة حمزة والكسائي: ﴿آثم كثير﴾ من الكثرة، وذلك أن الخمر تحدث مع شربها آثام كثيرة من لغط وتخليط وسب وأيمان، وعداوة وخيانة، وتفريط في الفرائض وفي ذكر الله وفي غير ذلك، فوصف بالكثرة (٢).

قال أبو حيان (ت: ٧٥٤هـ): «وصف الآثم بالكثرة؛ إما باعتبار الآثمين فكأنه قيل فيه: للناس آثام، أي: كل واحد من متعاطيها آثم، أو باعتبار ما يترتب على شربها مما يصدر من شاربها من الأفعال والأقوال المحرمة، أو باعتبار من زاولها من لدن كانت إلى أن بيعت وشريت فقد «لعن رسول الله ﷺ الخمر ولعن معها عشرة بائعها ومبتاعها والمشتراة» (أي: له) وعاصرها ومعتصرها والمعصورة له وساقياها وشاربها وحاملها والمحمولة له وأكل ثمنها» (٣) فناسب وصف الآثم بالكثرة بهذا الاعتبار اهـ (٤).

(١) الميسوط ص ١٣٠ النشر ٢٢٧/٢ الاتحاف ص ١٥٧.

(٢) الكشف ٢٦١/١.

(٣) حديث صحيح لغيره عن ابن عمر.

أخرجه أبوداود في كتاب الأشربة باب لعنت الخمر من عشرة أوجه والطحاوي في مشكل الآثار ٣٠٥/٤-٣٠٦ مطولا، والحاكم في المستدرک ٣٢/٢ والبيهقي في السنن الكبرى ٢٨٧/٨. والحديث صححه الألباني في إرواء الغلیل ٣٦٥/٥-٣٦٧ وغاية المرام ص ٥٤ وحسنه محقق جامع الأصول ١٠٤/٥.

ولفظ الحديث عند ابن ماجه عن ابن عمر يقول: «قال رسول الله ﷺ: «لعنت الخمر على عشرة أوجه: بعينها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه، وأكل ثمنها وشاربها وساقياها...».

وأخرجه ابن ماجه وغيره عن أنس ولفظه: «قال رسول الله ﷺ: «في الخمر عشرة: عاصرها ومعتصرها والمعصورة له وحاملها والمحمولة له، وبائعها والمبيوعة له وساقياها والمستقاة له حتى عد عشرة من هذا الضرب».

وهو حديث حسن عن أنس أخرجه ابن ماجه في كتاب الأشربة باب لعنت الخمر على عشرة أوجه حديث رقم (٣٣٨١) وأخرجه الترمذي في كتاب البيوع باب النهي عن أن يتخذ الخمر خلا حديث رقم (١٢٩٥) وحسنه محقق جامع الأصول ١٠٤/٥.

(٤) البحرالمحيط ١٥٧/٢-١٥٨.

معنى قراءة الباقيين: ﴿إثم كبير﴾ من الكبر على معنى: العظم أي: فيهما
إثم عظيم.

قال مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ): «اجمعوا على أن شرب الخمر من
الكبائر فوجب أن يوصف إثمها بالكبر» اهـ (١).
حاصل القراءات :

تأكيد تحريم الخمر لعظم إثمها، وكثرة آثامها، ولذلك كانت من الكبائر بل
أمرها جميعاً.
ويلاحظ مايلي :

(١) أن القراءتين المذكورتين متواترتان فهما قرآن بالاجماع،
ويحتملها رسم المصحف.

(٢) قال أبوحيان (ت ٧٥٤هـ): «ذكر بعض الناس ترجيحاً لكل قراءة
من هاتين القراءتين على الأخرى، وهذا خطأ؛ لأن كلا من القراءتين كلام
الله تعالى، فلا يجوز تفضيل شيء منه على شيء من قبل أنفسنا إذ كله كلام
الله تعالى» اهـ (٢).

قلت : صدق رحمه الله وجعل الجنة مثواه، وقد سبق التنبيه إلى هذا (٣)
ولله الحمد.

(١) الكشف ٢٩١/١.

(٢) البحر المحیط ١٥٨/٢.

(٣) في المدخل لهذا القسم ص ٣١٨-٣١٩.

الموضع الثامن :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا
النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ
أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة: ٢٢٢ .
تنوعت القراءات في قوله: ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ :

فقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص عن عاصم ويعقوب
وأبو جعفر ﴿يَطْهُرْنَ﴾ بسكون الطاء وضم الهاء مخففة.
وقرأ عاصم في رواية أبي بكر والمفضل وحمزة والكسائي وخلف
﴿يَطْهُرْنَ﴾ مشددة الطاء والهاء مفتوحة.
وهذه قراءات متواترة (١).

معنى القراءات :

قراءة التخفيف: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ أي: ينقطع الدم عنهن
فيكون المعنى نهى الله عباده عن قرب الحائض حتى ينقطع دم الحيض؛
فجعل انقطاع دم الحيض غاية النهي عن قربانهن (٢).
وقراءة التشديد: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ أي: يستعملن الماء بأن
تغسل موضع الدم منها فقط، أو تتوضأ أو تغتسل أي: ذلك فعلت جاز لها،
وأباح لزوجها قربانها (٣).

حاصل القراءات :

عدم جواز قربان المرأة حتى ينقطع عنها دم الحيض، وحتى تغسل
موضع الدم منها بالماء، أو تتوضأ، أو تغتسل.
ويؤكد هذا ويعضده؛ أنه لازم قوله تعالى عقب هذا الموضع مباشرة ﴿فَإِذَا
تَطَهَّرْنَ﴾ وقد أجمع القراء على قراءته هنا بالتشديد إذ سياق الآية
﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ (٤).
فأفادت قراءة التشديد رفع توهم جواز اتيان الحائض إذا ارتفع عنها
الدم وإن لم تطهر بالماء.
ونبهت الآية بالقراءات إلى أن من انقطع عنها دم الحيض في حكم

(١) السبعة ص ١٨٢ المبسوط ص ١٣٠ النشر ٢/٢٢٧.

(٢) معاني القرآن للفراء ١٤٣/١ تفسير الطبري (دارالفكر) ٢/٣٨٥.

(٣) معاني القرآن للنحاس ١٨٣/١ تفسير الطبري (دارالفكر) ٢/٣٨٥.

(٤) تفسير الزمخشري ١٣٤/١ تفسير الرازي ٦٨/٦ تفسير البيضاوي ص ٤٨.

الحائض مالم تطهر، وهي ممنوعة من الصلاة ما لم تتطهر، ولزوجها مراجعتها مالم تطهر بالماء(١).

وتلاحظ الأمور التالية :

(١) أكثر الفقهاء على : أن المرأة إذا انقطع حيضها لا يحل لزوجها مجامعتها الا بعد أن تستعمل الماء ، وهذا قول مالك والأوزاعي والشافعي والثوري(٢) وأحمد بن حنبل(٣).

والمشهور عن أبي حنيفة : أنه اذا انقطع دمها دون العشرة فهي في حكم الحائض حتى تغتسل اذا كانت واجدة للماء أو يمضي عليها وقت الصلاة فاذا كان أحد هذين خرجت المرأة من الحيض وحل لزوجها وطؤها وانقضت عدتها ان كانت آخر حيضة.

وإذا كانت أيامها عشرة ارتفع حكم الحيض بمضي العشرة وجاز وطؤها وتكون حينئذ في حكم المرأة الجنب يباح وطء زوجها لها، وتنقضي عدتها وغير ذلك(٤).

(١) وهذا قول عمر بن الخطاب وعبادة بن الصامت وأبي الدرداء وقال الشعبي: «روى ذلك عن ثلاثة عشر من الصحابة منهم أبوبكر وعمر وابن مسعود وابن عباس» الكشف ٢٩٤/١.

(٢) تفسير القرطبي ٨٨/٣ تفسير الرازي ٦٨/٦.

(٣) مختصر الخرقى ص ٢١ المبدع في شرح المقنع ٢٦٢/١.

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٣٤٨/١.

فائدة : اختلف في المطلقة هل يقف انقضاء عدتها على اغتسالها من الحيضة الثالثة؟ على ثلاثة أقوال: أحدها: لا تنقضي عدتها حتى تغتسل وهذا هو المشهور عن أكابر الصحابة، قال الامام أحمد: «وعمر وعلي وابن مسعود يقولون: له رجعتها قبل أن تغتسل من الحيضة الثالثة» هـ وروي ذلك عن أبي بكر الصديق وعثمان بن عفان وأبي موسى وعبادة وأبي الدرداء ومعان بن جبل رضي الله عنهم، وهو قول سعيد بن المسيب والثوري واسحاق بن راهوية . والثاني: أنها تنقضي بمجرد طهرها من الحيضة الثالثة، و لا تقف على الغسل، وهذا قول ابن جبير والأوزاعي والشافعي في قوله القديم واحدى الروايات عن أحمد واختارها أبو الخطاب. والثالث: أنها في عدتها بعد انقطاع الدم، ولزوجها رجعتها حتى يمضي عليها وقت الصلاة التي طهرت في وقتها وهذا قول للثوري ورواية عن أحمد وهو قول أبي حنيفة، لكن إن انقطع الدم لأقل الحيض، وإن انقطع الدم لأكثره انقضت العدة عنها بمجرد انقطاعه. انظر زاد المعاد ٦٠٢/٥-٦٠٣.

وسبب الخلاف (١) : أن أباحنيفة رحمه الله حمل قراءة التخفيف على انقطاع الدم لأكثر الحيض وقراءة التشديد على انقطاعه لدونه وحمل قراءة التشديد على قراءة التخفيف؛ فقله : ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ بالتخفيف وبالتشديد معناه: انقطاع الدم (٢).

وهذا الذي نقل عن أبي حنيفة يرحمه الله استغربه الكيا الهراسي (٣) (ت ٥٠٤هـ) وعده الكرمانى (ت في القرن السادس) من غرائب التفسير وعجائب التأويل (٤)، وقال القرطبي (ت ٦٧١هـ) عنه: «هذا تحكم لا وجه له» اهـ (٥) واستغربه السيوطي (ت ٩١١هـ) جدا (٦).

ووجه ذلك : أن الله تبارك وتعالى اشترط لحل اتیان النساء شرطا زائدا على مجرد انقطاع الحيض وهو أن يتطهرن بالماء، فلا يجوز الغاء هذا الشرط أو تخصيصه بما اذا انقطع الحيض قبل العشرة أيام، وانما هو رأي لأبي حنيفة رحمه الله بدا له، لايجوز لنا الأخذ به لمخالفته اطلاق الآية، وهو رحمه الله تعالى قد قال فيما صح عنه: «لا يحل لأحد أن يأخذ يقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه، فإننا بشر نقول القول اليوم ونرجع عنه غدا» (٧).

فكيف يجوز لنا الأخذ بقوله هذا، وهو مخالف لظاهر الآية؟
ثم لا دليل على قوله يلزم المصير إليه .

وقد بين الكيا الهراسي (٥٠٤هـ) رحمه الله ذلك بيانا شافيا حيث قال بعد أن ذكر ما نقل عن أبي حنيفة رضي الله عنه: «وهذا قول بعيد وأقل ما فيه اخراج قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ عن كونه حقيقة في الاغتسال اذا حمل على انقطاع الدم على الأكثر، وحمله على حقيقته في الاغتسال اذا كان انقطاع الدم على مادون الأكثر، وذلك بعيد جدا .

ولأن الآية لو كانت متناولة للحالين كان تقدير الكلام : ﴿حَتَّى يَغْتَسِلْنَ﴾ في آية، «ولا يغتسلن» في آية أخرى أو قراءة أخرى، ويكون ذلك المحيط

(١) تفسير آيات الأحكام للسايس ١/١٣٠ روائع البيان ١/٣٠١-٣٠٢.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ١/٣٤٩، ٣٥٠.

(٣) أحكام القرآن للهراسي ١/١٣٩.

(٤) غرائب التفسير وعجائب التأويل ١/٢١٣.

(٥) تفسير القرطبي ٣/٨٩.

(٦) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٣٦.

(٧) أخرجه عنه ابن عبد البر في «الإنتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء» ص ١٤٥ وبنحوه

في ترتيب تاريخ ابن معين ص ٦٠٧ وانظر صفة صلاة النبي ﷺ للألباني ص ٢٤.

متناولاً لهما جميعاً، ولا يكون فيه بيان المقصود، فيكون مجملاً غير مفيد للبيان. ولأنه إذا كانت قراءة التشديد حقيقة في الاغتسال وقد حملوها على انقطاع الدم فيما دون الأكثر؛ فيجب أن يتوقف الحل فيه على الاغتسال وقد قالوا: «إذا دخل وقت الصلاة وإن لم تغتسل حل للزوج وطؤها» فجعلوا وجوب الصلاة والصوم مجوزاً للوطء ولم يجعلوا وجوب الغسل مجزواً. فإن حملوا قراءة التشديد على الغسل لزمهم أن يوقفوا الحل على الغسل، فلا هم عملوا بقراءة التخفيف ولا بقراءة التشديد. وإن موهوا باعتذارات في وجوب الصلاة فلا أثر لها في إخراج قراءة التشديد عن كونها حقيقة» اهـ (١).

قلت: ويؤكد صحة ما عليه الجمهور أن قراءة التخفيف: ﴿يَطْهَرْنَ﴾ من الفعل الثلاثي «طهر» وهو ثلاثي لازم يستعمل فيما لا كسب فيه للإنسان وهو انقطاع دم الحيض هنا، وقراءة التشديد ﴿يَطْهَرْنَ﴾ على صيغة «تفعل» لأن أصلها «يتطهرن» أدغمت التاء في الطاء، وهذه الصيغة تستعمل فيما يحصل بكسب الإنسان ومباشرته له، وهي هنا تدل على استعمال الماء (٢).

(٢) أن المرأة إذا انقطع عنها الدم لم يحل لزوجها وطؤها حتى تستعمل الماء فتغسل موضع الدم أو تتوضأ أو تغتسل؛ لأن اسم «التطهر» يقع على كل من هذه الأمور الثلاثة.

قال ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ): «اختلف في التطهر الذي عناء الله تعالى ذكره فأحل له جماعها فقال بعضهم هو الاغتسال بالماء، ولا يحل لزوجها أن يقربها حتى تغسل جميع بدنها.

وقال بعضهم: هو الوضوء للصلاة.

وقال آخرون: بل هو غسل الفرج؛ فإذا غسلت فرجها فذلك تطهرها الذي يحل به لزوجها غشيانها» اهـ (٣).

قال ابن خزم (ت ٤٥٦هـ): «إن كل ما يقع عليه اسم الطهر بعد أن يطهرن فقد حللن به، والوضوء تطهر بلا خلاف، وغسل الفرج بالماء تطهر كذلك وغسل جميع الجسد تطهر، فبأي هذه الوجوه تطهرت التي رأت الطهر من الحيض

(١) أحكام القرآن للهراسي ١٣٩/١-١٤٠.

(٢) حجة القراءات ص ١٣٥ شذا العرف ص ٣٢ تفسير السائيس ١٣٠/١.

(٣) تفسير الطبري (دار الفكر) ٣٨٥/٢.

فقد حل به لنا إتيانها وبالله تعالى التوفيق» اهـ (١).
قلت : القول بأن تطهر المرأة بعد انقطاع الدم يكون بغسل موضع الدم أو بالوضوء أو بغسل جميع بدنها أي ذلك فعلت حلت لزوجها مروي عن عطاء وقتادة فقالا جميعا في الحائض إذا رأت الطهر فإنها تغسل فرجها ويصيبها زوجها.

وعن عطاء : إذا رأت الطهر فتوضأت حل وطؤها لزوجها (٢).
وهو قول الأوزاعي (٣).

وهو قول ابن حزم وقال: «وهو قول أبي سليمان وجميع أصحابنا» اهـ (٤).
قلت : وقد استعمل لفظ «التطهر» في السنة النبوية بمعنى: غسل موضع الدم في عدة نصوص منها:

ما جاء عن عائشة رضي الله عنها - أن امرأة سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض؟ فأمرها كيف تغتسل.

قال : خذي فرصة من مسك فتطهري بها.

قالت : كيف أتطهر؟ قال: تطهري بها.

قالت: كيف؟ قال: سبحان الله تطهري.

قالت عائشة: فاجتذبتها إلي فقلت: تتبعني بها أثر الدم» (٥).

قال الشيخ الألباني: «وبالجملة فليس في الدليل ما يحصر معنى قوله عزوجل: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ بالغسل فقط، فالآية مطلقة تشمل المعاني الثلاثة السابقة فبأيها أخذت الطاهر حلت لزوجها ولا أعلم في السنة ما يتعلق بهذه المسألة سلبا أو إيجابا غير حديث ابن عباس مرفوعا: «إذا أتى أحدكم امرأته في الدم فليصدق بدينار، وإذا وطئها وقد رأت الطهر ولم تغتسل

(١) المحلى ٨٢/١٠.

(٢) المصنف لابن أبي شيبة ٩٦/١ المحلى ٨١/١٠ الدر المنثور ٦٢٤/١.

(٣) بداية المجتهد ٥٨/١.

(٤) المحلى ٨١/١٠.

(٥) و أبو سليمان هو داود بن علي بن خلف الأصبهاني الظاهري أحد أئمة المجتهدين في الاسلام (ت ٢٠١-٢٧٠هـ). الأعلام ٣٣٣/٢.
حديث صحيح .

أخرجه البخاري في كتاب الحيض باب ذلك المرأة نفسها إذا تطهرت من المحيض حديث رقم (٣١٤) ومسلم في كتاب الحيض باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك في موضع الدم حديث رقم (٣٣٢).

فليتصدق بنصف دينار» ولكنه حديث ضعيف....» اهـ (١).

(٣) قول عماد الدين ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) : «وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتيمم ان تعذر ذلك عليها بشرطه» اهـ (٢).

قلت : إن أراد بقوله: «حتى تغتسل» أي: استعمال الماء في الغسل أو الوضوء أو غسل المحل فلا اعتراض عليه.
وإن أراد بقوله: «حتى تغتسل» أي: تغسل جميع جسدها الغسل الشرعي فيعترض عليه بما يلي :

(أ) لا دليل في الشرع يدل على تعيين غسل جميع البدن من المرأة اذا انقطع حيضها لتحل لزوجها.

(ب) ما نقله من الاتفاق غير صحيح (٣) فقد نقلنا سابقا كلام ابن جرير الطبري (٣١٠هـ)، وكلام ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) في حكاية الخلاف في ذلك.

(١) وتمام كلامه: «فيه عبدالكريم بن أبي المخارق أبوأمية، وهو مجمع على ضعفه، ومن ظنه عبدالكريم الجزري أباسعيد الحراني الثقة فقد وهم كما حققته في صحيح سنن أبي داود رقم (٢٥٨) ثم إن في متنه اضطرابا يمنع من الاحتجاج به لوصح سننه فكيف وهو ضعيف؟» اهـ آداب الزفاف في السنة المطهرة ص ١٢٩.

قلت : والحديث ضعفه كذلك ابن حزم في المحلى ٨١/١٠ وأعله بالانقطاع.

(٢) تفسير ابن كثير ٢٦٠/١.

(٣) إن أراد به الاطلاق، أما إن أراد به خصوص المذاهب الأربعة ما عدا مذهب أبي حنيفة فقد يصح والله أعلم.

الموضع التاسع :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَاَمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِحِي بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمَّ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة: ٢٢٩.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ :

فقرأ أبو جعفر وحمزة ويعقوب: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ بضم الياء ووافقهم الأعمش.

وقرأ الباقر: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ بفتح الياء (١).

معنى القراءات :

القراءة بضم الياء ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ أي: إلا أن يخاف عدم إقامتهما لشرع الله، والفاعل محذوف وهو الأئمة والحكام أو المتوسطون بين الزوجين وإن لم يكونوا أئمة وحكاما (٢).

القراءة بفتح الياء: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ أي: إلا أن يخاف الزوج والزوجة عدم إقامتهما لشرع الله (٣).

حاصل القراءتين :

أنه يجوز للأئمة والحكام إذا خافوا أن لا يقيم الزوجان شرع الله أن يوقعا الخلع بين الرجل وامرأته - وإن لم يتراضيا عليه - كما يجوز للزوجين إذا خافا أن لا يقيما شرع الله المخالعة بما يتراضيا عليه.

فيكون في القراءة بضم الياء تنبيه إلى أن الأئمة والحكام أو المتوسطين بين الزوجين لهم أيقاع الخلع بين الزوجين إذا خافوا أن لا يقيما شرع الله.

وتلاحظ الأمور التالية :

(١) أن القراءتين مع اختلاف لفظهما ومعناها لم يتضادا ولم يتناقضا، فكل قراءة تصدق الأخرى وتضيف إليها معنى .

(١) المبسوط ص ١٣٠ النشر ٢٢٧/٢ الاتحاد ص ١٥٨.

وقرأ عبدالله بن مسعود: «إِلَّا أَنْ يَخَافُوا» المصاحف ص ٦٨ وهي راجعة في المعنى إلى القراءات المتواترة.

(٢) الكشف ٢٩٥/٢ حجة القراءات ص ١٣٥.

(٣) معاني القرآن الكريم للنحاس ٢٠٢/١ تفسير القرطبي ١٣٧/٣.

(٢) قال أبو عبيد مستدلاً بقراءة الضم: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَ﴾ : «في هذا حجة لمن جعل الخلع إلى السلطان» اهـ (١).

وقد قال بهذا الحسن وابن جبير وابن سيرين (٢).
قال شعبة : «قلت لقتادة: عن من أخذ الحسن قوله: «لا يكون الخلع دون السلطان»؟. فقال: أخذه عن زياد، وكان والياً لعمر وعلي رضي الله عنهما» (٣).
قلت: كذا قيل، وقد صح عن عمر (٤) وعثمان (٥) وابن عمر جوازه دون السلطان، وكما جاز الطلاق والنكاح دون السلطان (٦) فكذلك الخلع، وهو قول الجمهور من العلماء (٧)، وهذا المذهب الثاني.

والقراءة بالضم ليس فيها أنه لا يصح الخلع إلا بالسلطان وتوجيه القراءة بالضم ظاهر؛ لأنه لما قال : ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ وجب على الحكام منع من أراد أن يأخذ شيئاً من ذلك ثم قال: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَ﴾ فالضمير للزوجين والخائف محذوف وهم الولاة والحكام أو المتوسطون والتقدير إلا أن يخاف الأولياء الزوجين أن لا يقيما حدود الله فيجوز الاقتداء (٨).

ففي القراءة بالضم تنبيه إلى أنه ليس للحكام منع الخلع إذا كان يخشى من الزوجين عدم إقامة شرع الله ، لا أن لا يوقع عندئذ إلا بهم (أي: الحكام) والله أعلم .

(٣) ظاهر الآية أن الخلع إنما يجوز إذا خيف على الزوجين أو خافا أن لا يقيما حدود الله (٩).

فإذا كان الزوجان متراضيين على الخلع تم الخلع منهما بما تراضيا عليه، وهذا ما دلت عليه القراءة بالفتح ﴿يَخَافَا﴾.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣١٤/١.

(٢) المحلى ٢٣٧/١٠.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٢٠٣/١، ولم أقف على سند هذه الرواية.

(٤) علق ذلك عنه البخاري في كتاب الطلاق باب الخلع وكيف الطلاق. انظر فتح الباري ٣٩٤/٩.

(٥) موسوعة فقه عثمان بن عفان ص ١٦٢-١٦٣.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣١٤/١ تفسير القرطبي ١٣٨/٣.

(٧) تفسير القرطبي ١٣٨/٣.

(٨) البحر المحيط ١٩٨/٢.

(٩) أخذ به ابن حزم في المحلى ٢٣٥-٢٤٣/١٠.

وإذا كان الزوجان يخافان ألا يقيما حدود الله، ولم يتراضيا على شيء رفعاً أمرهما إلى الحاكم، وللحاكم أو الوالي أو الواسطة بينهما الزام الزوج بالخلع، إذا خافوا أن لا يقيم الزوجان حدود الله وهذا ما دلت عليه القراءة بالضم ﴿يُخَافَا﴾ كما في قصة ثابت بن قيس (١). قلت : وهذا يخالف ما قرر عن الجمهور (٢).

قال الرازي (ت ٦٠٦هـ) : « أما جمهور المجتهدين فقالوا : الخلع جائز في حالة الخوف وفي غير حالة الخوف، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤] فإذا جاز لها أن تهب مهرها من غير أن تحصل لنفسها شيئاً بازاء ما بذل، كان ذلك في الخلع الذي تصير بسببه مالكة لنفسها أولى » اهـ (٣).

قلت : هذا القياس لا يصح؛ لأنه مع الفارق إذ الآية التي أوردها الرازي - رحمه الله - في حال استمرار عقد الزوجية لا فسخه، وفرق بين الحالين ثم هو اجتهد في مقابلة النص، ولا اجتهد مع النص، وما دل عليه ظاهر الآية هو المعتمد - إن شاء الله - بل خلافه حادث في الاسلام.

يقول ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) : « الخلع الذي جاء به الكتاب والسنة أن تكون المرأة كارهة للزوج تريد فراقه فتعطيه الصداق أو بعضه فداء نفسها، كما يفدي الأسير، وأما إذا كان كل منهما مريدا لصاحبه فهذا الخلع محدث في الاسلام » اهـ (٤).

قال الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) : « قيد سبحانه حل الافتداء بمخافتها ألا يقيما حدود الله، وظاهر الآية أن الخلع لا يجوز إلا بحصول المخافة منهما جميعاً بأن يخاف الزوج أن لا يمسكها بالمعروف وتخاف الزوجة أن لا تطيعه كما يجب عليها ولكنه لما ثبت حديث ابن عباس عند البخاري وغيره : « أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس جاءت الى النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله إني ما أعتب عليه في خلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الاسلام . فقال رسول الله ﷺ : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم .

(١) سيأتي - إن شاء الله - ذكره مع التخريج قريباً .

(٢) بداية المجتهد ٦٨/٢ .

(٣) تفسير الرازي ١٠٠/٦ .

(٤) مجموع الفتاوى ٢٨٢/٣٢ .

فقال رسول الله ﷺ : أقبل الحديقة وطلقها تطليقة»(١).
قال الشوكاني : «دل ذلك على أن المخافة لعدم إقامة حدود الله من طريقها كافية في جواز الاختلاع» اهـ(٢).

-
- (١) حديث صحيح.
- أخرجه البخاري في كتاب الطلاق باب الخلع وكيف الطلاق فيه، حديث رقم (٥٢٧٣) والنسائي في كتاب الطلاق باب ما جاء في الخلع ١٦٩/٦ وابن ماجه في كتاب الطلاق باب المختلعة تأخذ ما أعطاها حديث رقم (٢٠٥٦).
- (٢) السيل الجرار ٣٦٤/٢ وانظر فتح الباري ٤٠١/٩.

الموضع العاشر :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿الَّذِي تَرَىٰ إِلَى اللَّهِ الْكَافِرِينَ أَكْثَرُ مِنْ الْيَاقِينِ﴾ البقرة: ٢٥٨ .
 اللَّهُ الْمَلِكُ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ
 إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي
 كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿البقرة: ٢٥٨ .

هكذا قرأ عامة القراء العشرة: ﴿فَبُهِتَ﴾.

وقرأ ابن السميعة ونعيم بن ميسرة: «فبَهِتَ الذي كَفَرَ» بفتح الباء
 والهاء والتاء.

وقرأ أبوحيوة شريح بن يزيد: «فبَهِتَ» بفتح الباء وضم الهاء (١)، وهما
 قراءتان أحاديثان.

معنى القراءات :

معنى قراءة الجمهور ~~﴿فَبُهِتَ﴾~~ أي دهش وتحير وانقطعت حجته (٢)،
 وهو من الأفعال التي جاءت ملازمة للبناء للمفعول وهي للمعلوم .

قراءة ابن السميعة ونعيم : «فبَهِتَ» فيه وجوه:

الأول : بهت، أي: تحير واندَهش وانقطعت حجته.

الثاني : بهت الذي كفر ، أي: جاء الذي كفر بالبَهِت أي: بهت الذي
 كفر إبراهيم عليه السلام .

الثالث : بهت الذي كفر ، أي: رام أن يبهت إبراهيم عليه السلام
 إلا أنه لم يستوله ذلك، وكانت الغلبة فيه لإبراهيم عليه السلام.

الرابع : بهت الذي كفر، أي : بهت إبراهيم الكافر فيكون فاعل
 «بهت» إبراهيم عليه الصلاة والسلام (٣).

وقراءة أبي حيوة: «بَهِتَ» بضم الهاء وفتح الموحدة تفيد المبالغة،
 والمعنى: فاشتد بهتان الذي كفر.

حاصل القراءات :

أن الذي كفر جاء بالبَهِتان فحجه إبراهيم عليه الصلاة والسلام وقطعه
 فبَهِته؛ فالآية بالقراءتين دلت على أمرين:

الأول : أن الذي كفر جاء ببَهِتان في حاجته لإبراهيم عليه الصلاة

والسلام.

(١) معاني القرآن الكريم للنحاس ٢٧٦/١ المحتسب ١٣٤/١ .

(٢) معاني القرآن وأعرابه للزجاج ٣٤١/١ المفردات ص ٦٣ .

(٣) المحتسب ١٣٤/١ .

الثاني : أنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام حاجَّه وغلبه.
قال ابن جني (ت٣٩٢هـ) : «أما «بهت» فقد يمكن أن يكون من معنى ما قبله
(يعني: بمعنى قراءة الجمهور) إلا أنه جاء على «فعل» كـ«ذهل ونكل وعجز
ولغب» فيكون على هذا غير متعد كهذه الأفعال.
وقد يمكن أن يكون متعديا ويكون مفعوله محذوفا ، أي: فبهت الذي كفر
إبراهيم عليه السلام .

فإن قيل : فكيف يجوز على هذا أن يجتمع معنى القراءتين ؟ ألا ترى
أن بهت قد عرف منه أنه كان مبهوتا لا باهتا وأنت على هذا القول تجعله
الباهت لا المبهوت ؟.

قيل : قد يمكن أن يكون معنى قوله: «بهت»، أي: رام أن يبهت إبراهيم
عليه السلام، إلا أنه لم يستوله ذلك، وكانت الغلبة فيه لإبراهيم عليه السلام.
وإجاز أن يقول: «بهت» وإنما كانت منه الإرادة كما قال جل وعز: ﴿إِذَا قُمْتُمْ
إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] أي: إذا أردتم القيام إليها،
كقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨] أي: إذا أردت قراءته؛
فاكتفى بالمسبب الذي هو القيام والقراءة من السبب الذي هو الإرادة وقد
أفردنا لهذا الموضوع باب في كتابنا «الخصائص» (١).

ويجوز جوازا حسنا أن يكون فاعل «بهت» إبراهيم أي: فبهت إبراهيم
الكافر، ليلتقي معنى هذه القراءة مع معنى الأخرى التي هي: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي
كَفَرَ﴾. اهـ (٢).

(١) ١٧٣/٣ باب في الاكتفاء بالسبب من المسبب وبالمسبب من السبب.

(٢) المحتسب ١/١٣٥.

الموضع الحادي عشر :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ ، فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة: ٢٥٩.

تنوعت القراءات في قوله : ﴿نُنْشِزُهَا﴾ :

فقرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: ﴿كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ بالراء ووافقهم ابن محيصن واليزيدي والحسن. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ بالزاي ووافقهم الأعمش (١).

معنى القراءات :

القراءة بالراء : ﴿نُنْشِزُهَا﴾ أي: كيف نحييها ونبعثها بعد موتها (٢).
القراءة بالزاي : ﴿نُنْشِزُهَا﴾ أي: نرفع بعضها إلى بعض ونركبه على حالته الأولى لا يختل عظم عن مكانه، والنشز الرفع، فترفع العظام وتركب للأحياء (٣).

حاصل القراءات :

القراءتان تضيف كل واحدة منهما إلى الأخرى معنى؛ فقراءة: ﴿نُنْشِزُهَا﴾ بينت أن العظام رفعت وركبت على بعضها دون تعرض لأحيائها، وقراءة: ﴿نُنْشِزُهَا﴾ بينت أن العظام أحيائها الله. فأفادت الآية بالقراءتين أن الله ركب العظام على بعضها كما كانت على حالتها الأولى لم يختل عظم من مكانه، وأحيائها فأدت القراءتان المعنى المراد بيانه - وهو التنبيه على عظيم قدرته سبحانه - مع الإيجاز (٤). وتلاحظ الأمور التالية :

(١) أن القراءتين اجتمعتا على شيء واحد وهو الدلالة على عظيم قدرته سبحانه في البعث والاحياء والتركيب.

(٢) اختلف أهل التأويل في المراد من العظام في الآية :

- (١) إرشاد المبتدي ص ٢٤٧ النشر ٢٣١/٢ الاتحاف ص ١٦٢.
- (٢) حجة القراءات ص ١٤٤ عمدة الحفاظ ص ٥١٦.
- (٣) الكشف ٣١١-٣١٠/١ تفسير الرازي ٣٦/٧ تفسير القرطبي ٢٩٥/٣.
- (٤) قواعد التدبر الأمثل ص ٧٥٢.

فَقِيلَ: المراد عظام الحمار. وقيل: عظام الرجل. وقيل: عظامهما (١). وهذا الأخير أولى الأقوال عند ابن جرير الطبري في المراد بالعظام في الآية.

قال الطبري (٣١٠هـ): «قوله ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ إنما بمعنى وانظر إلى العظام التي تراها ببصرك كيف ننشزها ثم نكسوها لحما . وقد كان حماره أدركه البلى في قول أهل التأويل جميعا نظير الذي لحق عظام من خوطب بهذا الخطاب، فلم يمكن صرف معنى قوله: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ إلى أنه أمر له بالنظر إلى عظام الحمار دون عظام المأمور بالنظر إليها، ولا إلى أنه أمر له بالنظر إلى عظام نفسه دون عظام الحمار. وإذا كان ذلك كذلك وكان البلى قد لحق عظامه وعظام حماره كان الأولى بالتأويل أن يكون الأمر بالنظر إلى كل ما أدركه طرفه مما قد كان البلى لحقه؛ لأن الله تعالى ذكره جعل جميع ذلك عليه حجة وله عبرة وعظة» اهـ (٢). قلت : فكأن «ال» في ﴿العظام﴾ للعهد الحضوري عنده رحمه الله، لكن الذي يظهر - والله أعلم - أن المراد عظام الحمار فقط والدليل على ذلك مايلي :

(أ) أن الظاهر من سياق الآية أن الله بعث الرجل ورد إليه روحه، فلما صار بشرا سويا أطلعه الله على جواب سؤاله ﴿أَنْتَ يَحْيَى هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟﴾.

(ب) كيف يصح القول بأن الله بعثه وعظامه لا تزال رميما ينظر إليها؟.

(ج) ثم كيف يصح ذلك مع قوله: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نَنْشِزُهَا؟﴾.

أما ما يقوله الإمام الطبري فالأصل العموم حقا، لكن خص النظر بالحمار لما ذكرت والله أعلم.

(٣) قال أبوحيان (ت: ٧٥هـ): «وقرأ أبي «كيف ننشيتها» بالياء، أي: نخلقها» اهـ (٣).

(١) البحرالمحيط ٢/٢٩٣.

(٢) تفسير الطبري (دارالفكر) ٣/٤٢.

(٣) البحرالمحيط ٢/٢٩٤، وهي قراءة شاذة لمخالفتها رسم المصحف.

الموضع الثاني عشر :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ: أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا . فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ، قَالَ: كَمْ لَبِثْتَ؟ قَالَ: لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ: بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ ، فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ: أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة: ٢٥٩.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ...﴾ :

فقرأ حمزة والكسائي: ﴿أَعْلَمُ﴾ بوصل الهمزة مع سكون الميم حالة وصل ﴿قال﴾ بـ ﴿اعلم﴾ وإذا ابتداء بـ ﴿أَعْلَمُ﴾ كسرا همزة الوصل .
وقرأ باقي العشرة ﴿أَعْلَمُ﴾ بهمزة قطع مفتوحة وصلا وابتداء مع رفع الميم (١).

معنى القراءات :

قراءة حمزة والكسائي: ﴿أَعْلَمُ﴾ بهمزة الوصل، أي: قال الله لهذا الذي مر على القرية لما تبين له اعلم... فـ ﴿أَعْلَمُ﴾ فعل أمر، والفاعل ضمير مستتر وجوبا يعود على هذا الذي مر على قرية... .

ويحتمل أن يكون خطابا من هذا الرجل الذي مر على قرية خطابا منه لنفسه بعد أن عاين ما عاين فيقول على سبيل «التجريد»: اعلم أن الله على كل شيء قدير، أي الزم هذا العلم لما عاينت وتيقنت (٢).

قراءة الجمهور: ﴿أَعْلَمُ﴾ بهمزة قطع وضم الميم، أي: قال الرجل الذي مر على القرية ﴿اعلم...﴾ فـ ﴿أَعْلَمُ﴾ فعل مضارع واقع مقول القول (٣)، فالرجل يخبر عن نفسه.

حاصل القراءات :

يأمر الله عزوجل هذا الرجل الذي مر على القرية بعد أن تبين له الآية في اعادته الى الحياة بعد موته وإعادة حماره إلى الحياة يأمره بأن يعلم بأن الله على كل شيء قدير ، وتقيد الآية بالقراءة الأخرى امتثال هذا الرجل لذلك الأمر واستجابته للأمر فصرح بذلك فقال أعلم أن الله على كل شيء قدير .

(١) المبسوط ص ١٣٤ النشر ٢٣١/٢-٢٣٢ الاتحاد ص ١٦٢.

(٢) الكشف ٣١٢/١ حجة القراءات ص ١٤٤-١٤٥.

(٣) المغني في توجيه القراءات ٢٧٤/١.

الموضع الثالث عشر :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٨٢ .
هكذا قرأ عامة القراء العشرة: ﴿كَاتِبًا﴾ .

وقرأ ابن عباس والحسن: «كتابا» بضم الكاف وتاء مشددة بعد ألف (١) .

وقرأ أبي بن كعب ومجاهد وأبو العالية: «كتابا» على أنه من الكتابة (٢) .

معنى القراءات :

قراءة الجمهور دلت أن الرهن يكون لفقد الكاتب والقراءة الشاذة دلت على أن الرهن يكون لفقد الكتابة .

حاصل القراءات :

الرهن يكون لفقد الكاتب والكتابة .

قال أبو حيان (ت ٧٥٤هـ) : «نفي الكاتب يقتضي نفي الكتابة ونفي الكتابة يقتضي أيضا نفي الكتب» اهـ (٣) .

ويلاحظ مايلي :

عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قرأ : «ولم تجدوا كتابا» وقال : «قد يوجد الكاتب ولا يوجد القلم ولا الدواة ولا الصحيفة والكتاب يجمع ذلك كله قال وكذلك كانت قراءة أبي» (٤) .

(١) البحر المحيط ٣٥٥/٢ الاتحاف ص ١٦٦ القراءات الشاذة ص ٣٧ .

(٢) البحر المحيط ٣٥٥/٢ الدر المنثور ١٢٤/٢ . ١٢٥٠ .

(٣) البحر المحيط ٣٥٥/٢ .

(٤) إسناده حسن لغيره في قراءة ابن عباس .

أخرجه الطبري في تفسيره (شاكر) ٩٥/٦ من طريق ابن جريج عن أبيه عن ابن عباس وأخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ٢٤٣ رقم (٥٨٠) من الطريق نفسه كلاهما مقتصران على قراءة ابن عباس .

وفي السند عندهما جريج وهو عبدالعزيز بن جريج قال في التقريب ص ٣٥٦ عنه : «لين» اهـ لكن تابعه شهر بن حوشب، فقد أخرجه مقتصران على قراءة ابن عباس أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ٢٤٤ رقم (٥٨١) من طريق حجاج عن هارون عن حنظلة السدوسي عن شهر بن حوشب عن ابن عباس، وحنظلة قال عنه في التقريب ص ١٨٤ : «ضعيف» اهـ وشهر بن حوشب قال عنه في التقريب ص ٢٦٩ : «صدوق كثير الإرسال والأوهام» اهـ .

قلت : فالأثر في قراءة ابن عباس حسن لغيره إن شاء الله .

الموضع الرابع عشر :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ آل عمران: ٧٩.
تنوعت القراءات في قوله: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ :

فقرأ ابن كثير وأبوجعفر ويعقوب ونافع وأبوعمر: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بفتح التاء واسكان العين وفتح اللام المخففة.

وقرأ باقي العشرة: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بضم التاء وفتح العين وكسر اللام مشددة (١).

معنى القراءات :

القراءة بتشديد اللام: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ أي: بتعليمكم الناس الكتاب (٢).

القراءة بتخفيف اللام: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ أي: بعلمكم الكتاب وفهمكم له.

حاصل القراءات :

أثبتت القراءتان بتشديد اللام وتشديدها علمهم بالكتاب وزادت القراءة بالتشديد على القراءة بالتخفيف اثبات تدريسهم للكتاب.

ويلاحظ مايلي :

تكلم بعض المفسرين في ترجيح إحدى القراءتين على الأخرى وقد تعقب ذلك أبوحيان (ت ٧٥٤هـ) بقوله: «تكلّموا في ترجيح أحد القراءتين على الأخرى وقد تقدم أني لا أرى شيئاً من هذه التراجيح؛ لأنها كلها منقولة متواترة قرآناً فلا ترجيح في إحدى القراءتين على الأخرى» اهـ (٣).

(١) المبسوط ص ١٤٥ النشر ٢/٢٤٠ الإتحاف ص ١٧٦.

(٢) الكشف ٣٥١/١ حجة القراءات ص ١٦٧-١٦٨.

(٣) البحر المحيط ٢/٥٠٦.

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾
آل عمر ان: ٨١.

أن الله أخذ ميثاق النبيين وميثاق الذين أوتوا الكتاب لأن أخذ الميثاق من النبيين أخذ لميثاق الذين معهم ؛ لأنهم قد تبعوهم وصدقوهم . وأفادت القراءة الشاذة التنبيه على ذلك ، فلا يقال مثلاً: إنما أخذ الميثاق على النبيين ولم يؤخذ على الذين أوتوا الكتاب؛ لأن هذه القراءة بينت أنه أخذ الميثاق من الذين أوتوا الكتاب كما أخذه من النبيين والله أعلم .

قال الطبري (ت ٣١٠هـ): «حدثني محمد بن عمرو قال: حدثنا أبو عاصم قال: عن عيسى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ قال: هي خطأ من الكاتب، وهي في قراءة ابن مسعود: «وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ». (٢)»

(۲) استناره ضعیف .

ومحمد بن عمرو شيخ الطبري هو أبوبكر الباهلي، ترجم له في تاريخ بغداد ١٢٧/٣ ونقل توثيقه عن عبدالرحمن بن يوسف.

وعيسى بن ميمون ضعيف كما قال في التقريب ص ٤٤١.

وابن أبي نجيح هو عبدالله ثقة يدلس عن مجاهد كما قال في التقريب ص ٣٢٦ و«تعريف أهل التقديس» ص ٣٩ وروايته هنا عن مجاهد وقد عنعن.

وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» ٢/٢٥٢ إلى عبد بن حميد والفريابي وابن المنذر.

وقد سبق ص ٢٨٥-٢٩٣، الرد على من يستدل بهذا الأثر وأمثاله في الطعن على القرآن العظيم.

الموضع السادس عشر :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران: ١٠٤.
هكذا قرأ عامة القراء العشرة.

وقرأ ابن الزبير: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير... ويستعينون الله على ما أصابهم» (١).

عن عمرو بن دينار أنه سمع ابن الزبير يقرأ: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون الله على ما أصابهم».

[فما أدري أكانت قراءته أم فسر؟] (٢).

حاصل القراءات :

أضافت هذه القراءة الشاذة لمخالفتها رسم المصحف إلى القراءة المتواترة أمرا آخر وهو الاستعانة بالله على ما يصيب الانسان نتيجة أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وهي بهذا تتفق مع آيات أخرى يذكر الله تعالى فيها الصبر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمُ الصَّلَاةَ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ لقمان: ١٧.

ويلاحظ مايلي :

(١) قال القرطبي (٦٧١هـ) : «قال أبو بكر ابن الأنباري (ت٣٢٧هـ) : «وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير، وكلام من كلامه غلط فيه بعض الناقلين فألحقه بالفاظ القرآن.

يدل على صحة ما أصف الحديث الذي حدثنيه أبي حدثنا حسن بن عرفة حدثنا وكيع عن أبي عاصم عن أبي عون عن صبيح قال: سمعت عثمان بن عفان يقرأ: «ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون الله على ما

(١) تفسير القرطبي ١٦٥/٤ البحر المحيط ٢١/٣.

(٢) إسناده صحيح .

أخرجه الطبري في تفسيره (شاذر) ٩١/٧-٩٢ وابن أبي داود في المصاحف ص٩٣.
وعزه السيوطي في الدر المنثور ٢٨٨/٢ إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف، والزيادة بين العارضتين منه.

أصابهم» (١) فما يشك عاقل في أن عثمان لا يعتقد هذه الزيادة من القرآن، إذ لم يكتبها في مصحفه الذي هو امام المسلمين وانما ذكرها واعطا بها ومؤكدا ما تقدمها من كلام رب العالمين جل وعلا» اهـ (٢).

قلت : لم يصح سند هذا الأثر عن عثمان رضي الله عنه، وعلى كل حال فإن هذه القراءة عن ابن الزبير يستفاد منها في التفسير والله أعلم.

(٢) قال أبوحيان (ت٧٥٤هـ) : «لم تثبت هذه الزيادة في سواد المصحف فلا يكون قرآنا، وفيها إشارة إلى ما يصيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأذى كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ [القمان: ١٧]» اهـ (٣).

(١) إسناده ضعيف .

أخرجه الطبري في تفسيره (شاکر) ٩١/٧ وابن أبي داود في المصاحف ص٤٨، كلاهما من طريق محمد بن عبيدالله أبي عون الثقفي عن صبيح أنه سمع عثمان يقرأ.... وصبيح هذا لم أتأكد منه، لعله صبيح بن سعيد يروي عن عثمان وعائشة، قال أبوخيثمة وابن معين: «كان ينزل الخلد كذاب خبيث»، قال أبوداود: «ليس بشيء».

أنظرميزان الاعتدال ٣٠٧/٢ وقارن بترتيب تاريخ ابن معين ٢٦٧/٢.

وعزاه في الدر المنثور ٢٨٨/٢ إلى عبد بن حميد.

(٢) بواسطة تفسير القرطبي ١٦٥/٤-١٦٦.

(٣) البحرالمحيط ٢١/٣.

الموضع السابع عشر :

قوله تبارك وتعالى : ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلَهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ آل عمران: ١٤٠.

وقوله تبارك وتعالى : ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ آل عمران: ١٧٢.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿قَرْحٌ﴾ و ﴿الْقَرْحُ﴾ :

فقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه وحمزة والكسائي وخلف بضم القاف فيها.

وقرأ سائر العشرة بفتح القاف فيها (١).

معنى القراءات :

واختلف أهل التفسير هل معنى القراءتين واحد أم لا؟ (٢).

قال أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ) : «قوله جل وعز: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ .. و ﴿قَرْحٌ﴾ جميعا يقرأن، وهما عند أهل اللغة بمعنى واحد، ومعناه: الجراح وألمها، يقال: قد قرح يرح قرحا وأصابه قرح» اهـ (٣).

قلت : فرّق آخرون من أهل العلم بين (قرح) بالضم وبين (قرح) بالفتح.

فقال أبو عبيد (ت ٢٢٤هـ) : «القرح بالفتح الجراح والقتل والقرح بالضم ألم الجرح» اهـ (٤).

وكذا قال الفراء (٥) (ت ٢٠٧هـ).

وبنحوه قال الراغب (ت ٥٠٢هـ) حيث قال: «الْقَرْحُ الأثر من الجراحة، من

شيء يصيبه من خارج، والقَرْح أثرها من داخل كالبثرة (٦) ونحوها» اهـ (٧).

حاصل القراءات :

إذا كانت القراءتان بمعنى واحد فإن أثر الاختلاف بين القراءتين

(١) المبسوط ص ١٤٧ النشر ٢/٢٤٢.

(٢) زاد المسير ١/٤٦٦.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ١/٤٧٠.

(٤) بواسطة زاد المسير ١/٤٦٦.

(٥) معاني القرآن للفراء ١/٢٣٤.

(٦) البثرة خراج صغار، وخص بعضهم به الوجه، واحدته بثرة بتسكين الثاء وبثرة بتحريكها بالفتحة. لسان العرب ٤/٣٩.

(٧) المفردات ص ٤٠٠.

هو التوسعة على الأمة بمجيء لغتين في قراءة هذه الكلمة .
أما إذا كان معنى القراءة بالضم غير معنى القراءة بالفتح فهذا أثر
اختلاف القراءتين يظهر في مجيء معنيين للآية الواحدة بقراءتين
متواترتين.

ويلاحظ مايلي :

أن التأسيس أولى من التأكيد؛ فإذا أمكن أن يكون لكل قراءة معنى
فهو أولى من كونهما لغتان بمعنى.

قال في حجة القراءات: «وأولى القولين بالصواب قول الفراء
لتصويرهما لمعنيين، والدليل على ذلك قول الله جل وعز حين أساهم بهم في
موضع آخر بما دل على أنه أراد الأثم فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ
تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] فدل ذلك على أنه
أراد: إن يمسسكم ألم من أيدي القوم فإن بهم من ذلك مثل ما بكم» اهـ (١).

(١) حجة القراءات ص ١٧٤.

الموضع الثامن عشر :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ، وَمَنْ يَغْلِلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ آل عمران: ١٦١.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿يُغْلِلْ﴾ :

فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بفتح الياء وضم العين: ﴿يُغْلِلْ﴾.

وقرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر وحمرزة والكسائي وخلف ويعقوب بضم الياء وفتح الغين: ﴿يُغْلِلْ﴾ (١).

معنى القراءات :

القراءة بفتح الياء وضم الغين ﴿يُغْلِلْ﴾ مبنيا للفاعل والمعنى انه لا يمكن ذلك منه؛ لأن الغلول معصية، والنبي ﷺ معصوم، فلا يمكن أن يقع في شيء منها وهذا النفي إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوهم فيه ذلك، ولا ينسب إليه شيء من ذلك (٢).

القراءة بضم الياء وفتح الغين: ﴿يُغْلِلْ﴾ مبنيا للمفعول والمعنى انه ليس لأحد أن يغل النبي ﷺ أي: يخونه، فالآية خبر في معنى النهي. وفي هذه القراءة معنى آخر: ﴿يُغْلِلْ﴾ مبنيا للمفعول أي: يسرق ويخون، أي: ينسب إلى الغلول، ويقال: أغلته، أي: نسبته إلى الغلول، ويجوز أن يكون المعنى ما كان لنبي أن يوجد غالا، كقولك: أحمدت الرجل أي: وجدته محمودا (٣).

حاصل القراءات :

ينفي الله تبارك وتعالى عن الرسول ﷺ تهمة الغلول، كما ينهى الناس عن الغلول وخاصة مع النبي ﷺ، وفيها نهى آخر وهو أن ينسب إلى الرسول ﷺ الخيانة أو الغلول.

فالآية بالقراءتين تضمنت خبرا ونهيين، وقامت مقام ثلاث آيات على وجه الإيجاز مع الإعجاز، فسبحان الذي هذا كلامه.

(١) النشر ٢٤٣/٢ الإتحاف ص ١٨١ البدور الزاهرة ص ٧٢.

(٢) الكشف ٣٦٣/١ البحر المحيط ١٠١/٣.

(٣) الكشف ٣٦٣/١-٣٦٤ حجة القراءات ص ١٨٠-١٨١.

وتلاحظ الأمور التالية :

(١) ورد عن ابن عباس الآثار التالية :

(أ) عن أبي عبد الرحمن قال : «قلت لابن عباس: **إِنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقْرَأُ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلُّ﴾** (يعني: بفتح الغين) . فقال لي : قد كان له أن **يَغُلَّ** وأن **يُقْتَلَ**، وإنما هي: **﴿أَنْ يَغُلَّ﴾** (يعني: بضم الغين) ما كان الله ليجعل نبيه غالا» (١).

(ب) عن مجاهد قال: «كان ابن عباس ينكر على من يقرأ: **﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾** ويقول: كيف لا يكون له أن يغل وقد كان له أن يقتل؟. قال الله: **﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾** [البقرة: ٦١] ولكن المنافقين اتهموا النبي ﷺ في شيء من الغنime؛ فأنزل الله: **﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾**» (٢).

قلت : هذا الكلام روي عن ابن عباس بأسانيد ضعيفة، وحتى إن صح عنه فإنه محمول على أنه رضي الله عنه لم تبلغه القراءة الأخرى بضم الياء وفتح العين وإلا فإن القراءة ثابتة ولا تعارض.

(٢) نقل ابن مهران (٣) (ت ٣٨١هـ) الخلاف عن يعقوب برواية روح وزيد عنه ورواية رويس عنه من طريقه إليهم، خلافا لما في «إرشاد المبتدي» (٤) و «النشر» (٥) و «الإتحاف» (٦) ولعل ذلك لاختلاف طرق الروايات عندهم عما عند ابن مهران والله أعلم.

(١) قال في الدر المنثور ٣٦٢/٢: «أخرجه ابن منيع في مسنده» هـ.

(٢) إسناده ضعيف .

أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠١/١١ ومن طريقه أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٣٧٢/١-٣٧٣ والواحي في أسباب النزول ص ١٢٢.

وفي السند محمد بن أحمد بن يزيد النرسي شيخ الطبراني، أورده الخطيب في تاريخ بغداد ٣٧٢/١ ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا، وأورد ابن حجر في لسان الميزان ٤١/٥ ترجمة محمد بن أحمد بن يزيد الزهري (كذا) روى عنه أبو الشيخ والطبراني، قال أبو الشيخ: لم يكن بالقوي في الحديث وقال: أبو نعيم كان كثير الخطأ والمصنفات. قال ابن حجر: «يحتمل أن يكون هو شيخ ابن عدي المذكور قبله» هـ.

قلت : شيخ ابن عدي المذكور قبله قال في ترجمته: «كان يسرق الحديث» هـ فإن كان هو شيخ الطبراني فالحديث ضعيف جدا، وإلا فالحديث ضعيف فقط.

(٣) المبسوط ص ١٤٨-١٤٩.

(٤) ص ٢٧١.

(٥) ٢٤٣/٢.

(٦) ص ١٨١.

(٣) فإن قيل: الآية على قراءة: ﴿يُغْل﴾ بمعنى: ما كان لأحد أن يخون النبي ﷺ والخيانة محرمة مع كل أحد فما فائدة تخصيص النبي ﷺ بهذه الحرمة؟.

فالجواب: هو في قول الرازي (ت٦٠٦هـ): «وتخصيص النبي ﷺ بهذه الحرمة فيه فوائد:

أحدها: أن المجني عليه كلما كان أشرف وأعظم درجة كانت الخيانة في حقه أفحش، والرسول أفضل البشر فكانت الخيانة في حقه أفحش. وثانيها: أن الوحي كان يأتيه حالا فحالا فمن خانه فربما نزل الوحي فيه فيحصل له مع عذاب الآخرة فضيحة الدنيا. وثالثها: أن المسلمين كانوا في غاية الفقر في ذلك الوقت فكانت تلك الخيانة هناك أفحش» اهـ (١).

وقول القرطبي (ت٦٧١هـ): «خصه (يعني: النبي ﷺ) بالذكر؛ لأن الخيانة معه أشد وقعا وأعظم وزرا لأن المعاصي تعظم بحضرته لتعين توقيره، والولاة إنما هم على أمر النبي ﷺ فلهم حظهم من التوقير» اهـ (٢).

(١) تفسير الرازي ٧٢/٩.

(٢) تفسير القرطبي ٢٥٦/٤.

الموضع التاسع عشر :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ النساء: ١.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾:

فقرأ حمزة: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالخفض، ووافقه المطوعي عن الأعمش.

وقرأ باقي العشرة: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالنصب، ووافقهم اليزيدي وابن محيصن والحسن والشنوبزي عن الأعمش (١).

وقرأ أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد: «والأرحام» بالرفع (٢).
معنى القراءات :

معنى قراءة حمزة: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالخفض، أي: اتقوا الله الذي تساءلون به وبالأرحام، وهو قول الرجل: أسألك بالله وبالرحم، وهذا قول الحسن وعطاء وإبراهيم ومجاهد (٣).

معنى قراءة عامة العشرة: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالنصب، أي: اتقوا الله الذي تساءلون به واتقوا الأرحام وصلوها لا تقطعوها ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي وابن زيد (٤).

معنى قراءة أبي عبد الرحمن عبد الله بن زيد: «والأرحام» بالرفع، أي: والأرحام مما يجب أن تتقوه وان تحتاطوا لأنفسكم فيه (٥).
حاصل القراءات :

يأمر الله تعالى الناس بتقواه كما يأمرهم بأن يحافظوا على الأرحام ويصلوها ولا يقطعوها، كما تتضمن قراءة حمزة جواز السؤال به تعالى وبالرحم من باب حفظها وعظم حقها عند الله تعالى والله أعلم .
وتلاحظ الأمور التالية :

(١) ورد عن الصحابة والتابعين قولان في تفسير الآية:

الأول : ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ كقول الرجل: أسألك بالله

(١) المبسوط ص ١٥٣ النشر ٢٤٧/٢ الإتحاف ص ١٨٥ .

(٢) المحتسب ١٧٩/١ .

(٣) زاد المسير ٣/٢ الدر المنثور ٤٢٤/٢ .

(٤) ماسبق .

(٥) المحتسب ١٧٩/١ .

وبالرحم، وهذا منقول عن مجاهد والحسن وغيرهما (١).
 الثاني : ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾، أي: اتقوا الله الذي تساءلون به واتقوا الأرحام وصلوها، وهذا منقول عن ابن عباس ومجاهد كذلك وعكرمة (٢).

قلت : وليس هذا باختلاف منهم رضي الله عنهم، بل كل منهم فسر الآية اعتبار قراءة من القراءات الواردة فيها، وقد سبق التنبيه إلى نحو هذا والله الحمد (٣).

(٢) قد أذن تبارك وتعالى إذ قرن الأرحام باسمه على أن صلتها بمكان منه (٤) ، وقد قال ﷺ : «إن الرحم شجنة من الرحمن» (٥) فقال الله: من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته.

وفي رواية قال رسول الله ﷺ : «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم؛ فقال: مه؟. قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟. قالت: بلى يارب . قال: فذلك لك».

وفي رواية: «ثم قال رسول الله ﷺ : «اقرأوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ . أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»

(١) الدر المنثور ٢/٤٢٤.

(٢) ماسبق .

(٣) ص ٣٢١.

(٤) الكشف ١/٢٤١ وقارن بتفسير البضاوي ص ١٠٢.

(٥) «الرحم شجنة من الرحمن» أي: قرابة مشتبكة كاشتباك العروق. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/٤٤٧.

والمراد أنها مشتقة من اسمه تعالى كما وقع مصرحا به في الحديث القدسي: «أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها من اسمي اسما، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بقتة» حديث صحيح .

أخرجه أحمد في المسند (شاکر) حديث رقم (١٦٨٠) والبخاري في الأدب المفرد (فضل الله الصمد) ١/١٣٢ حديث رقم (٥٣) وأبوداود في كتاب الزكاة باب صلة الرحم حديث رقم (١٦٩٤) والترمذي في كتاب البر والصلة باب ما جاء في قطيعة الرحم حديث رقم (١٩٠٨) والحاكم في المستدرک ١/١٥٨ وصححه أبویعلی في مسنده ٢/١٥٣-١٥٥ حديث رقم (٨٤٠-٨٤١) من حديث عبدالرحمن بن عوف وصححه الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب ٣/٢٧١ وأحمد شاکر في تحقیقه للمسند ٣/١٣٨.

(٣) هاجم جمهور البصريين هذه القراءة المتواترة عن حمزة حتى صرح بعضهم بخطأ هذه القراءة لمخالفتها للقاعدة لديهم: «لا يجوز عطف الاسم الظاهر على الضمير المخفوض إلا بعد إعادة الخافض» (٢).

قلت : والحق قبول هذه القراءة، وتصحيح القاعدة مع ما يتفق مع ما جاء فيها، وقد رد الامام أبونصر عبدالرحيم بن عبدالكريم القشيري (ت ٥١٤هـ) قول البصريين واختار جواز عطف الاسم الظاهر على الضمير المخفوض دون إعادة الخافض كمذهب الكوفيين وقال في رده على البصريين: «ومثل هذا الكلام مردود عند أئمة الدين؛ لأن القراءات التي قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبي ﷺ تواتراً يعرفه أهل الصنعة، وإذا ثبت شيء عن النبي ﷺ فمن رد ذلك فقد رد على النبي ﷺ ، واستقبح ما قرأ به، وهذا مقام محذور، ولا يقلد فيه أئمة اللغة والنحو فان العربية تتلقى من النبي ﷺ ، ولا يشك أحد في فصاحته» اهـ (٣).

قلت : رحم الله القشيري، فقد أجاد وأفاد، ولعل مما تجدر ملاحظته أن القضية ليست الشك في فصاحته ﷺ وإنما القضية أن القراءة متواترة؛ فهي إذا قد تلقاها بالوحي من جبريل عليه السلام فأمر لها لقواعد اللغة، هو ردّ للوحي الذي ينبغي أن يكون حاكماً على القواعد وليس محكوماً بها، على أن هذه القراءة ليست متفردة بذلك بل في القرآن الكريم كثير مثلاً كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه؟ قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله...﴾ البقرة: ٢١٧ حيث عطف كلمة ﴿المسجد الحرام﴾ على الهاء في ﴿به﴾ بدون إعادة الخافض وكذا في قوله تعالى: ﴿وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين﴾ الحجر: ٢٠ حيث قالوا: إن كلمة ﴿من﴾ في

(١) حديث صحيح عن أبي هريرة .

أخرجه البخاري في مواضع منها في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ الفتح: ١٥ حديث رقم (٧٥٠٢) وفي كتاب الأدب باب من وصل وصله الله حديث رقم (٥٩٨٧)، وأخرجه مسلم في كتاب البر باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها حديث رقم (٢٥٥٤).

(٢) وهي من مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين عند ابن الأنباري في الانصاف في مسائل الخلاف ٤٦٣/٢.

(٣) بواسطة تفسير القرطبي ٤/٥.

موضع خفض عطفاً على الضمير المخفوض في ﴿لَكُمْ﴾ (١).
وقد تأول البصريون هذه الآيات لتتفق مع كلامهم وقد قال أبو حيان
(ت ٧٥٤هـ): «وتأويلها (يعني: آية النساء) على غير العطف على الضمير مما
يخرج الكلام عن الفصاحة فلا يلتفت إلى التأويل... ومن أدعى اللحن
فيها أو الغلط على حمزة فقد كذب» اهـ (٢).

(١) وقد بسط القول في وجوب تصحيح القاعدة عند البصريين صاحب كتاب «نظرية النحو
القرآني» ص ٧٤-٧٨ وانظر «دراسات لأسلوب القرآن الكريم» ق ١ ج ٣ ص ٥٤٣-٥٤٧.
(٢) البحر المحيط ١٤٧/٢.

الموضع العشرون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النساء: ٢٤.

هكذا قرأ عامة القراء العشرة.

وقرأ أبي بن كعب وعبد الله بن عباس وابن جبير: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن» (١).

معنى القراءات :

معنى قراءة عامة العشرة: ﴿... فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يعني: إذا استمتعتم بالزوجة ووقع الوطء ولو مرة فقد وجب إعطاء الأجر وهو المهر، ولفظة ﴿مَا﴾ تدل على أن يسير الوطء يوجب إتياء الأجر (٢)، وهذا المعنى قاله ابن عباس ومجاهد وابن زيد والحسن والجمهور (٣).

معنى قراءة أبي وابن عباس وابن جبير: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن» يعني: نكاح المتعة، حيث كان الرجل يقول للمرأة أتزوجك إلى أجل كذا وكذا على أن لا ميراث بيننا ولا طلاق ولا شاهد وأعطيك كذا (٤)، وهذا المعنى قاله ابن عباس ومجاهد والسدي (٥).

وهذا الحكم الذي دلت عليه الآية بهذه القراءة الشاذة منسوخ بما جعل الله بيد الزوج من الطلاق، وبما فرض من الميراث بين الزوجين، وبالعدة والصداق والشهادة والولي (٦) وبإجماع العلماء على تحريم نكاح المتعة (٧) وبالله التوفيق.

(١) تفسير الطبري (شاكر) ١٧٧-١٧٩ معاني القرآن للنحاس ٦١/٢.

(٢) البحر المحيط ٢١٨/٣.

(٣) زاد المسير ٥٣/٢ البحر المحيط ٢١٨/٣.

(٤) الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص ٢٢١.

(٥) البحر المحيط ٢١٨/٣.

(٦) الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص ٢٢١.

(٧) موسوعة الإجماع في الفقه الاسلامي ص ١١٥٣.

حاصل القراءات :

دلت الآية بالقراءتين على حكمين :

الأول : استحقاق المرأة للمهر إذا استمتع الرجل بها أيما استمتاع في النكاح، ثم لا جناح إذا تراضت المرأة مع زوجها في نقض ما تراضوا عليه أو رده أو تأخره من بعد الفريضة وهذا الحكم محكم غير منسوخ.

الثاني : جواز متعة النساء، فالرجل إذا استمتع بالمرأة فلها أجرها، ثم لا جناح عليكم إذا انقضى أجل المتعة أن يزيدكم في الأجل، وتزيدون في الأجر من غير استبراء، وهذا الحكم منسوخ .
وتلاحظ الأمور التالية :

(١) أورد هنا جملة من الآثار المتعلقة بالآية :

(أ) عن عبد الله بن عباس قال: «كانت المتعة في أول الاسلام وكانوا يقرأون هذه الآية: «فما استمتعتم به منهن الى أجل مسمى» كان الرجل يقدم البلد ليس له به معرفة فيتزوج بقدر ما يرى يفرغ من حاجته لتحفظ متاعه وتصلح له شأنه حتى نزلت هذه الآية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْهَاتُكُمْ...﴾ [النساء: ٢٣] إلى آخر الآية ونسخ الأجل وحرمت المتعة، وتصديقها في القرآن: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٦]، فما سوى هذا الفرج فهو حرام». وفي رواية: «... حتى إذا نزلت الآية: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦] قال ابن عباس: فكل فرج سوى هذين فهو حرام» (١).

(١) إسناده ضعيف.

أخرجه الترمذي في كتاب النكاح باب ما جاء في تحريم نكاح المتعة تحت رقم (١١٢٢) دون أن يذكر القراءة، والرواية التي أشرت إليها له ، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣٨٩/١٠-٣٩٠ والسياق له، ومن طريقه أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٣٠٦-٣٠٥/٧ وساقه الحازمي بسنده في «الاعتبار» بيان الناسخ والمنسوخ من الآثار ص ١٧٨-١٧٩.

قلت : مدار السند عندهم على موسى بن عبيدة قال في التقريب ص ٥٥٢ : «ضعيف» اهـ و متنه منكر.

والحديث قال عنه الحازمي في «الاعتبار» ص ١٧٩ : «هذا إسناد صحيح لولا موسى بن عبيدة» اهـ.

وحكم بضعه الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٧٢/٩ والألباني في إرواء الغليل ٣١٦/٦.

=

(ب) عن أبي نضرة قال: قرأت علي ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.

قال ابن عباس: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى».

قال أبو نضرة: فقلت ما نقرأها كذلك؟

فقال ابن عباس: والله لأنزلها الله كذلك ثلاث مرات (١).

(ج) قال الطبري: حدثنا أبو كريب قال: حدثنا يحيى بن عيسى قال:

حدثنا نصير بن أبي الأشعث قال: حدثني ابن حبيب بن أبي ثابت عن أبيه

قال: «أعطاني ابن عباس مصحفا فقال: هذا على قراءة أبي».

قال أبو كريب: قال يحيى: فرأيت المصحف عند نصير فيه: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى» (٢).

= قلت : ونكارة الحديث لمخالفته ما صح عن ابن عباس أن نكاح المتعة رخصة في الحال الشديد أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة أخيرا تحت رقم (٥١١٦) ولفظه: «عن أبي جمرة قال: «سمعت ابن عباس يسأل عن نكاح متعة النساء فرخص، فقال له مولى له: إنما ذلك في الحال الشديد وفي النساء قلة أو نحوه. فقال ابن عباس: نعم».

وأخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٢٦/٣ بلفظ: «... إنما كان ذلك في الغزو والنساء قليل. فقال ابن عباس رضي الله عنهما: صدقت».

وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢٠٤/٧ وعنده بدل: «الغزو» «الجهاد».

(١) إسناده صحيح .

أخرجه الطبري في تفسيره (شاکر) ١٧٧/٨ من طرق، وابن أبي داود في المصاحف ص ٩١ والحاكم في المستدرک ٣٠٥/٢ وقال: « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » اهـ ووافقه الذهبي، وهو كما قال، والزيادة بين العارضتين من الطبري وابن أبي داود.

(٢) إسناده حسن .

أخرجه الطبري في تفسيره (شاکر) ١٧٦/٨-١٧٧.

وأبو كريب هو محمد بن العلاء بن كريب الهمداني ثقة كما قال في التقريب ص ٥٠٠.

ويحيى بن عيسى هو التميمي النهشلي صدوق يخطيء كما قال في التقريب ص ٥٩٥.

ونصير بن أبي الأشعث هو الأسدي أبو الوليد الكوفي ثقة كما قال في التقريب ص ٥٦١.

وابن حبيب، أبناء حبيب بن أبي ثابت ثلاثة هم: عبدالله وهو ثقة. التقريب ص ٢٩٩،

وعبيدالله وثقه ابن معين. الجرح والتعديل ٣١١/٥ وقال الدارقطني: «عبدالله وعبيدالله

وعبدالسلام بنو حبيب بن أبي ثابت وكلهم ثقات» تهذيب التهذيب ١٨٣/٥.

وحبيب بن أبي ثابت ثقة فقيه جليل كان كثير الإرسال والتدليس كما في التقريب

ص ١٥٠.

(٢) نقل المفسرون في الآية على قراءة الجمهور قولين:
الأول : أن الآية محكمة وأنها في مهر الزوجة إذا استمتع بها زوجها.

الثاني : أن الآية في نكاح المتعة وهي منسوخة.
قلت والذي يظهر - والعلم عند الله - أن القولين إنما هما باعتبار اختلاف القراءة في الآية، فمن قرأ بقراءة الجمهور كان معنى الآية عنده هو الأول، ومن قرأ الآية بقراءة أبي وابن عباس كان معنى الآية عنده هو الثاني، فكل تفسير على قراءة.

(٣) القراءة المنقولة عن أبي بن كعب وابن عباس قراءة شاذة لا يقرأ بها في الصلاة.

قال الطبري (ت ٣١٠هـ) : «أما ما روي عن أبي بن كعب وابن عباس من قراءتهما: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى» فقراءة بخلاف ما جاءت به مصاحف المسلمين وغير جائز لأحد أن يلحق في كتاب الله تعالى شيئاً لم يأت به الخبر القاطع العذر عن لا يجوز خلافة» اهـ (١).

وقال مكي (ت ٤٣٧هـ) : «لا يجوز لأحد اليوم أن يقرأ بذلك لأنها قراءة على التفسير مخالفة للمصحف؛ ولأن القرآن لا يؤخذ بأخبار الآحاد» اهـ (٢).

== قلت : وللاثر شواهد منها :

١ - عن قتادة قال : «في قراءة أبي بن كعب: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى».

قلت : عزاه في الدر المنثور ٤٨٤/٢ إلى عبد بن حميد وابن جرير.
وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (شاكراً) ١٧٨/٨ بسند صحيح إلى قتادة، وساق المقدسي في كتابه «تحريم نكاح المتعة» ص ١٧٨ هذا الأثر من طريق عبد بن حميد بسند صحيح إلى قتادة.

٢ - عن سعيد بن جبيرة قال : «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى» وقال : «هذه قراءة أبي بن كعب».

قلت : أخرجه ابن أبي داود في المصاحف ص ٦٣ وسنده صحيح إلى ابن جبيرة وأورده المقدسي في كتاب «تحريم نكاح المتعة» ص ١٧٨ بسنده من طريق عبد بن حميد دون قوله : «وقال : هذه قراءة أبي بن كعب».

٣ - قال في الدر المنثور ٤٨٤/٢ : «أخرج عبد الرزاق عن عطاء : «أنه سمع ابن عباس يقرأها : «فما استمتعتم به منهن إلى أجل فأتوهن أجورهن» وقال ابن عباس : في حرف أبي : «إلى أجل مسمى».

قلت : لم أجد هذه الرواية في تفسير الصنعاني المطبوع ولا في مصنفه والله أعلم.
(١) تفسير الطبري (شاكراً) ١٧٩/٨.

==

قال نصر بن إبراهيم المقدسي (ت ٤٩٠هـ) : «إن قوله: «إلى أجل مسمى» ليس بقرآن، وليس بمنزل من الله تعالى؛ لأنه ليس بين الدفتين، ولو كان من القرآن لوجدناه فيه ولجأزت قراءته في المحاريب، وبين أظهر الناس، ولما لم يجز ذلك بحال؛ علم أنه ليس من القرآن، وكفانا بالمصحف واجماع الصحابة، ألا ترى أنا أجمعنا على أن سورتي القنوت ليستا من القرآن و إن كانتا في قراءة أبي، فكذلك هذا مثله» اهـ (١).

(٢) الايضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص ٢٢٢.

(١) تحريم نكاح المتعة للمقدسي ص ١٧٩.

الموضع الحادي والعشرون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا، وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ النساء: ٩٤.

قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ الحجرات: ٦.

تنوعت القراءات في قوله ﴿فتبينوا﴾ :

فقرأ حمزة والكسائي وخلف : ﴿فتثبتوا﴾ بثاء مثلثة بعدها باء موحدة، بعدها تاء مثناة فوقية ووافقهم الحسن والأعمش.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم ويعقوب وأبوجعفر: ﴿فتبينوا﴾ بالباء والنون، ووافقهم ابن محيصة واليزيدي (١).

معنى القراءات :

القراءة بالثاء: ﴿فتثبتوا﴾، أي: تأنوا، ولا تقدموا وقفوا حتى يتضح الحال، أعم من أن يكون منشأ ذلك الاتضاح الاستطلاع وبذل الجهد في التعرف؛ فليس في الآية إلا طلب التأني والتوقف حتى تتبين الأمور.

القراءة بالباء: ﴿فتبينوا﴾، أي: افحصوا واكشفوا حتى تتبين لكم الحقيقة، ففيها أمر زائد على مجرد التوقف والتأني وهو الحث على التبين وكشف الحال (٢) والله أعلم.

حاصل القراءات :

يطلب الله من المؤمنين إذا نقل اليهم فاسق نبأ أن لا يكتفوا بمجرد التوقف والتأني إلى أن ينجلي الأمر ولو بنفسه بل يطلب منهم بذل الجهد في طلب الحقيقة والبيان ما يحصله ويعجل به (٣).

قال مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) : «التبين يعم التثبت؛ لأن كل من تبين أمراً فليس يتبينه إلا بعد التثبت، ظهر له ذلك الأمر أو لم يظهر، لا بد من التثبت مع التبين، ففي التبين معنى التثبت، وليس كل من تثبت في أمر تبينه وقد يتثبت ولا يتبين له الأمر، فالتبين أعم من التثبت في المعنى لاشتماله على التثبت» اهـ (٤).

(١) إرشاد المبتدي ص ٢٨٧ الإتحاف ص ١٩٣.

(٢) حجة القراءات ص ٢٠٩.

(٣) دراسات في مناهج المفسرين ١/ ٦٦.

(٤) الكشف ١/ ٣٩٤.

وتلاحظ الأمور التالية :

(١) هذا التنوع في قراءة ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ (١) تكرر في جميع مواضع ورودها في القرآن العظيم، ومجموعها ثلاثة مواضع وهي التالية :

الأول والثاني: في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا، وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنْ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ النساء: ٩٤.

الموضع الثالث : في قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ الحجرات: ٦.

وما ذكر هنا من معنى القراءات شامل لجميع هذه المواضع .

(٢) أن في مجيء القراءة بـ ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ بالثاء - مع أن قراءة ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ مستلزمة لها في المعنى ويمكن أن تغني عنها - تأكيداً على التأنى في الأمور وعدم العجلة فيها، خاصة ماوردت فيه الآيتان وهو حال ملاقة من يلقي السلام علينا ولا نعرف عنه شيئاً فيما إذا ضربنا في سبيل الله، وحال الفاسق ينقل إلينا خبراً؛ فلا نتعجل الحكم ونتأني فيهما مع السعي لطلب البيان وهذا حق فإن «التأني من الرحمن والعجلة من الشيطان» (٢).

وفيه تأكيد على أن طريق التبين والوصول إلى الحقيقة هو التأنى والتثبت كما قيل : «إذا تأنيت أصبت أو كدت تصيب، وإذا استعجلت أخطأت أو كدت تخطيء» (٣) والله أعلم.

(١) المبسوط ص ١٥٧ النشر ٢٥١/٢.

(٢) اقتباس من حديث حسن الإسناد عن أنس .

أخرجه أبويعلی في مسنده ٢٤٨/٧ حديث رقم (٤٢٥٦) والبيهقي في السنن الكبرى ١٠٤/١٠ بهذا اللفظ.

والحديث حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤٠٤/٤ حديث رقم (١٧٩٥)، وحسنه لغيره محقق مسند أبي يعلى.

قال في مجمع الزوائد ١٩/٨ عن هذا الحديث: «أخرجه أبويعلی ورجاله رجال الصحيح» هـ.

قلت : في السند سعد بن سنان ويقال: سنان بن سعد لم يخرج له في الصحيح، وإنما أخرج له أصحاب السنن إلا النسائي كما في التقريب ص ٢٣١.

(٣) روي مرفوعاً ولا يصح. أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠٤/١٠ ومدار السند عنده على سعيد بن سماك بن حرب قال أبوحاتم كما في ميزان الاعتدال ١٤٣/٢: «متروك الحديث» هـ. وحكم الألباني بضعفه في ضعيف الجامع ١٦١/١-١٦٢.

الموضع الثاني والعشرون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ النساء: ١١٧.

هكذا قرأ عامة القراء العشرة: ﴿إِلَّا إِنَاثًا﴾ .

وقرأت عائشة رضي الله عنها: «إلا أوثانا».

وروى عنها: «أثنا» بقاء قبل النون .

وروي عنها وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أثنا» النون قبل الثاء، وبه قرأ أبوحيوة والحسن وعطاء وأبو العالية.

وقرأ ابن عباس: «إلا وثنا».

وقرأ عطاء بن أبي رباح: «إلا أثنا».

وقرأ سعد بن أبي وقاص وعبدالله بن عمر وأبو المتوكل وأبو الجوزاء: «إلا وثنا» بفتح الواو والثاء من غير همزة.

وقرأ أيوب السخيتاني: «إلا وثنا» بضم الواو والثاء من غير همزة كـ«شق» (١).

عن هشام بن عروة عن أبيه قال كان في مصحف عائشة: «إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَوْثَانًا» (٢).

وأخرج الخطيب في تاريخه عن عائشة قالت : «قرأ رسول الله ﷺ: «إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَنْثَى» (٣).

قلت : هذه قراءة شاذة مخالفة لرسم المصحف .

معنى القراءات :

القراءة المتواترة: ﴿إِنَّاثًا﴾ فيه خمسة أقوال :

الأول : أن الإناث بمعنى الأموات، قاله ابن عباس والحسن في

(١) المحتسب ١٩٨/١ زاد المسير ٢٠٢/٢ البحر المحيط ٣٥٢/٣ .

(٢) إسناده صحيح .

أخرجه الطبري في تفسيره (دار الفكر) ٢٨٠/٥، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٤٨ تحت رقم (٥٩٢) (وفي طبعة دار الكتب العلمية ص ١٧٠)، وأورده ابن أبي حاتم في العلل ٧٩/٢ ونقل عن أبي حاتم تكذيبه للخبر مرفوعاً ثم قال: «وعن عروة عن عائشة: «أنها قرأت: «إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَوْثَانًا» صحيح، وهو غير ذلك (يعني المرفوع)» اهـ.

وعزه في الدر المنثور ٦٨٧/٢ إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف.

(٣) تاريخ بغداد ٢٠٢/٢ .

رواية وقتادة، قال الحسن: كل شيء لا روح فيه كالحجر والخشبة فهو اناث.
قال الزجاج (ت٣١١هـ): «والموات كلها يخبر عنها كما يخبر عن المؤنث،
تقول من ذلك: الأحجار تعجبني والدراهم تنفعني .

الثاني : أَنَّ الإناث الأوثان، وهو قول عائشة ومجاهد.
الثالث : أَنَّ الإناث اللات والعزى ومناة، كلهن مؤنث وهذا قول
أبي مالك وابن زيد والسدي.

وروى أبو رجاء عن الحسن قال: «لم يكن حي من أحياء العرب إلا ولهم
صنم يسمونه أنثى بني فلان، فنزلت هذه الآية».

قال الزجاج : «والمعنى ما يدعون إلا ما يسمونه باسم الأنثى» اهـ
قلت : يشير رحمه الله إلى أن تلك الأقوال هذا معناها وذلك موافقة
لقوله تعالى: ﴿الْكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى . تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ النجم: ٢١-٢٢.

الرابع : أنها الملائكة، كانوا يزعمون أنها بنات الله.

الخامس : أن مع كل صنم شيطانة (جنية) (١).

ومعنى القراءة الشاذة : «أثنا»، «أناثا» :

قال أبو الفتح ابن جني (٣٩٢هـ): «أما «أثن» فجمع «وثن» وأصله «وثن»
فلما أنضمت الواو ضما لازما قلبت همزة كقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا
الرُّسُلُ أَقْبَتَتْ﴾ [المرسلات: ١١] وكقولهم في «وجوه»: «أجوه»، وفي «وعد»: «أعد»،
وهذا باب واسع . . .

ومن قال: «أناثا» بسكون الثاء فهو كـ «أسد» بسكون السين . . .
وأما «أناثا» بتقديم النون على الثاء فينبغي أن يكون جمع «أنيث»
كقولهم: سيف أنيث الحديد أي: لين وذلك كقراءة العامة: ﴿إِلَّا أَنَاثًا﴾ يعني به
الأصنام.

قال الحسن : الإناث كل شيء ليس فيه روح خشبة يابسة وحجر يابس . . .
(قال ابن جني:) وعليه القراءة: «إلا أوثانا». اهـ (٢).

حاصل القراءات :

يُشْنَعُ الله سبحانه وتعالى على الكافرين بأنهم يعبدون أحجارا وأخشابا
ميتة، يسمونها تسمية الأنثى فهي اللات والعزى ومناة، وقد يكون مع كل صنم
منها شيطانة، فهي أوثان أناث أناث والله أعلم.

(١) زاد المسير ٢/٢٠٣ الدر المنثور ٢/٦٨٦-٦٨٧.

(٢) المحتسب ١/١٩٨-١٩٩ باختصار.

وتلاحظ الأمور التالية :

- (١) اختلفت في تفسير الآية بحسب تنوع القراءات فيها.
- (٢) قال الشوكاني (١٢٥٠هـ) : «وعلى جميع هذه القراءات فهذا الكلام خارج مخرج التوبيخ للمشركين والإزراء عليهم والتضعيف لعقولهم لكونهم عبدوا من دون الله نوعا ضعيفا» اهـ (١).

(١) تفسير الشوكاني ٥١٦/١.

الموضع الثالث والعشرون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿... فَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ المائدة: ٦.

تنوعت القراءات في اللام من قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ :

فقرأ أبو جعفر وأبو عمرو وابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر وحمزة وخلف: ﴿وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم﴾ بالخفض .

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص والكسائي ويعقوب: ﴿وأرجلكم﴾ بالنصب، وهذه قراءات متواترة (١).

وقرأ الحسن: «وأرجلكم» بالرفع (٢).

معنى القراءات :

معنى الآية على قراءة الخفض أغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق و امسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين؛ فيكون حكم الأرجل هو المسح لأنها معطوفة على: ﴿رُءُوسِكُمْ﴾ لفظاً ومعنى ويحتمل أنها معطوفة لفظاً لا معنى؛ فيكون حكم الأرجل الغسل وخفضت على الجوار (٣).

ومعنى الآية على قراءة النصب: فأغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين و امسحوا برؤوسكم، فيكون حكم الأرجل هو الغسل، لأنها معطوفة على: ﴿وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ وإنما أدخل مسح الرأس بين المغسولات محافظة على الترتيب، لأن الرأس يمسح بين المغسولات (٤)، ومن هنا أخذ جماعة من العلماء وجوب الترتيب في أعضاء الوضوء حسبما في الآية الكريمة (٥).

ومعنى الآية على قراءة الرفع: اغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق و امسحوا برؤوسكم، وأرجلكم مغسولة، فيكون حكم الأرجل الغسل؛ لأن ﴿أرجلكم﴾ مرفوعة على الابتداء والخبر محذوف أي: اغسلوها أو مغسولة أو نحو ذلك (٦)، ومعنى هذه القراءة راجع إلى القراءة المتواترة بالنصب.

(١) المبسوط ص ١٦١ النشر ٢/٢٥٤.

(٢) الاتحاف ص ١٩٨ القراءات الشاذة ص ٤٢.

(٣) حجة القراءات ص ٢٢٣.

(٤) أضواء البيان ٧/٢.

(٥) تفسير البضاوي ص ١٤٢، أطال ابن كثير في تفسيره ٢٥/٢ تقرير ذلك، وفي شرح

لامية العجم للصفدي ٣٦٤/١ فائدة حول هذا.

(٦) المحتسب ٢٠٨/١ تفسير البضاوي ص ١٤٢.

حاصل القراءات :

إذا اعتبرنا قراءة الخفض من باب الخفض على الجوار فهو عطف لفظي لا معنوي؛ إذ العرب تخفض الكلمة لمجاورتها للمخفوض، مع أن إعرابها النصب أو الرفع (١)، فلو اعتبرنا القراءة من هذا الباب رجع معنى هذه القراءة إلى القراءة بالنصب، فلا تفيد عندها القراءات إلا حكما واحدا وهو غسل الرجلين، فتكون قراءة النصب مبينة لقراءة الخفض.

وعلى هذا : فإن فائدة مجيء القراءة بالخفض مع رجوع معناها إلى قراءة النصب هو التنبيه على أنه ينبغي أن يقتصد في صب الماء عليهما عند غسلهما، ويغسلا غسلا يقرب من المسح (٢) أما لو لم تعتبر قراءة الخفض من باب الخفض على الجوار فإنه يكون أثر اختلاف القراءات اختلاف حكم الأرجل، فهي تغسل على قراءة النصب، وتمسح على قراءة الخفض ، وعلى هذا فإن القراءات مختلفة، ويجمع بينها بأحد الوجوه التالية :

الوجه الأول : أن يقال: المراد بمسح الرجلين غسلهما.

قال أبو اسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ) عن قراءة: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالخفض : «الخفض على الجوار لا يجوز في كتاب الله عزوجل، وإنما يجوز ذلك في ضرورة الشعر» (٣)، ولكن المسح على الرجل لو كان مسحا كمسح الرأس لم يجز تحديده إلى الكعبيين كما جاز التحديد في اليدين إلى المرافق؛ قال الله عزوجل: ﴿وَأَمْسَحُوا برؤوسكم﴾ [المائدة: ٦] بغير تحديد في القرآن، وكذلك التيمم: ﴿فَامْسَحُوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ [المائدة: ٦] من غير تحديد فهذا كله يوجب غسل الرجلين» اهـ (٤).

قال مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ): «والعرب تقول: تمسحت للصلاة، أي:

(١) أضواء البيان ٨/٢.

(٢) تفسير البيضاوي ص ١٤٢.

(٣) وكذا أنكر النحاس الخفض على الجوار وقال: «هذا القول غلط عظيم لأن الجوار لا يجوز في الكلام أن يقاس عليه وإنما هو غلط ونظيره الإقواء» اهـ إعراب القرآن للنحاس ٩/٢. والإقواء: اختلاف إعراب القوافي. لسان العرب ٢٠٨/١٥.

قلت : قد حقق الشنقيطي أن الخفض بالجوار أسلوب من أساليب العربية وأنه جاء في القرآن. أضواء البيان ٨/٢-١٢.

وانظر ما كتبه د/عبدالفتاح الحموز في كتابه «الحمل على الجوار في القرآن الكريم» خاصة ص ٥٠-٥٢.

(٤) انظر لسان العرب ٩٣/٢.

توضأت لها، وقد قال أبو زيد: «إن المسح خفيف الغسل»، وقد قال أبو عبيد (١) في قوله تعالى: ﴿فَطْفَقَ مَسْحًا﴾ [سورة قص: ٣٣]: «إن معنى المسح الضرب»؛ فقد صار المسح يستعمل في الغسل وكذلك مسح الأرجل مستعمل في الغسل نفسه» اهـ (٢).

قلت: ولا مانع من كون المراد بالمسح في الأرجل هو الغسل، والمراد به في الرأس المسح الذي ليس بغسل وليس من حمل المشترك على معنييه ولا من حمل اللفظ على حقيقته ومجازه، لأنهما مسألتان كل منهما منفردة عن الأخرى مع أن التحقيق جواز حمل المشترك على معنييه (٣).

قال ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): «اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معناه إذ قد جوز ذلك أكثر الفقهاء المالكية والشافعية والحنبلية وكثير من أهل الكلام» اهـ (٤).

قلت: وعلى هذا فالحاصل من اختلاف القراءات حكم واحد هو غسل الأرجل مع تنبيه قراءة الخفض على عدم الإسراف في غسل الرجلين، وخصص بذلك لأنه مظنة لصب الماء الكثير والله أعلم.

الوجه الثاني: أن يقال: المراد عدم الاكتفاء بمجرد الغسل، بل يجمع بين ذلك باليد والغسل الذي هو إسالة الماء على العضو.

قال الطبري (ت ٣١٠هـ): «والصواب من القول عندنا: أن الله عز ذكره أمر بعموم مسح الرجلين بالماء في الوضوء، كما أمر بعموم مسح الوجه بالتراب في التيمم، وإذا فعل ذلك بهما المتوضي كان مستحقا اسم: «ماسح غاسل»؛ لأن «غسلهما»: إمرار الماء عليهما أو أصابتهما بالماء، و«مسحهما»: إمرار اليد أو ما قام مقام اليد عليهما، فإذا فعل ذلك بهما فاعل فهو «غاسل ماسح».

ولذلك - من احتمال «المسح» المعنيين اللذين وصفت من العموم والخصوص اللذين أحدهما مسح ببعض، والآخر مسح بالجميع - اختلفت قراءة القراءة في قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ فنصبها بعضهم توجيهها منه ذلك إلى أن الفرض فيهما الغسل، وإنكارا منه المسح عليهما، مع تظاهر الأخبار عن

(١) كذا في المطبوعة ويغلب على ظني أنها تصحيف صوابها: «أبو عبيدة» أعني: معمر بن المثنى، وانظر «مجاز القرآن» ١٨٣/٢.

قلت: وهذا القول في معنى المسح في قوله: ﴿فَطْفَقَ مَسْحًا﴾ لا يتفق مع سياق الآية وسباقها ولحاقها.

(٢) الكشف ٤٠٦/١.

(٣) أضواء البيان ١٣/٢.

(٤) مقدمة في أصول التفسير ص ٥٠-٥١.

رسول الله ﷺ بعموم مسحهما بالماء.

وخفضها بعضهم توجيهها منه ذلك إلى أن الفرض فيهما المسح .
ولما قلنا في تأويل ذلك - أنه مَعْنَى به عموم مسح الرجلين بالماء - كره
من كره للمتوضيء الاجتزاء بإدخال رجليه في الماء دون مسحهما بيده أو
بما قام مقام اليد، توجيهها منه قوله: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى
الْكَعْبَيْنِ﴾ إلى مسح جميعهما عاما باليد، أو بما قام مقام اليد، دون بعضهما
مع غسلهما بالماء كما قال ابن عمر لما سئل عن الرجل يتوضأ ويدخل رجليه
في الماء قال: «ما أعد ذلك طائلا».

وأجاز ذلك من أجاز توجيهها منه إلى أنه معني به الغسل كما قال
الحسن في الرجل يتوضأ في السفينة قال: «لا بأس أن يغمس رجليه غمسا».
فإذا كان في «المسح» المعنيان اللذان وصفنا؛ من عموم الرجلين بالماء،
وخصوص بعضهما به، وكان صحيحا أن مراد الله من مسحهما العموم وكان
لعمومهما بذلك معنى «الغسل» و «المسح»؛ فبيّن صواب القراءتين جميعا،
أعني: النصب في «الأرجل» والخفض؛ لأن في عموم الرجلين بمسحهما بالماء
غسلهما وفي إمرار اليد وما قام مقام اليد عليهما مسحهما.
فوجه صواب قراءة من قرأ ذلك نصبا، لما في ذلك من معنى عمومها
بإمرار الماء عليهما.

وجه صواب قراءة من قرأ خفضا لما في ذلك من إمرار اليد عليهما أو
ما قام مقام اليد مسحاً بهما» اهـ (١).

قلت : هذا رأي أبي جعفر الطبري رحمة الله عليه في الجمع بين
القراءتين وخلاصته أن قراءة النصب يراد بها غسل الرجلين، وقراءة
الخفض يراد بها المسح مع الغسل يعني ذلك باليد أو غيرهما .
ولعل حكمة هذا في الرجلين دون غيرهما أن الرجلين هما أقرب أعضاء
الإنسان إلى ملابس الأقدام لمباشرتهما الأرض فناسب ذلك أن يجمع لهما
بين الغسل بالماء والمسح أي ذلك باليد ليكون ذلك أبلغ في التطهر
والتنظيف (٢).

الوجه الثالث : المراد بقراءة الجر المسح لكن النبي ﷺ بين
أن ذلك «المسح» لا يكون إلا على الخف.

وعليه فالآية على قراءة النصب تشير إلى غسل الرجلين في الأحوال
العادية، وتشير إلى المسح على الخف على قراءة الخفض في حال لبسهما

(١) تفسير الطبري (دار الفكر) ١٣٠/٦ باختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٢٦/٢ أضواء البيان ١٤/٢.

على طهارة كما دلت السنة .

والمسح على الخفين متواتر عن رسول الله ﷺ (١) لم يخالف فيه إلا من لا عبرة بخلافه.

وحاصل اختلاف القراءتين على هذا الوجه الدلالة على حكمين شرعيين ولكن في حالين مختلفين (٢).
وتلاحظ الأمور التالية :

(١) أن بعض أهل العلم (٣) لم يحقق النقل عن ابن جرير الطبري فنقل عنه التخيير بين الغسل والمسح، وأنه جعل القراءتين كالروايتين في الخبر يعمل بهما إذا لم يتناقضا.

ونقل آخرون عنه أنه أوجب غسلهما للأحاديث وأوجب مسحهما للآية.
وهذا مخالف كما ترى لكلامه الذي نقلته قبل قليل بطوله.

قال العماد ابن كثير (ت ٧٤٤هـ): «ومن نقل عن أبي جعفر ابن جرير أنه أوجب غسلهما للأحاديث وأوجب مسحهما للآية؛ فلم يحقق مذهبه في ذلك، فإن كلامه في تفسيره إنما يدل على أنه أراد أنه يجب ذلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء... وعبر عن ذلك بالمسح فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحهما، فحكاه من حكاه كذلك، ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء، وهو معذور، فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل سواء تقدمه أو تأخر عليه لاندراجيه فيه وإنما أراد الرجل ما ذكرته والله أعلم.

ثم تأملت كلامه أيضا فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين في قوله: ﴿وَأَرْجِلَكُمْ﴾ خفضا على المسح وهو الدلك، ونصبا على الغسل، فأوجبهما أخذا بالجمع بين هذه وهذه» اهـ (٤).

(٢) جَوَّز بعضهم (٥) في الجمع بين قراءة: ﴿وَأَرْجِلَكُمْ﴾ بالخفض والنصب أن تكون القراءة بالخفض معطوفة على: ﴿بِرُؤُوسِكُمْ﴾ لفظا ومعنى فيكون حكم الأرجل المسح ثم نسخ المسح بوجوب الغسل.
قلت : وهذا لا يصح، لأنه دعوى لا دليل عليها، ولا يصار إلى النسخ مع

(١) نظم المتناثر ص ٤٢.

(٢) أحكام القرآن للشافعي ٥٠/١ مناهل العرفان ١٤١/١ أضواء البيان ١٤/٢.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٧٧/٢ تفسير القرطبي ٩٢/٦.

(٤) تفسير ابن كثير ٢٦/٢.

(٥) القلائد ص ٣٨ المذهب ١٨٠-١٨١ الحمل على الجوار ص ٥٢.

إمكان الجمع والتوفيق(١)، وهو هنا متيسّر بالأوجه الثلاثة التي أوردتها سابقا والحمد لله.

(٣) القراءتان متفقتان على حكم الغسل للأرجل من خلال الأوجه الثلاثة التي أوردتها، حتى الوجه الثالث لم ينف غسل الرجلين في الوضوء لكنه أفاد حكمها حال لبس الخفين، وأنه يجزيء المسح عليهما، ويستفاد من اختلاف القراءتين مايلي:

(أ) التنبيه إلى عدم الاسراف في الماء عند غسل الرجلين.

(ب) الاعتناء بذلك الرجلين بالماء والمسح عليهما به.

(ج) جواز المسح على الخفين، والأحاديث فيه متواترة(٢).

(١) نذكر ذلك العلماء في مختلف الحديث وهو منطبق على اختلاف القرآن ومشكله. «مختلف الحديث وموقف النقاد منه» ص ٣٧٤.

(٢) نظم المتناثر ص ٤٢.

الموضع الرابع والعشرون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافِتَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ المائدة: ١٣.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿قَاسِيَةً﴾ :

فقرأ حمزة والكسائي: ﴿قلوبهم قسيّة﴾ بغير ألف وتشديد الياء.

وقرأ سائر العشرة: ﴿قلوبهم قاسية﴾ بالالف خفيفة الياء (١).

معنى القراءتين :

معنى قراءة حمزة والكسائي فيه قولان :

الأول : أن «قسيّة» فعيلة من القسوة، وجاءت على وزن «فعيلة» للمبالغة في الوصف فإن فعيلة أبلغ من فاعل كما أن «عليما» أبلغ في الوصف بالعلم من «عالم»، و«سميعا» أبلغ من «سامع» (٢).

الثاني : أن «قسيّة» ليست من القسوة، ومعنى قسيّة أي: التي ليست بخالصة الايمان، أي: خالطها كفر فهي فاسدة ولهذا قيل للدرهم التي خالطها غش من نحاس أو غيره: «قسيّة» (٣).

قال الراغب (ت ٥٠٢هـ) : «وقريء ﴿قسيّة﴾ أي: ليست قلوبهم بخالصة من قولهم: درهم قسي؛ وهو جنس من الفضة المغشوشة فيه قساوة، أي: صلابة» اهـ (٤).

ويعلل ذلك السمين (٥) بقوله: «فإن الخالص من الفضة والذهب لين، والمغشوش منها صلب يتعب عند عمله» اهـ (٦).

معنى قراءة باقي العشرة: ﴿قاسية﴾ من القسوة أي: غليظة بائلة عن

(١) المبسوط ص ١٦١-١٦٢ النشر ٢/٢٥٤.

(٢) الكشف ١/٤٠٧ زاد المسير ٢/٣١٢.

(٣) حجة القراءات ص ٢٢٤ المغني في توجيه القراءات ٢/١١.

(٤) المفردات ص ٤٠٤.

(٥) هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف الحلبي الشافعي يعرف بـ«السمين» توفي سنة ٧٥٦هـ مقريء مفسر نحوي فقيه. الدرر الكامنة ١/٣٣٩ معجم المؤلفين ٢/٢١١.

(٦) عمدة الحفاظ ص ٤٥٦.

الايمان قد نزعـت منها الرحمة والرافة، والقسوة في اللغة الغلظة واليبس
وشدة الصلابة(١).

حاصل القراءتين :

إذا كانت ﴿قَسِيَّة﴾ بمعنى ﴿قَاسِيَّة﴾ من القسوة فتكون القراءة ﴿قَسِيَّة﴾
مفيدة للمبالغة في وصف القسوة، فأثر تنوع القراءات عندها: تأكيد المعنى.
وإذا كانت ﴿قَسِيَّة﴾ ليست بمعنى ﴿قَاسِيَّة﴾ فهنا تكاملت القراءتان في
تأكيد المعنى، و وصف بعدهم عن قبول الحق وقساوة قلوبهم؛ فهم يحملون
قلوبا فاسدة يخالطها الكفر، فهي كالدرهم القسوة مغشوشة وصلبة قاسية.

(١) لسان العرب ١٥/١٨٠-١٨١.

الموضع الخامس والعشرون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ المائدة: ٢٣.

هكذا قرأ عامة العشرة: ﴿يخافون﴾ بفتح الياء .

وقرأ ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبورجاء وأيوب: «يخافون» بضم الياء (١).

وفي بعض القراءة: «يخافون أنعم الله عليهما» (٢).

عن قتادة في قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ قال: في بعض القراءة: «يخافون الله أنعم الله عليهما» (٣).

عن ابن عباس «أنه قرأ: «قال رجلان من الذين يخافون» بضم الياء» (٤).

(١) معاني القرآن الكريم للنحاس ٢٨٩/٢ المحتسب ٢٠٨/١ زادالمسير ٣٢٦/٢.

(٢) تفسير الطبري (دارالفكر) ١٧٧/٦.

(٣) إسناده صحيح إلى قتادة.

أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ١٨٦/١ ومن طريقه أخرجه الطبري في تفسيره (دارالفكر) ١٧٧/٦.

وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤٩/٣ إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) إسناده حسن .

أخرجه الحاكم في المستدرک ٢٣٧/٢ من طريق يزيد بن هارون عن أصبغ بن زيد الجهني الوراق عن القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به، ولفظه: «عن سعيد بن جبير قال: سألت عبدالله بن عباس رضي الله عنهما عن قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠] في حديث يبلغ به النبي ﷺ : «قال رجلان من الذين يخافون» برفع الياء».

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه» اهـ ووافقه الذهبي.

قلت : فهذا الأثر جزء من حديث الفتون، وحديث الفتون ساقه بطوله النسائي في تفسيره ٤١/٢-٦٢ وأخرجه مقتصرًا على بعضه الطبري في تفسيره ١٦٤/١٦-١٦٧ وكذا رواه مختصرًا الطحاوي في مشكل الآثار ٦/١-٧ وأورد جملة من طرقه في تاريخ واسط ص ٧٨ وأشار إلى الحديث ولم يورد سوى طرفا يسيرا منه، وأورده أبويعلى الموصلي في مسنده ١٠/٥-٢٩ تحت رقم (٢٦١٨) جميعهم من طريق يزيد بن هارون عن أصبغ بن يزيد عن القاسم عن أبي أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

ولفظ رواية النسائي: «...قال رجلان من الذين يخافون» قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم من الجبارين آمنّا بموسى وخرجا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون من ما رأيتم من أجسامهم وعددهم فإنهم لا قلوب لهم و لا منعة عندهم فادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، ويقول أناس: إنهما من قوم

معنى القراءات :

معنى قراءة العشرة: «يخافون» بنصب الياء فيه أقوال:

الأول : أنهم يخافون الله وحده.

الثاني : أنهم يخافون الجبارين ولم يمنعهم خوفهم من قول الحق (١)

الثالث : يخافون ضعف بني اسرائيل وجبنهم (٢).

معنى القراءة بضم الياء: «يخافون» فيه وجوه :

الأول : أن الرجلين كانا من الجبارين الذين يخافهم بنو

اسرائيل أمنا بموسى ﷺ واتباعه وأنعم الله تعالى عليهما بالايمن (٣).

ثانيها : أن الرجلين كانا من قوم موسى عليه الصلاة والسلام

ومعنى قوله «يخافون» بضم الياء أي: يرهبون ويخافون ويتقون لما لهم في

نفوس الناس من العفة والورع والستر، وذلك أنه من كان في النفوس كذلك

رهب واحتشم وأطيع وأعظم لأن من أطاع الله سبحانه أكرم وأطيع ومن

عصاه أمتهن وأضيع.

ثالثها : أن الرجلين كانا من قوم موسى عليه الصلاة والسلام

ومعنى «يخافون» أي: يخيفون بأوامر الله تعالى ونواهيته وزجره ووعيده،

فيخافون من أخاف (٤).

= موسى.

قلت : يزيد بن هارون هو السلمي أبو خالد الواسطي ثقة متقن عابد كما في

«التقريب» ص ٦٠٦.

وأصبع بن يزيد الجهني صدوق يغرب كما في «التقريب» ص ١١٣.

والقاسم بن أبي أيوب هو الأسدي الأعرج الواسطي ثقة كما في «التقريب» ص ٤٤٩.

والحديث أورده في مجمع الزوائد ٦٦-٥٦/٧ وقال: «رواه أبو يعلى ورجاله رجال

الصحيح، غير أصبع بن زيد والقاسم ابن أبي أيوب وهما ثقتان».

وأورده ابن كثير في تفسيره ١٤٨/٣-١٥٣ وقال: «وهو موقوف من كلام ابن عباس

وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما مما أبيع نقله

من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره - والله أعلم - وسمعت شيخنا الحافظ

أبالحجاج المزي يقول ذلك أيضا»هـ.

قلت : والقراءة التي نقلت عن ابن عباس فيه ليست من الإسرائيليات قطعا.

وعزاه في الدر المنثور ٥٦٩/٥ إلى ابن أبي عمر العدني في مسنده وعبد بن حميد

وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(١) زادالمسير ٣٢٦/٢.

(٢) تفسير القرطبي ١٢٧/٦.

(٣) البحرالمحيط ٤٥٥/٣.

(٤) المحتسب ٢٠٨/١-٢٠٩.

ومعنى القراءة الأخيرة ظاهر.
حاصل القراءات :

إذا اعتبرنا في معنى القراءتين أن الرجلين كانا من قوم موسى عليه الصلاة والسلام يتحصل المعنى التالي: أن الرجلين كانا يخافان الله عزوجل فخوف الله منهما عباده بأن جعل لهما في نفوس الناس رهبة ومكانة وهيبة على حد قولهم: «من خاف الله خف منه».

وعلى هذا المعنى يكون في الآية بالقراءتين إشارة إلى ثمرة عاجلة من ثمار الخوف من الله تعالى.

وأما إذا اعتبرنا في معنى القراءتين أن الرجلين كانا من الجبارين آمنّا بموسى عليه الصلاة والسلام فيتحصل المعنى التالي: أن الرجلين كانا يخافان الله تعالى مع كونهما من القوم الجبارين الذين يخافهم بنو اسرائيل، ولا مانع من المعنى الآخر وهو كونهما يخافون لصلاحهم وورعهم وتقواهم.

فيكون في قراءة عبر بالسبب وفي الأخرى عبر بالمسبب والله أعلم.
لكن إذا اعتبرنا تلك القراءة التي جاء فيها التصريح بالمفعول: «يخافون أنعم الله عليهما» فإنه يتحصل المعنى التالي في القراءة التي جاءت بنصب الياء (يَخَافُونَ) يكون المعنى: أنهم يخافون الله كما جاء صريحا في القراءة الأخرى.

وفي القراءة بضم الياء: «يخافون» يكون المعنى: أن بني اسرائيل يخافونهم لما جعله الله تعالى في قلوبهم من الهيبة والاحلال لهما لتقواهما وورعهما وخوفهما من الله تعالى.

ويلاحظ ما يلي :

المعنى الثاني والثالث من الأقوال في القراءة المتواترة لا ينسجمان مع القراءة الشاذة: «يخافون الله أنعم الله عليهما»، وكذا المعنى الأول في القراءة الواردة عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما.

الموضع السادس والعشرون :
قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المائدة: ٣٠.

هكذا قرأ عامة العشرة: ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ بتشديد الواو.
وقرأ الحسن بن عمران وأبو واقد والجراح ورويت عن
الحسن البصري: «فطاوعت له نفسه» (١).
معنى القراءات :

معنى قراءة الجمهور: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾، أي: حسنته له وسهلتها عليه
والأقوال المنقولة في المعنى متقاربة وهي (٢):
الأول : فطوعت له تابعت على قتل أخيه. قاله ابن عباس رضي الله
عنهما.

الثاني : فطوعت له شجعته. قاله مجاهد.

الثالث : فطوعت له زينته. قاله قتادة.

الرابع : فطوعت له رخصته. قاله أبو الحسن الأخفش.

الخامس : أن «طوعت» فعلت من الطوع، والعرب تقول: طاع لهذه
الظبية أصول هذا الشجر، وطاع له كذا، أي: أتاه طوعاً، حكاه الزجاج عن
المبرد (٣).

وقال ابن قتيبة: شايعته وانقادت له، يقال: لساني لايطوع بكذا أي: لا
ينقاد (٤).

معنى القراءة الشاذة: «فطاوعت له نفسه» قال أبو الفتح ابن جني
(ت ٣٩٢هـ): «ينبغي - والله أعلم - أن يكون هذا على أن قتل أخيه جذبه إلى
نفسه ودعاه إلى ذلك فأجابته نفسه وطاوعت» اهـ (٥).

قلت : وفي هذه القراءة إشعار بأن «قتل أخيه» زَيْنٌ لنفسه فطاوعت نفسه
وأجابت، ففيها إشارة إلى دور الشيطان لعنه الله في ذلك أو فعل صاحب هذه
النفس في تسويق هذه المعصية عليها.

(١) المحتسب ٢٠٩/١.

(٢) زاد المسير ٣٣٧/٢.

(٣) معاني القرآن وأعرابه ١٦٧/٢.

(٤) تفسير غريب القرآن ص ١٤٢.

(٥) المحتسب ٢٠٩/١.

حاصل القراءات :

أثبتت القراءة المتواترة تزيين النفس لصاحبها المعصية كما أثبتت القراءة الشاذة فعل صاحب النفس في تسويغ هذه المعصية على نفسه، فكأن الآيات تشير إلى حوار نفسي عنيف دار داخل نفس هذا الأخ قبل وقوعه في معصية قتل أخيه و لا تكاد تخلو جريمة من سبق هذا الحوار العاصف والله أعلم .

الموضع السابع والعشرون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ المائدة: ٥٠.

هكذا قرأها العشرة: ﴿أَفَحُكْمَ﴾ بضم الحاء وسكون الكاف.

وقرأها المطوعي عن الأعمش: «أفحكم» بفتح الحاء والكاف والميم (١).
معنى القراءات :

القراءة المتواترة حكم مفرد جمعها أحكام، والمراد استنكار أحكام وشرائع الجاهلية التي ابتدعوها افتراء على الله وشرعه.

القراءة الشاذة حكم مفرد جمعها حكام، والمراد الاستنكار والتشنيع على حكام الجاهلية الذين يشرعون من دون الله أو يقضون بين الناس بشرائع الجاهلية.

حاصل القراءات :

يشنع الله سبحانه وتعالى على أحكام الجاهلية وشرائعها وقوانينها التي لا تحكم بشرع الله وذلك بأسلوب الاستفهام الاستنكاري (٢)، كما بينت القراءة الشاذة أن الوصف بالجاهلية والتشنيع ليس مقصورا على الأحكام والشرائع والقوانين بل هو شامل لجنس الحكام (٣) الذين يرضون بهذه القوانين؛ فهم حكام جاهلية وأحكامهم أحكام جاهلية.

فالقراءة الشاذة تلتقي في المعنى مع القراءة المتواترة في التشنيع على أحكام الجاهلية (٤)، وتزيد عليها في بيان أن هذا الوصف ينسحب على الحكام وليس مقصورا على الأحكام والله أعلم.

ويلاحظ مايلي :

قال أبوحيان الأندلسي (ت: ٧٥٤هـ): «قرأ قتادة والأعمش: «أفحكم» بفتح الحاء والكاف والميم وهو جنس لا يراد به واحد كأنه قيل أحكام الجاهلية وهي إشارة إلى الكهان الذين كانوا يأخذون الطوان وهي رشا الكهان، ويحكمون لهم بحسبه، بحسب الشهوات، أرادوا بسفهم أن يكون خاتم

(١) المحتسب ٢١١/١ الاتحاف ص ٢٠٠ القراءات الشاذة ص ٤٣.

(٢) البحر المحيط ٥٠٤/٣.

(٣) المحتسب ٢١٣/١.

(٤) المحتسب ٢١٣/١.

النبيين حكما كأولئك الحكام» اهـ (١).

قلت : ينبغي أن يتنبه هنا إلى أن المراد بالجاهلية هنا كل حُكْمٍ وَحَكَمٍ يرضى به بدلا عن شرع الله، وما أروع عبارة سيد قطب رحمه الله في تصوير هذا المعنى حيث قال: «إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص؛ فالجاهلية كما يصفها الله ويحددها القرآن هي حكم البشر للبشر؛ لأنها هي عبودية البشر للبشر، والخروج عن عبودية الله، ورفض الوهية الله، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر، وبالعبودية لهم من دون الله...

إن الجاهلية في ضوء هذا النص ليست فترة من الزمان، ولكنها وضع من الأوضاع، هذا الوضع يوجد بالأمس ويوجد اليوم ويوجد غدا، فيأخذ صفة الجاهلية المقابلة للاسلام، والمناقضة للاسلام .

والناس في أي زمان وفي أي مكان إما أنهم يحكمون بشريعة الله دون فتنة عن بعض منها ويقبلونها ويسلمون بها تسليما فهم اذن في دين الله. وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر في أي صورة من الصور ويقبلونها فهم اذن في جاهلية، وهم في دين من يحكمون بشريعته وليسوا بحال في دين الله.

والذي لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم الجاهلية، والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية ويعيش في الجاهلية.

وهذا مفرق الطريق، يوقف الله الناس عليه وهم بعد ذلك بالخيار... ثم يسألهم سؤال استنكار لابتغائهم حكم الجاهلية وسؤال تقرير لأفضلية حكم الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟﴾. اهـ (٢).

(١) البحرالمحيط ٣/٥٠٥.

(٢) في ظلال القرآن ٢/٩٠٤.

الموضع الثامن والعشرون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ المائدة: ٦٧.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ .. رِسَالَتَهُ﴾ :

فقرأ نافع وابن عامر وشعبة عن عاصم وأبوجعفر ويعقوب: ﴿رِسَالَتَهُ﴾
بأثبات ألف بعد اللام مع كسر التاء، على الجمع ووافقهم الحسن.

وقرأ باقي العشرة: ﴿رِسَالَتَهُ﴾ بحذف الألف بين اللام والتاء المنصوبة على الأفراد (١).

معنى القراءات :

القراءة بـ ﴿رِسَالَتَهُ﴾ على الجمع، فيها أنه لما كانت الرسل يأتي كل واحد بضرب من الشرائع المرسله معهم مختلفة حسن جمعه ليدل على ذلك؛ إذ ليس ماجاءوا به رسالة واحدة فجاءت القراءة بالجمع لاختلاف اجناس التشريعات (٢).

والقراءة بـ ﴿رِسَالَتَهُ﴾ على الأفراد فيها أنه لما كانت الرسالة في حقيقتها أمر واحد وهو التوحيد والعبادة لله عزوجل ناسب لها الأفراد، أو لأن الأفراد في رسالة يدل على الكثرة وهي كالمصدر في أكثر الكلام فهي تدل على ما يدل عليه لفظ الجمع.

فإن قيل : إذا كان لفظ «رسالة» يدل على معنى الجمع ﴿رِسَالَتَهُ﴾ فلماذا جاء الجمع ؟.

فالجواب : أنه لما اختلفت أنواع التشريعات التي تتضمنها الرسالة ناسب الجمع.

ويمكن أن يقال : إن الجمع في القراءة بـ ﴿رِسَالَتَهُ﴾ للإشارة إلى أن البلاغ من الرسول ﷺ إنما هو بلاغ عن رسالة الأنبياء السابقين في الجملة، والأفراد في القراءة بـ ﴿رِسَالَتَهُ﴾ للإشارة إلى اتفاق الجميع في رسالة واحدة وهي التوحيد كما قال ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم

(١) المبسوط ص ١٦٣ النشر ٢٥٥/٢ الإتحاف ص ٢٠٢.

(٢) الكشف ٤١٥/١.

في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات (١) أمهاتهم شتى ودينهم واحد (٢)
قال ابن حجر (ت ٨٥٢هـ): «ومعنى الحديث أن أصل دينهم واحد وهو
التوحيد وان اختلفت فروع الشرائع، وقيل: المراد أن أزمينتهم
مختلفة» اهـ (٣).

قلت : دين الرسل واحد ليس في التوحيد فقط وإنما في :
(١) كل جوانب الإيمان.

(٢) كل صنوف الأخلاق أمرا ونهيا.

(٣) أصول العبادات من صلاة وزكاة وصيام .. إلى آخره.

(٤) أصول المعاملات من بيع ونكاح وذبائح وميراث وحدود... إلى
آخره.

وقد وقع التفاوت فقط في صور العبادات وصور المعاملات وهذا معنى
قول الله تبارك وتعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ
كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ
يَنْبَغِي﴾ الشورى: ١٣.

حاصل القراءات :

أشارت قراءة الإفراد: ﴿رِسَالَتِهِ﴾ إلى أن أصل البلاغ هو شيء واحد
وهو تقرير دين الله عزوجل، وأشارت القراءة بالجمع: ﴿رِسَالَاتِهِ﴾ إلى تنوع
الشرائع في الرسالة الواحدة، وإلى رسالة الأنبياء السابقين صلوات الله
وسلامه عليهم جميعا.

ويلاحظ مايلي :

نحو هذا المعنى وارد في اختلاف القراء في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ
حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ الأنعام: ١٠٤ فقرأ ابن كثير وحفص: ﴿رِسَالَتَهُ﴾ بغير
ألف بعد اللام ونصب التاء، وذلك على الإفراد، وقرأ باقي العشرة بإثبات
ألف بعد اللام وكسر التاء على الجمع (٤).

(١) بفتح العين المهملة. فتح الباري ٤٨٩/٦.

(٢) حديث صحيح .

أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله: ﴿واذكر في الكتاب مريم
إذ انتبذت من أهلها﴾ [مريم: ١٦] حديث رقم (٣٤٤٣) واللفظ له، وأخرجه مسلم في
كتاب الفضائل باب فضائل عيسى عليه السلام حديث رقم (٢٣٦٥) بنحوه.

(٣) فتح الباري ٤٨٩/٦.

(٤) المغني في توجيه القراءات العشر ٩٢/٢.

الموضع التاسع والعشرون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يُوَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُوَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ المائدة: ٨٩.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿بِمَا عَقَّدْتُمْ﴾ :

فقرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر برواية هشام وعاصم برواية حفص: ﴿بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ بتشديد القاف ووافقهم ابن محيصن والحسن واليزيدي.

وقرأ عاصم في رواية شعبة وحمزة والكسائي وخلف: ﴿بِمَا عَقَّدْتُمْ﴾ بتخفيف القاف.

وقرأ ابن ذكوان وحده: ﴿بِمَا عَاقَدْتُمْ﴾ بالالف بعد العين (١).
معنى القراءات :

ذهب بعض أهل العلم إلى أن هذه القراءات بمعنى قراءة التخفيف ﴿عَقَّدْتُمْ﴾ تفيد مجرد الفعل (٢).

وذهب آخرون إلى أن كل قراءة تفيد معنى، كما يلي :

معنى القراءة بالتخفيف: ﴿بِمَا عَقَّدْتُمْ﴾ أي: أوجبتم على أنفسكم وعزمت عليها قلوبكم (٣)، فلا تفيد سوى مجرد الفعل دون تكرار.

ومعنى القراءة بالتشديد: ﴿بِمَا عَقَّدْتُمْ﴾ أي: وكدتُم الإيمان ورددتموها، فتفيد تكثير الفعل وتكراره، على معنى عقد بعد عقد (٤).

ومعنى القراءة بالالف: ﴿بِمَا عَاقَدْتُمْ﴾ أي: تكون اليمين من كل واحد

(١) المبسوط ص ١٦٣ الإتحاف ص ٢٠٢.

اختلفت كتب القراءات في نسبة القراءة بالالف: ﴿عَاقَدْتُمْ﴾ لابن عامر؛ فابن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) في «السبعة» ص ٢٤٧ وابن مهران (ت ٣٨١هـ) في «المبسوط» ص ١٦٣ وأبو العز القلانسي (ت ٥٢١هـ) في «إرشاد المبتدي» ص ٢٩٩ ثلاثتهم نسبوا إلى ابن عامر مطلقاً عن راويه القراءة بالالف: ﴿عَاقَدْتُمْ﴾، خالفهم مكي (ت ٤٣٧هـ) في «التبصرة» ص ٣١٧ وأبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) في «التيسير» ص ١٠٠ وابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) في «النشر» ٢/٢٥٥ وغيرهم نسبوا إلى ابن عامر عن راويه ابن ذكوان القراءة بالالف: ﴿عَاقَدْتُمْ﴾، ومن رواية هشام عنه: ﴿عَقَّدْتُمْ﴾ بالتشديد.

قلت : ولعل ذلك لاختلاف طرق الروايات عندهم والله أعلم.

(٢) روح المعاني ١٠/٩ أضواء البيان ١٠٧/٢.

(٣) تفسير الطبري (دار الفكر) ١٣/٧ حجة القراءات ص ٢٣٤.

(٤) تفسير الطبري (دار الفكر) ١٣/٧ معاني القرآن للنحاس ٣٥٢/٢.

للآخر على أمر عقوده، فيكون فعل من اثنين(١).

حاصل القراءات :

بيِّن - والله الحمد - أن قراءة التخفيف فيها رفع ما قد يتوهمه بعضهم من قراءة التشديد وهو ترك الكفارة عمن لم يكرر اليمين، فأفادت قراءة التخفيف أن من حلف وعقد يمينه مرة واحدة لزمه البر أو الكفارة. وقراءة : ﴿بِمَا عَاقَدْتُمْ﴾ تفيد وجوب اليمين المنعقدة بين شخصين ففيها رفع توهم أن اليمين المنعقدة لا تكون إلا من واحد(٢).

ويتحصل من القراءات الأمور التالية :

- (١) أن الحنث باليمين يوجب الكفارة سواء كان عقدا واحدا لمرة واحدة، أم تكرر عقد بعد عقد مع نفسه أم مع غيره ما دام في موضوع واحد.
- (٢) في قراءة التشديد الزام الحالفين الكفارة على عددهم على اعتبار أن التشديد يفيد تكثير الفعل على معنى عقد بعد عقد، أو يكون أراد تكثير العاقدين للأيمان بدلالة قوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ﴾ فخاطب جماعة(٣).

(١) حجة القراءات ص ٢٣٥ تفسير القرطبي ٦/٢٦٦.

(٢) الكشف ٤١٧/١.

(٣) الكشف ٤١٧/١.

الموضع الثلاثون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ الأنعام: ٣٣.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ :

فقرأ نافع والكسائي: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ بالتخفيف.

وقرأ باقي العشرة: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ بالتشديد ووافقهم الحسن والأعمش واليزيدي وابن محيصن (١).

معنى القراءتين :

قليل : القراءتان بمعنى واحد .

وقيل : بينهما فرق كمايلي :

معنى القراءة بالتخفيف: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: لا يجدونك كاذبا لأنهم يعرفونك بالصدق، ولا ينسبوك للكذب (٢).

فتكون القراءة بالتخفيف من باب أحمدت الرجل أي: وجدته محمودا، ودل على صحة ذلك قوله: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: يجحدون ما يعلمون صحته يقينا عنادا منهم.

وحكى الكسائي عن العرب: «أكذبت الرجل» إذا أخبرت أن الذي يحدث به كذب، ليس هو الصانع له، و«كذبت الرجل» إذا أخبرت أنه كذاب (٣).

معنى القراءة بالتشديد: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: لا يقدر أن ينسبك إلى الكذب فيما جنتهم به (٤) لانتفاء ما يترتب عليه من المضار فكأنه قيل: لا يكذبونك تكذيبا يضر لك لأنك لست بكاذب، فتكذيبهم كلا تكذيب (٥).

وقد ذكر في معنى القراءة بالتشديد خمسة أوجه ، وهي :

الأول : لا يكذبونك بحجة، وإنما هو تكذيب عناد وبهت قاله قتادة

والسدي.

الثاني : لا يقولون لك: إنك كاذب لعلمهم بصدقك، ولكن يكذبون ما جئت

به، قاله ناجية بن كعب.

(١) المبسوط ص ١٦٨ النشر ٢٥٧-٢٥٨ الاتحاد ص ٢٠٧.

(٢) الكشف ٤٣٠/١ البحر المحيط ١١١/٤.

(٣) معاني القرآن الكريم للنحاس ٤١٨/٢-٤١٩ الكشف ٤٣٠/١ زاد المسير ٢٩/٣.

(٤) الكشف ٤٣٠/١.

علل مكي هنا بقوله: «لأنه في كتبهم» يعني: أهل الكتاب.

قلت: لكن السورة مكية والظاهر أنه خطاب لأهل مكة ولم يكن معهم كتاب فالأولى ما ذكرت والله أعلم.

(٥) البحر المحيط ١١١/٤.

الثالث : لا يكذبونك في السر، ولكن يكذبونك في العلانية عداوة لك،
قاله ابن السائب ومقاتل (١).

الرابع : لا يقدرّون أن يقولوا لك فيما أنبأت به مما في كتبهم:
كذبت.

قلت : وفي هذا القول نظر لأن السورة مكية والظاهر أنها تتكلم عن
كفار قريش ولا كتب لديهم.

الخامس : لا يكذبونك بقلوبهم؛ لأنهم يعلمون أنك صادق، ذكر القولين
الأخيرين الزجاج (٢).

حاصل القراءات :

تبين القراءتان مدى جحود الكفار، فهم يعلمون علما يقينيا صدق
الرسول ﷺ، فهو عندهم يعرف بـ «الصادق، الأمين» كما يعلمون صدق ما جاء
به في نفوسهم ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل: ١٤، كما
أنهم لا يستطيعون تكذيب ما جاء به الرسول ﷺ.
الحاصل أنهم لا يكذبون الرسول ﷺ في نفسه كما لا يملكون تكذيب ما
جاء به، بمعنى اظهار كذبه فيه، ولكنهم يجحدون .

قال القاضي عياض (ت: ٤٤٥هـ) بعد ذكره لهذه الآية: «ففي هذه الآية منزع
لطيف المأخذ من تسليته تعالى له عليه السلام والطفه به في القول، بأن
قرر عنده أنه صادق عندهم، وأنهم غير مكذبين له، معترفون بصدقه قولاً
واعتقاداً، وقد كانوا يسمونه قبل النبوة: «الأمين» فدفع بهذا التقرير
ارتماض نفسه بسمة الكذب، ثم جعل الذم لهم بتسميتهم جاحدين ظالمين،
فقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

فحاشاه من الوصم، وطوقهم بالمعاندة بتكذيب الآيات حقيقة الظلم، إذ
الحجد إنما يكون ممن علم الشيء ثم انكره، كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا
وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ثم عزاه وآنسه بما ذكره عن قبله ووعده النصر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ
رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَ لَمْ يَبْدَلْ
لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]. «هـ (٣).

(١) زاد المسير ٢٩/٣ البحر المحيط ١١١/٤.

(٢) معاني القرآن وأعرابه للزجاج ٢٤٢/٢.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٣٩/١-٤٠.

الموضع الحادي الثلاثون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ، مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ الأنعام: ٥٧.
تنوعت القراءات في قوله: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ :

فقرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وعاصم: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ بضم القاف وبالصاد المهملة المشددة المرفوعة ووافقهم ابن محيصن.
وقرأ باقي العشرة: ﴿يَقُضُّ الْحَقَّ﴾ بالقاف الساكنة وبالضاد المعجمة المكسورة، ووافقهم الحسن والأعمش واليزيدي (١).

معنى القراءتين :

القراءة بالصاد: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ من القصص كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ، وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ آل عمران: ٦٢، وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ يوسف: ٣، والمعنى: أن كل ما أخبر به فهو حق.

القراءة بالضاد: ﴿يَقُضُّ الْحَقَّ﴾ من القضاء، ودل على ذلك أن بعده: ﴿خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ والمعنى: يقضي القضاء الحق (٢).

حاصل القراءتين :

قررت الآية بالقراءتين أن الله إنما يقص الحق فيما يخبر به في القرآن العظيم، وأنه يقضي بالحق فيما جاء به شرعه الحكيم سبحانه وتعالى، وجاءت القراءتان بمعنيين دون أن يكون في الآية أي اختلاف أو تناقض، وهذا من اعجاز القرآن الكريم، إذ كل خبر فيه حق وكل حكم فيه حق.
تنبيه :

حكى أن أبا عمرو بن العلاء سئل أهو: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ أو ﴿يَقُضُّ الْحَقَّ﴾

(١) المبسوط ص ١٦٩، النشر ٢٥٨/٢ الاتحاد ص ٢٠٩.

لم ترسم في المصحف إلا بضاد بدون ياء كأن الياء حذفت خطأ تبعا للفظ الساكنين، كما في قوله: ﴿حِكْمَةٌ بِاللِّغَةِ فَمَا تَغْنِ الْغَدْرُ﴾ القمر: ٥. إتحاف فضلاء البشر ص ٢٠٩.

قلت : وقد عد ابن الأنباري هذا الموضع ضمن المواضع التي حذفت منها الياء اكتفاء بالكسرة منها، ثم قال: «فهذه الحروف كلها الياء ساقطة منها في المصحف والوقف عليها بغير ياء» ووافقه الداني. المقنع ص ٤٠-٤١.

(٢) الكشف ٤٣٤/١ زاد المسير ٥٣/٣.

الحق؟ فقال: «لو كان يقص لقال: هو خير القاصين، أقرأ أحد بهذا؟». وحيث قال: ﴿هُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ فإنما يكون الفصل في القضاء» (١).

قال أبوحيان متعقبا ذلك: «لم يبلغ أبا عمرو أنه قرئ بها ويدل على ذلك قوله: «أقرأ بها أحد»، ولا يلزم ما قال، فقد جاء الفصل في القول، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣] وقال: ﴿أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١] وقال: ﴿نَفَّصِلُ الْآيَاتِ﴾ [الأنعام: ٥٥] فلا يلزم من ذكر الفاصلين أن يكون معنا ليقضي» اهـ (٢).

قلت : القضية على كل حال سماع واتباع لا مجال فيها للاجتهاد والرأي، وكلاهما قراءة متواترة.

(١) حجة القراءات ص ٢٥٤ الدر المنثور ٣/ ٢٧٩ البحر المحيط ٤/ ١٤٣.

(٢) البحر المحيط ٤/ ١٤٣.

الموضع الثاني والثلاثون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ الأنعام: ٦١.

هكذا قرأ عامة العشرة: ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾ بتشديد الراء.

وقرأ الأعرج: «وهم لا يفرطون» بضم الياء وسكون الفاء وكسر الراء (١)، وهي قراءة آحادية.

معنى القراءتين :

قراءة العامة: ﴿وهم لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي: لا يقصرون فيما يؤمرون به من توفي من تحضر منيته.

قراءة الأعرج: «وهم لا يفرطون» أي: لا يزيدون، ولا يتوفون إلا من أمروا بتوفيه.

حاصل القراءتين :

قال أبو الفتح ابن جني (ت ٣٩٢هـ): «يقال: أفرط في الأمر إذا زاد فيه، وفرط فيه إذا قصر، فكما أن قراءة العامة: ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾ لا يقصرون فيما يؤمرون به من توفي من تحضر منيته، فكذلك أيضا لا يزيدون ولا يتوفون إلا من أمروا بتوفيه، ونظيره قوله عز وجل: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].» اهـ (٢).

(١) المحتسب ٢٢٣/١.

(٢) ماسبق .

الموضع الثالث والثلاثون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ الأنعام: ١٠٠.
هكذا قرأ عامة القراء العشرة: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ بنصب الخاء واللام والقاف وضم الهاء.

وقرأ ابن يعمر: «وخلقهم» بتسكين اللام (١).

معنى القراءات :

القراءة بنصب اللام والقاف وضم الهاء في معناها وجهان :

الأول : أنها ترجع إلى الجاعلين له الشركاء، فيكون المعنى وجعلوا للذي خلقهم شركاء لا يخلقون.

الثاني : أنها ترجع إلى الجن، فيكون المعنى والله خلق الجن، فكيف يكون الشريك لله محدثاً؟.

ذكرهما الزجاج (ت٣١١هـ) (٢).

القراءة بتسكين اللام ونصب القاف أي: وخلق الجن يعني: ما يخلقونه ما يأفكون فيه، ويتكذبونه، فيكون المعنى: جعلوا له الجن شركاء و أفعالهم شركاء أفعاله، أو شركاء له إذا عني بذلك الأصنام ونحوها (٣).

حاصل القراءات :

الآية بالقراءتين تضمنت استهجان وإبطال جعلهم الجن شركاء لله عزوجل مع أنه خلقهم، و من أشركوه مع الله لا يخلق، فكيف يكون الشريك المخلوق شريكاً للخالق؟.

كما تضمنت الآية استهجان اتخاذ الجن وأفعالهم شركاء لله عزوجل، وكذا اتخاذ ما يخلقونه الهامن دون الله تعالى.

(١) المحتسب ٢٢٤/١.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢٧٧/٢ وقارن بـ«زاد المسير» ٩٧/٣.

(٣) المحتسب ٢٢٤/١.

الموضع الرابع والثلاثون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا: دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الأنعام: ١٠٥.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿دَرَسْتَ﴾ :

فقرأ ابن كثير وأبو عمرو بألف بعد الدال وسكون السين وفتح التاء: ﴿دَارَسْتَ﴾، ووافقهما ابن محيصن واليزيدي.

وقرأ ابن عامر ويعقوب بغير ألف وفتح السين وسكون التاء: ﴿دَرَسْتَ﴾، ووافقهما الحسن إلا أنه ضم الراء.

وقرأ باقي العشرة بغير ألف وسكون السين وفتح التاء: ﴿دَرَسْتَ﴾ ووافقهم الأعمش (١).

وروي عن نافع أنه قال: «درست» . (برفع الدال وكسر الراء وتخفيف التاء) وهي قراءة ابن يعمر (٢).

وقرأ قتادة والحسن وزيد بن علي: «درست» مبنيًا للمفعول، وهي قراءة ابن عباس بخلاف عنه (٣).

وقرأ أبي وطلحة بن مصرف: «درس» بفتح الراء والسين بلا ألف و لاتاء، وهي كذلك في مصحف ابن مسعود (٤).

وقرأ معاذ القاريء وأبو العالية ومورق: «درست» برفع الدال وكسر الراء وتشديدها ساكنة السين (٥).

وقرأ أبي بن كعب: «درست» بفتح الدال والسين وضم الراء وتسكين التاء (٦).

معنى القراءات :

معنى القراءة بـ ﴿دَارَسْتَ﴾ بألف بعد الدال وسكون السين وفتح التاء على وزن «فاعلت» والمعنى: يقولون: دارست أهل الكتاب ودارسوك، أي: ذاكرتهم وذاكروك.

والمفاعلة على هذا المعنى من الجانبين، ويدل له قوله تعالى: ﴿وَقَالَ

(١) المبسوط ص ١٧٣ النشر ٢٦١/٢ الاتحاف ص ٢١٤.

(٢) زاد المسير ١٠١/٣.

(٣) المحتسب ٢٢٥/١ البحر المحيط ١٩٧/٤.

(٤) زاد المسير ١٠١/٣ البحر المحيط ١٩٧/٤.

(٥) زاد المسير ١٠١/٣.

(٦) ماسبق .

الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا. وَقَالُوا: أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿الفرقان: ٤-٥﴾.

معنى القراءة بـ ﴿درست﴾ بغير ألف وفتح السين وسكون التاء أي: درست الآيات، وذلك على اسناد الفعل إليها، فأخبرتعالى أنهم يقولون هذه الأخبار التي تتلوها علينا قديمة قد درست، أي: قد عفت وامحت ومضت، وكانت من أساطير الأولين فجئتنا بها (٢)، ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَصَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ الأنعام: ٢٥، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: أَصَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ النحل: ٢٤.

معنى القراءة بـ ﴿درست﴾ بغير ألف وسكون السين وفتح التاء أي: النبي ﷺ، وذلك على اسناد الفعل إليه ﷺ، فأخبرتعالى أنهم يقولون درس محمد (ﷺ) كتب أهل الكتاب، ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا: أَصَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الفرقان: ٥ (٣).
معنى القراءة بـ «درست» برفع الدال وكسر الراء وتخفيف التاء: قرئت (٤).

معنى القراءة بـ «درست» مبنيًا للمفعول فيه قولان :
الأول : درست، أي: الآيات، والمعنى: درست وقرأت الآيات يا محمد، فيعود معناها إلى قراءة ﴿دارست﴾.

الثاني : «درست» أي: عفت وامحت (٥).
معنى القراءة بـ «درس» أي الرسول ﷺ والمعنى كالقراءة بـ ﴿دارست﴾ و «درست».

معنى القراءة بـ «درست» بضم الدال وكسر الراء وتشديدها ساكنة السين مبنيًا للمفعول، أي: درس الرسول ﷺ، والمعنى كالقراءة بـ ﴿دارست﴾.

معنى القراءة بـ «درست» أي: الآيات، وهي بمعنى القراءة بـ «درست»

(١) الكشف ٤٤٤/١ المغني في توجيه القراءات العشر ٧٦/٢.

(٢) الكشف ٤٤٤/١ المغني في توجيه القراءات العشر ٧٦/٢.

(٣) الكشف ٤٤٤/١ المغني في توجيه القراءات العشر ٧٧/٢.

(٤) زاد المسير ١٠١/٣.

(٥) المحتسب ٢٢٦/١ البحر المحيط ١٩٧/٤.

أي: أمحت وعفت، أي: ذهبت آثارها وزالت (١).
قال أبوحيان الأندلسي (ت ٧٥٤هـ): «وقريء» درست» بالتشديد والخطاب،
أي: درست الكتب القديمة، وقريء: «درست» مشددا مبنيا للمفعول المخاطب،
و قريء «دورست» بالتخفيف والواو مبنيا للمفعول والواو مبدلة من الألف
في «دارست»... اهـ (٢).

حاصل القراءات :

بَيِّن القراءات تكامل في المعنى، وجميعها يبين ماقاله الكافرون في حق
الرسول ﷺ، ولا تنافي بينها ولا تعارض.

(١) البحر المحيط ١٩٧/٤.

(٢) البحر المحيط ١٩٧/٤.

ونذكر قراءات أخرى، وكلها مرجعها من جهة المعنى إلى القراءات المتواترة.

الموضع الخامس والثلاثون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنُجِئَنَّكُمْ آيَةً وَيُؤْمِنُنَّ بِهَا، قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام: ١٠٩.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ :

فقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وخلف وشعبة بخلف عنه بكسر الهمزة في ﴿أَنَّهَا﴾.

وقرأ سائر العشرة بفتحها: ﴿أَنَّهَا﴾ وهو الوجه الثاني عن شعبة (١).
معنى القراءات :

القراءة بكسر الهمزة على الاستئناف اخبار عنهم بعدم الايمان ، ويكون الكلام قبلها تاما عند قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ أي: وما يدريك، ثم أبدأ الخبر عنهم: أنهم لا يؤمنون إذا جاءتهم (٢).

معنى القراءة بفتح الهمزة فيه وجهان :

الأول : و ما يدريك لعلها إذا جاءت لا يؤمنون، والعرب تجعل « أن » بمعنى « لعل » يقولون: ائت السوق أنك تشتري لنا شيئا، أي: لعلك.

الثاني : وما يدريك أنها إذا جاءت يؤمنون، وتكون « لا » صلة لتأكيد

الجدد كقوله تبارك وتعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ إِذْ أُمِرْتَ﴾ الأعراف: ١٢ وكقوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ الأنبياء: ٩٥ (٣).

ورد هذا الوجه الزجاج (٤) واختار الأول .

قلت : وما اختاره الزجاج هو الأليق بكتاب الله تعالى.

حاصل القراءات :

يأمر الله عزوجل رسوله ﷺ أن يخبر هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لنن جاءتهم آية ليؤمنن بها، يأمره أن يقول ما يدريك، انما الآيات عند الله، ثم يقرر تبارك وتعالى أن الآيات إذا جاءتهم لا يؤمنون، ويعلل في القراءة الأخرى لعلها إذا جاءتهم الآيات لا يؤمنون.

(١) المبسوط ص ١٧٣ البدور الزاهرة ص ١٠٨.

(٢) تفسير الطبري (دارالفكر) ٣١٢/٧ الكشف ٤٤٥/١.

(٣) زاد المسير ١٠٤/٣-١٠٥.

(٤) معاني القرآن وعرابه للزجاج ٢٨٣/٢.

الموضع السادس والثلاثون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ الأنعام: ١٥٩.
وقوله تبارك وتعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ الروم: ٣٢.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿فَرَّقُوا﴾ :

فقرأ حمزة والكسائي بألف وتخفيف الراء: ﴿فَارَقُوا﴾ و وافقهما الحسن .

وقرأ باقي العشرة: ﴿فَرَّقُوا﴾ بتشديد الراء بلا ألف ووافقهم ابن محيصن واليزيدي والأعمش (١).

وقرأ النخعي وأبو صالح مولى ابن هانيء ويروى عن الأعمش ويحيى: «الذين فرقوا دينهم» بالتخفيف (٢).

معنى القراءات :

قليل : القراءات بمعنى واحد ، تقول: ضاعف وضعف.

وقيل : القراءة بـ ﴿فَارَقُوا﴾ أي: فارقوا وتركوا، من المفارقة والفراق، على معنى أنهم تركوا دينهم وخرجوا عنه.

والقراءة بـ ﴿فَرَّقُوا﴾ أي: آمنوا ببعض وكفروا ببعض من التفريق. وكذا القراءة بالتخفيف: «فرقوا» (٣).

حاصل القراءات :

بينت الآية بالقراءتين أن حال من فارق دينه وحال من فرق في دينه فآمن ببعض وكفر ببعض أنه حال واحد ، ومآل واحد.

وفي الآية بالقراءتين إشعار بأن مآل من فرق في دينه إلى المفارقة لدينه، نسأل الله العفو والعافية.

وفيها بالقراءتين أيضا تحذير من الحزبية التي تفرق المسلمين، وأنها ليست من الإسلام في شيء.

(١) المبسوط ص ١٧٧ النشر ٢١٦/٢ الاتحاد ص ٢٢٠.

(٢) المحتسب ٢٣٨/١.

(٣) تفسير القرطبي ١٤٩/٧ البحر المحيط ٢٦٠/٤.

الموضع السابع والثلاثون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ الأعراف: ٢٠-٢١.
هكذا قرأ عامة القراء العشرة.

وقرأ ابن عباس: «إلا أن تكونا ملكين» بكسر اللام (١) وهي قراءة الزهري (٢) ويحي بن أبي كثير (٣) والضحاك (٤).

وفي بعض القراءة: «وقاسمهما بالله إني لكما لمن الناصحين» (٥).
معنى القراءات :

قراءة عامة القراء العشرة: ﴿مَلَكَينَ﴾ بفتح اللام يعني: ملكين من الملائكة.

قراءة ابن عباس: «ملكين» بكسر اللام يعني من الملك كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ سورة طه: ١٢٠.
حاصل القراءات :

أن إبليس - أعاذنا الله منه - إمعانا منه في المكر على أبينا آدم عليه الصلاة والسلام وأما حواء رحمها الله ورضي عنها يذكر لهما أمرين أن

(١) إسناده ضعيف عن ابن عباس.

أخرجها الطبري في تفسيره (شاذ) ٣٤٨/١٢ من طريق المثنى عن إسحاق عن ابن أبي حماد عن عيسى الأعمى عن السدي قال: «كان ابن عباس يقرأ... والمثنى شيخ الطبري هو ابن إبراهيم الأبلبي لم أقف له على ترجمة. وإسحاق هو ابن الحجاج الطاحوني ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٢١٧/٢ ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا. وابن أبي حماد هو عبدالرحمن ترجم له في غاية النهاية ٣٦٩/١-٣٧٠ وقال: «صالح مشهور» اهـ.

وعيسى الأعمى هو ابن عمر الهمداني قال في التقريب ص ٤٤٠: «ثقة» اهـ والسدي هو إسماعيل بن عبدالرحمن قال في التقريب ص ١٠٨: «صدوق يهمل» اهـ.

(٢) زاد المسير ١٧٩/٣.

(٣) إسناده صحيح عن يحي بن أبي كثير .

أخرجها الطبري في تفسيره (شاذ) ٣٤٩/١٢.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١١٨/٢ وتفسير القرطبي ١٧٨/٧ البحر المحيط ٢٧٩/٤.

(٥) قال في الدر المنثور ٤٣١/٣: «أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس قال: «في بعض القراءة...» وساقه.

يكونا ملكين من الملوك وأن يكونا ملكين من الملائكة، ويردد الأمر بينهما مبالغة في الكيد والمكر .

ويلاحظ ما يلي :

(١) أنكر أبو عمرو بن العلاء كسر اللام وقال: لم يكن قبل آدم ﷺ ملك فيصيرا ملكين (١).

قلت : هذا الانكار غير متوجه، لأن الظاهر أن الشيطان - أعوذ بالله منه - جاءهما من جهة الملك بمعنى: المكث في الجنة مع الخلد فيها كما قال في الآية الأخرى: ﴿... وَمَلِكٍ لَا يَبْلَى﴾ سورة طه: ١٢٠.

قال ابن عباس: «أتاهما الملعون من جهة الملك ، ولهذا قال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمَلِكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]» (٢).

وقال أبو عبيد (ت ٢٢٤هـ): «احتجاج يحيى بن أبي كثير بقوله: ﴿وَمَلِكٍ لَا يَبْلَى﴾ حجة بينة، ولكن الناس على تركها فلهذا تركناها» (٣).

ولم يرتض هذا أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) فقال: «إلا أن تكونا ملكين» (بكسر اللام) قراءة شاذة، وقد أنكر على أبي عبيد هذا الكلام، وجعل من الخطأ الفاحش، وهل يجوز أن يتوهم آدم ﷺ أنه يصل إلى أكثر من ملك الجنة، وهي غاية الطالبين، وإنما معنى: ﴿وَمَلِكٍ لَا يَبْلَى﴾ المقام في ملك الجنة والخلود فيها» اهـ (٤).

قلت : لم أفهم من كلام أبي عبيد غير المعنى الذي قرره النحاس، وعلى فرض حصول ما ذكره فإن المقام مقام كيد ومكر من ابليس - أعوذ بالله منه - ولعل في ما يأتي ما يبين ذلك - إن شاء الله -.

(٢) قال ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ): «﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ قال: أي: إلا كراهة أن تكونا ملكين وكراهة أن تخلدا في الجنة، ومن هنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها، وهذا باب كيده الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم، فإنه يجري منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطه ويسألها عما تحبه وتؤثره فاذا عرفه استعان بها على العبد ودخل عليه من هذا الباب.

(١) معاني القرآن للنحاس ٢٠/٣-٢١ وتفسير القرطبي ١٧٨/٧-١٧٩.

(٢) بواسطة تفسير القرطبي ١٧٩/٧.

(٣) بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١١٨/٢.

(٤) ما سبق .

وكذلك علم إخوانه وأوليائه من الانس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضا أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه فإنه باب لا يخل من حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود وهو عن طريق مقصده مسدود.

فشامَّ عدو الله الأبوين فأحس منهما إيناسا وركونا إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم؛ فعلم أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب، فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين، وقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾.

وكان عبد الله بن عباس يقرأها: «ملكين» بكسر اللام ويقول: «لم يطمعا أن يكونا من الملائكة، ولكن استشرفاً^(١) يكونا ملكين فأتاهما من جهة الملك». ويدل على هذه القراءة قوله في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠].

وأما على القراءة المشهورة فيقال: كيف أطمع عدو الله آدم عليه السلام أن يكون يأكله من الشجرة من الملائكة وهو يرى الملائكة لا تأكل ولا تشرب، وكان آدم عليه السلام أعلم بالله وبنفسه وبالملائكة من أن يطمع أن يكون منهم بأكلة، ولا سيما مما نهاه الله عز وجل عنه؟.

فالجواب: أن آدم وحواء عليهما السلام لم يطمعا في ذلك أصلاً، وإنما كذبهما عدو الله وغرهما، وخدعهما بأن سمى تلك الشجرة شجرة الخلد، فهذا أول المكر والكيد ومنه ورث اتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها؛ فسموا الخمر: «أم الأفراح»، وسموا أخاها بـ«القيمة الراحة»^(١) وسموا الربا بـ«المعاملة» وسموا المكوس بـ«الحقوق السلطانية» وسموا أقبح الظلم وأفحشه «شرع الديوان»، وسموا أبلغ الكفر: (وهو جحد صفات الرب): «تنزيها»، وسموا مجالس الفسوق: «مجالس الطيبة»^(٢).

فلما سماها: «شجرة الخلد» قال: ما نهاكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا في الجنة ولا تموتا فتكونان مثل الملائكة الذين لا يموتون، ولم يكن آدم عليه السلام قد علم أنه يموت بعد واشتهى الخلود في الجنة، وحصلت الشبهة من قول العدو وإقسامه بالله جهد أيمانه أنه ناصح لهما؛

(١) لعله يقصد النباتات المخدرة كـ«الحشيش» ونحوه.

(٢) ومنه تسميتهم للربا «فائدة» وللرشوة «هدية».

فاجتمعت الشبهة والشهوة، وساعد القدر فأخذتهما سنة الغفلة، واستيقظ لهما العدو كما قيل :

واستيقظوا وأراد الله غفلتهم لينفذ القدر المحتوم في الأزل إلا أن هذا الجواب يعترض عليه قوله: ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

فيقال : الماكر المخادع لا بد أن يكون فيما يمكر به ويكيد من التناقض والباطل ما يدل على مكره وكيده، و لا حاجة بنا إلى تصحيح كلام عدو الله، والاعتذار عنه، وإنما يعتذر عن الأب في كون ذلك راج عليه وولج سمعه، فهو لم يجزم لهما بأنهما إن أكلا منها صارا ملكين، وإنما ردد الأمر بين أمرين أحدهما ممتنع، والآخر ممكن ، وهذا من أبلغ أنواع الكيد والمكر؛ ولهذا لما أطمعه في الأمر الممكن جزم له به ولم يردده فقال: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠] فلم يدخل أداة الشك وهنا كما أدخلها في قوله ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠] فتأمله. «اهـ (١).

(١) إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان ١١٢/١-١١٣.

الموضع الثامن والثلاثون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ الأعراف: ٢٦.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ :

فقرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبوجعفر بنصب السين ووافقهم الحسن والشنوبزي عن الأعمش.

وقرأ باقي العشرة بالرفع ، ووافقهم ابن محيصن واليزيدي والمطوعي عن الأعمش(١).

معنى القراءتين :

القراءة بنصب السين على عطف كلمة : ﴿لِبَاسُ﴾ على ﴿رِيشًا﴾ فيكون المعنى أنزلنا عليكم ريشا وأنزلنا عليكم لباس التقوى.

القراءة برفع السين على الابتداء أو الخبر.

أما على الابتداء فيكون: ﴿لِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ مبتدأ و ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ثاني و ﴿خَيْرٌ﴾ خبر المبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ والخبر في محل رفع خبر المبتدأ الأول، والتقدير: لباس التقوى المشار إليه خير.

أما على الخبر فيكون: ﴿لِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو لباس التقوى، أي: وستر العورة لباس المتقين(٢).

حاصل القراءتين :

اشتملت الآية بالقراءتين على مايلي :

إخبار الله تبارك وتعالى بأنه أنزل علينا لباسين:

أحدهما : لباس الرياش والأثاث والكسوة.

وثانيهما : لباس التقوى.

وهذا على القراءة بنصب السين .

وأخبر تعالى أن لباس التقوى خير من أي لباس آخر، وأن ستر العورة

لباس المتقين، وهذا على القراءة برفع السين.

(١) المبسوط ص ١٨٠ النشر ٢٦٨/٢ الاتحاف ص ٢٢٣.

(٢) معاني القرآن وأعرابه للزجاج ٣٢٨/٢-٣٢٩ حجة القراءات ص ٢٨٠-٢٨١.

ويلاحظ مايلي :

(١) أن كلمة «خير» لها استعمالان :

أحدهما: أن يراد بها معنى التفضيل لا الأفضلية، أي: يراد بها إثبات أن الشيء فاضل في ذاته بقطع النظر عن تفضيله على غيره وعلى هذا المعنى يكون ضدها الشر، وفي هذا الاستعمال تبقى كلمة «خير» على أصلها لم يحذف منها شيء.

والثاني: أن يراد بها معنى الأفضلية، أي: يراد بها تفضيل شيء على آخر وهو يتضمن بداهة أنه فاضل في ذاته، وهي التي توصل بـ«من» وهذه أصلها «أخير» حذفت همزتها تخفيفا ويقابلها «شر» التي أصلها «أشر» (١). والآية هنا تضمنت كلمة «خير» وهي هنا - على ما يظهر - بالمعنى الأول للتفضيل لا للأفضلية.

(٢) في الآية على القراءتين تنبيه إلى فضيلة التقوى، وأنها لباس لصاحبها يستره عن العيب والنقص عند الله تعالى كما قال عزوجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات: ١٣.

وقد ذكر الله عزوجل التقوى في معرض ذكر الزاد فقال تبارك وتعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ البقرة: ١٩٧. فالتقوى لباس وزاد لصاحبها، وبالله التوفيق.

(١) الحاوي للفتاوي ١/٣٧٥-٣٧٦.

الموضع التاسع والثلاثون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نَخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الأعراف: ٥٧.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ الفرقان: ٤٨.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْنَ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَهٌ مَعَ إِلَهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ النمل: ٦٣.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿بُشْرًا﴾
فقرأ عاصم بالباء الموحدة المضمومة واسكان الشين في المواضع الثلاثة.

وقرأ ابن عامر بالنون مضمومة واسكان الشين في ثلاثتها.
وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالنون المفتوحة وسكون الشين ووافقهم الأعمش: ﴿نَشْرًا﴾.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بضم النون والشين: ﴿نَشْرًا﴾ ووافقهم ابن محيصن واليزيدي (١).
وكلها قراءات متواترة .

معنى القراءات :

القراءة بـ ﴿نَشْرًا﴾ بضم النون والشين جمع نشور، ونشور بمعنى: ناشر، ومعناه: محي، كطهور بمعنى: طاهر، جعل الريح ناشرة للأرض أي: محيية لها إذ تأتي بالمطر الذي يكون النبات به.
ويجوز أن يكون نشور بمعنى: منشور، والمعنى: أحيا الله الريح لتأتي بين يدي رحمته، فهي ريح منشورة، أي: محياة، تقول: قد أنشر الله الريح: إذا بعثها.

والقراءة بـ ﴿نَشْرًا﴾ بضم النون وسكون الشين بمعنى القراءة قبلها.
والقراءة بـ ﴿نَشْرًا﴾ بفتح النون وتسكين الشين من النشر خلاف الطي كأن الريح في سكونها كالمطوية، ثم ترسل من طيها ذلك فتصير كالمتفتحة.
ويحتمل المعنى أن يكون نشرا بمعنى: متفرقة على وجوهاها، على معنى

(١) المبسوط ص ١٨١ النشر ٢٦٩/٢-٢٧٠ الاتحاف ص ٢٢٦.

وقد نسبت هذه القراءات الى غير القراء العشرة كما في المحتسب ٢٥٥/١.

تنشرها هنا وهنا، ويحتمل أن يكون ﴿نَشْرًا﴾ بمعنى: منشورة أي محياة.
والقراءة بالباء مضمومة من البشارة، أي: أن الريح تبشر بالمطر (١).
حاصل القراءات :

تضمنت الآية بالقراءات السابقة المعاني التالية :

- (١) يذكرُّ الله عزوجل بارسال الريح في حال كونها بشارة بنزول المطر وذلك على القراءة بالباء: ﴿بَشْرًا﴾.
- (٢) كما يذكرُّ سبحانه بارسال الريح في حال كونها منشورة بعد أن تكون مطوية، وذلك على القراءة بالنون مع فتحها وتسكين الشين: ﴿نَشْرًا﴾.
- (٣) كما يذكرُّ عزوجل بارسال الريح في حال كونها تجيء الأرض بما تحمله من المطر لتحي به أرضا ميتا، وذلك على القراءة بالنون مع ضمها وضم الشين: ﴿نَشْرًا﴾.
- (٤) ويذكرُّ الله عزوجل بالريح في إحياء الله لها لحمل السحاب الثقال، وذلك على القراءة بضم النون والشين كذلك: ﴿نَشْرًا﴾.

(١) معاني القرآن وأعرابه للزجاج ٣٤٥/٢ معاني القرآن الكريم للنحاس ٤٤/٣ الكشف
٤٦٥/١-٤٦٦.

الموضع الأربعون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ الأعراف: ١٤٤.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿بِرِسَالَاتِي﴾ :

فقرأ نافع وابن كثير وأبوجعفر وروح في روايته عن يعقوب بـ ﴿برسالتني﴾.

وقرأ باقي العشرة: ﴿برسالاتي﴾ بالالف على الجمع، ووافقهم الحسن والأعمش واليزيدي (١).

معنى القراءات :

القراءة على الافراد ﴿برسالتني﴾ المراد منها أي: برسالي إياك، أو بتبليغ رسالتني.

القراءة على الجمع ﴿برسالاتي﴾ المراد منها بأنواع رسالاتي المتعددة؛ لأنه لما كان موسى ﷺ أرسل بضروب متنوعة من الرسالات كالعقائد والعبادات والحدود وضروب المعاملات، فتعددت أنواعها، ولتعدد أسفار التوراة فجمع المصدر لذلك (٢).

حاصل القراءات :

تضمنت الآية بالقراءتين مايلي :

إمتنان الله تبارك وتعالى على موسى ﷺ بأنه سبحانه اصطفاه برسالته، وإمتنان الله تبارك وتعالى على موسى ﷺ بأنه اصطفاه بتشريعاته وأسفار التوراة.

(١) المبسوط ص ١٦٣ النشر ٢/٢٧٢ الاتحاف ص ٢٣٠.

(٢) الكشف ١/٤٧٦ الاتحاف ص ٢٣٠.

الموضع الحادي والأربعون :
قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الأعراف: ١٩٤.
هكذا قرأ عامة العشرة .

وقرأ ابن جبير بنصب: «عبادا أمثالكم» (١).
معنى القراءات :

معنى قراءة عامة العشرة : تقرر الآية أن هذه الأصنام التي تدعى من دون الله عزوجل ، وتسمى آلهة من دون الله الذي أوجدها وأوجدكم؛ إنما هم عباد لله عزوجل.

وسمى الأصنام عبادا - وإن كانت جمادات - لأنهم كانوا يعتقدون فيها أنها تضر وتنفع، فاقترضى ذلك أن تكون عاقلة.

معنى قراءة ابن جبير : تحقير شأن الأصنام، ونفي مماثلتها للبشر بل هم أقل وأحقر إذ هي جمادات لا تعقل (٢).

فـ«إن» في قراءة ابن جبير هي النافية التي تعمل عمل «ما» الحجازية وقد اختلف في مجيئها في مثل هذا السياق (٣).

والقراءة على هذا التخريج متأولة على اضممار فعل تقديره: إن الذين تدعون من دون الله تدعون عبادا أمثالكم، وتكون القراءتان قد توافقتا على معنى واحد وهو الإخبار أنهم عباد كما نبّه على ذلك أبو حيان الأندلسي (ت: ٧٥٤هـ).

وقال رحمه الله: «وقد خَرَّجَت هذه القراءة في «شرح التسهيل» على وجه غير ما ذكره وهو أن «إن» هي المخففة من الثقلية وأعمالها عمل المشددة، وقد ثبت أن «إن» المخففة يجوز إعمالها عمل المشددة في غير المضممر بالقراءة المتواترة: ﴿وَإِنْ كُلاًّ لَّمَّا﴾ [هود: ١١١] وبنقل سيبويه... وقد ذهب جماعة من النحاة إلى جواز نصب أخبار «أَنَّ» وأخواتها واستدلوا على ذلك بشواهد ظاهرة الدلالة على صحة مذهبهم» اهـ (٤).

(١) معاني القرآن للنحاس ١١٧/٣ المحتسب ٣٧٠/١.

(٢) المحتسب ٣٧٠/١ البحرالمحيط ٤٤٣/٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١٦٨/٢-١٦٩ المحتسب ٣٧٠/١ البحرالمحيط ٤٤٤/٤.

(٤) البحرالمحيط ٤٤٤/٤.

حاصل القراءتين :

بينت قراءة الجمهور أن الأصنام خلق من خلق الله تعالى كما أن الذين يعبدونها خلق من خلق الله.

وبينت قراءة ابن جبير أن هذه الأصنام أحقر شأنًا من البشر فهم ليسوا مثلهم؛ فعجبا كيف يتخذ المخلوق إلهًا مخلوقًا مثله ثم العجب ممن يتخذ مخلوقًا أحقر شأنًا منه إلهًا له.

الموضع الثاني والأربعون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾
الأنفال: ٥٩.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ
النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ النور: ٥٧.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ في الموضعين :

فقرأ ابن عامر وحفص وحمزة وأبو جعفر وأدريس بخلف عنه عن خلف:
﴿يَحْسَبَنَّ﴾ بياء الغيب.

وقرأ باقي العشرة: ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ بتاء الخطاب (١).

معنى القراءتين :

معنى القراءة بياء الغيب لا يحسبن الكفار أنفسهم سابقين، ويحتمل
أن يكون المعنى لا يحسبن الكفار سابقين، والفاعل ضمير يعود إلى الرسول
ﷺ أو لفاعل محذوف اقتضاه المقام وتقديره: «ولا يحسبن أحد...».

معنى القراءة بتاء الخطاب: لا تحسبن يا محمد الكفار سابقين (٢) أو
الخطاب لكل من يصلح له أي: لا تحسبن أيها المخاطب..، وهذا أولى لأنه
ﷺ لا يحسب ذلك ثقة في ربه.

حاصل القراءات :

كلا المعنيين واردين، ولا معارضة بينهما فالآية خطاب للرسول ﷺ بأن لا
يحسب الكفار سابقين، وتهديد للكفار بأن لا يحسبن أنفسهم سابقين.

(١) المبسوط ص ١٩٠ النشر ٢٧٧/٢ الاتحاف ص ٢٣٨.

(٢) الكشف ٤٩٣/١-٤٩٤ المغني في توجيه القراءات ١٩٣/٢-١٩٤.

الموضع الثالث والأربعون :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا، فَاتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ التوبة: ٤.

هكذا قرأ القراء العشرة: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ بالصاد المهملة.
وقرأ عطاء بن السائب الكوفي وعكرمة وأبوزيد وابن السميعة:
«ينقصوكم» بالضاد المعجمة (١)، وهي قراءة أحادية.

معنى القراءتين :

القراءة بالصاد: ﴿يَنْقُصُوكُمْ﴾ من النقص، أي: لم ينقصوكم من شروط العهد (٢).

القراءة بالضاد المعجمة: «ينقصوكم» من النقض وهو على حذف مضاف، أي: لم ينقضوا عهدكم، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه لدلالة الكلام عليه (٣).

حاصل القراءتين :

القراءة بالضاد المعجمة تناسب ذكر العهد في الآية، وهي بمعنى قراءة الجمهور بالصاد المهملة، لأن من نقص من العهد فقد نقص من الأجل المضروب، إلا أن «النقض» يشعر بالغاء بنود العهد جميعها، بينما النقص يشعر بالغاء بعض بنود العهد، ويؤخذ منه أن من نقص العهد بالكلية أو بعض بنوده حكمهما واحد، وأن من أتم عهده وحافظ عليه ولم ينقصه ولم ينقصه أنه يتم إليهم عهدهم إلى مدتهم.

(١) المحتسب ٢٨٣/١ تفسير القرطبي ٧١/٨ البحرالمحيط ٨/٥.

(٢) تفسير القرطبي ٧١/٨.

(٣) البحرالمحيط ٨/٥.

الموضع الرابع والأربعون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ تَكَثَّرَ أَيْمَانُهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتَمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يُنتَهُونَ﴾ التوبة: ١٢.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ :

فقرأ ابن عامر بكسر الهمزة: ﴿لَا إِيْمَان﴾ ووافقه الحسن وعطاء وزيد بن علي.

وقرأ باقي العشرة بالفتح: ﴿لَا أَيْمَان﴾ ووافقهم الحسن بخلف عنه، وابن محيصن والأعمش واليزيدي (١).

معنى القراءات :

قراءة ابن عامر بكسر الهمزة: «لا إيمان» مصدر آمن ، أي: لا إسلام ولادين لهم، وقيل: مصدر «امنته» من الأمان، أي: لا يؤمنون في أنفسهم، وقيل: معناه لا يوفون لأحد بأمان يعقدونه له (٢).

قال مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) : «يبعد في المعنى أن يكون من الإيمان الذي هو التصديق، لأنه قد وصفهم بالكفر قبله فتبعد صفتهم بنفي الإيمان عنهم لأنه معنى قد ذكر إذ أضاف الكفر إليهم، فاستعماله بمعنى آخر أولى ليفيد الكلام فائدتين ودل على أنه من الأمان قوله عنهم: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠] أي: لا يوفون لأحد بعهذ و لا يحفظون ذمام أحد» اهـ (٣).

قراءة الجمهور بفتح الهمزة: ﴿لَا أَيْمَان﴾ جمع يمين، ودل على ذلك قوله تعالى في سباق الآية: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ التوبة: ٧، والمعاهدة بالأيمان تكون (٤).

حاصل القراءات :

يأمر الله تعالى بمقاتلة أئمة الكفر لأنه لا اسلام و لادين لهم و لا أمان يعطونه ، و لا عهد يؤدونه ويحفظونه بعد نكثهم.

ولا يعطون الأمان بعد الردة والنكث ولا سبيل إليه.

(١) المبسوط ص ١٩٣ البحر المحيط ١٥/٥ الاتحاف ص ٢٤٠.

(٢) معاني القرآن وأعرابه للزجاج ٤٣٥-٤٣٦ معاني القرآن للنحاس ١٨٩/٣.

(٣) الكشف ٥٠٠/١.

(٤) ماسبق ، حجة القراءات ص ٣١٥.

ويلاحظ مايلي :

قال أبوحيان الأندلسي (ت ٧٥٤هـ) : «بقراءة الفتح استشهد أبوحنيفة على أن يمين الكافر لا يكون يميناً.

وعند الشافعي يمينهم يمين، وقال: معناه أنهم لا يوفون بها بدليل أنه تعالى وصفها بالنكث» اهـ (١).

قال الألويسي (ت ١٢٧٠هـ) رحمه الله: «والنفي في الآية عند الامام أبي حنيفة عليه الرحمة على ما هو المتبادر، فيمين الكافر ليست يميناً عنده معتداً بها شرعاً.

وعند الشافعي عليه الرحمة هي يمين لأن الله تعالى وصفها بالنكث في صدر الآية، وهو لا يكون حيث لا يمين ولا إيمان لهم بما علمت.

وأجيب: بأن ذلك باعتبار اعتقادهم أنه يمين.

ويبعده: أن الاخبار من الله تعالى، والخطاب للمؤمنين.

وقال آخرون: إن الاستدلال بالنكث على اليمين إشارة (٢) أو اقتضاء (٣)، و﴿لا إيمان لهم﴾ عبارة (٤) فترجح.

والقول بأنها تؤول جمعا بين الأدلة فيه نظراً؛ لأنه إذا كان لا بد من التأويل في أحد الجانبين فتأويل غير الصريح أولى ولعله لا يعتبر في ذلك التقدم والتأخر.

وثمره الخلاف أنه لو أسلم الكافر بعد يمين انعقدت في كفره ثم حنث هل تلزمه الكفارة؟ فعند أبي حنيفة عليه الرحمة: لا، وعند الشافعي رحمه الله تعالى: نعم» اهـ (٥).

قلت: يقول الله تبارك و تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا

(١) البحرالمحيط ١٥/٥.

(٢) إشارة النص: هي العمل بما ثبت بنظم الكلام لغة لكنه غير مقصود ولا سيق له النص، كقوله تعالى: ﴿وعلى المولود له رزقهن﴾ سيق لإثبات النفقة، وفيه إشارة إلى أن النسب إلى الآباء. التعريفات ص ٢٧.

(٣) اقتضاء النص: عبارة عما لم يعمل النص إلا بشرط تقدم عليه، فإن ذلك أمر اقتضاء النص بصحة ما تناوله النص، وإذا لم يصح لا يكون مضافاً إلى النص، فكان المقتضى كالثابت بالنص. التعريفات ص ٣٣.

(٤) عبارة النص: هي النظم المعنوي المسوق له الكلام، سميت عبارة لأن المستدل يعبر من النظم إلى المعنى، والمتكلم من المعنى إلى النظم، فكانت هي موضع العبور، فإذا عمل بموجب الكلام من الأمر والنهي يسمى استدلالاً بعبارة النص. التعريفات ص ١٤٦.

(٥) روح المعاني ١٠/٥٩-٦٠.

حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم، أو آخران من غيركم ان أنتم ضربتم في الأرض فأصابتم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربي و لانكتم شهادة الله انا اذا لمن الآثمين ﴿ المائدة: ١٠٦.

فهذه الآية تدل على أن الكافر من أهل القسم له يمين فهذه عبارة، مع الإشارة في قوله: ﴿وان نكثوا أيمانهم...﴾ التوبة: ١٢؛ لأنه عبر بالنكث وهو لا يكون حيث لا يمين معتبرة فاقتضى ذلك عدم صحة التأويل الذي ذكره الألوسي رحمه الله في كلامه السابق .

على أن قوله تعالى: ﴿وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون﴾ التوبة: ١٢، إذا تأمل الباحث سياقه وسباقه ولحاظه ظهر له أن المراد أن الكافر إذا نقض عهده فإنه يقاتل و لا يقبل منه يمين و لاعهد في هذه الحال، فمن أين في الآية أن يمين الكافر لا تعتبر مطلقاً؟ (١).

(١) انظر حول المسألة: المحلى ٥٠/٨-٥١ بدائع الصنائع ١٠/٣-١١ المغني لابن قدامة ٦٩١-٦٩٢ تفسير القرطبي ٤٠٢/٧-٤٠٣ فتح القدير لابن الهمام ٨٦/٥-٨٧ كفاية الأخيار ١٥٥/٢ كتاب الأيمان والنذور د/ محمد أبي فارس ص ٧٧-٧٩.

الموضع الخامس والأربعون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَأَن نُّنَجِّيَنَّهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ يونس: ٢٢.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿يَسِيرُكُمْ﴾ :

فقرأ أبو جعفر وابن عامر: ﴿يَنْشُرُكُمْ﴾ بفتح الياء ونون ساكنة بعدها وشين معجمة مضمومة من "النشر" ووافقهما الحسن.

وقرأ باقي العشرة: ﴿يسيركم﴾ بضم الياء وسين مهملة مفتوحة بعدها ياء مكسورة مشددة من "التسير"، ووافقهم اليزيدي وابن محيصن والأعمش (١).

معنى القراءات :

القراءة بـ ﴿يَنْشُرُكُمْ﴾ من النشر ضد الطي، أي: يبثكم ويفرقكم في البر والبحر، كما قال تعالى: ﴿فَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الجمعة: ١٠ وقال: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ البقرة: ١٦٤ (٢).

القراءة بـ ﴿يَسِيرُكُمْ﴾ أي: يحملكم على السير ويمكنكم منه (٣).

حاصل القراءات :

يُذَكِّرُ اللَّهُ تعالى بنعمة من نعمه الكثيرة على الناس، فهو سبحانه الذي بث الناس ونشرهم وفرقهم في أرجاء الدنيا برا وبحرا، وهو سبحانه الذي سيرهم ومكنهم من ذلك كما قال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ الملك: ١٥.

ويلاحظ مايلي :

(١) قال أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) : «في يونس [آية ٢٢] في مصاحف

أهل الشام: ﴿هُوَ الَّذِي يَنْشُرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بالنون والسُّين، وفي سائر المصاحف: ﴿يَسِيرُكُمْ﴾ بالسَّين والياء اهـ (٤).

(٢) قال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) : «فإن قلت: كيف جعل الكون في الفلك

غاية للتسيير في البحر (يعني: في قوله تعالى ﴿... حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي

(١) المبسوط ص ١٩٩ النشر ٢/٢٨٢ الاتحاف ص ٢٤٨.

(٢) الكشف ١/٥١٦.

(٣) الاتحاف ص ٢٤٨.

(٤) المقنع في رسم مصاحف الأمصار ص ١٠٨.

الفلك... (١) والتسيير في البحر إنما هو بالكون في الفلك؟.

قلت : لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتى بما في حيزها كأنه قيل: يسيركم حتى إذا وقعت الحادثة وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف وتراكم الأمواج والظن للهلاك والدعاء بالانجاء» اهـ (١).

قلت : استحسن أبو حيان (٢) (ت ٧٥٤هـ) هذا الجواب، ومن قبله استجاده ناصر الدين أحمد بن المنير الاسكندري (ت ٦٨٣هـ) حيث قال: «وهذه... من نكته التي لا يكتنه حسنها» اهـ (٣).

(١) تفسير الزمخشري ١٨٦٢.

(٢) البحر المحيط ١٣٨/٥.

(٣) الانتصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال ١٨٦/٢.

الموضع السادس والأربعون :
قوله تبارك وتعالى: ﴿هَٰذَاكَ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ
الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يونس: ٣٠.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿تَبَلَّوْا﴾ :
فقرأ حمزة والكسائي وخلف بتاءين من فوق: ﴿تَتَلَّوْا﴾ ووافقهم الأعمش .
وقرأ باقي العشرة: ﴿تَبَلَّوْا﴾ بتاء من فوق والباء الموحدة ووافقهم ابن
محيصن والحسن واليزيدي (١).

معنى القراءات :

القراءة بـ ﴿تَتَلَّوْا﴾ بتاءين من فوق، أي: تطلب وتتبع ما أسلفته من
أعمالها، أو المراد تقرأ ما عملته مسطراً في مصحف الحفظ، كقوله
تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عِلِيلًا حَسِيبًا﴾ الاسراء: ١٤ (٢)، فعلى
الأول: «تتلوا» من الطلب والتتبع، وعلى الثاني: «تتلوا» من التلاوة .

القراءة بـ ﴿تَبَلَّوْا﴾ بتاء من فوق ثم باء موحدة من الابتلاء، أي: تختبر
ما أسلفت من العمل فتعرف كيف هو أنافع أم ضار أم مقبول أم مردود كما
يتعرف الرجل الشيء باختباره (٣).

حاصل القراءات :

يخبر الله عزوجل أنه في ذلك الموقف والمقام المقتضي للحيرة
والدهش تتبع كل نفس ما أسلفت من عمل وتتلوه وتقرأه وتختبره فتعرف كيف
هو لتجزي به.

(١) المبسوط ص ٢٠٠ النشر ٢٨٣/٢ الاتحاد ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٢) الكشف ٥١٧/١.

(٣) ماسبق ، البحر المحيط ١٥٣/٥.

تنبيهه : وقع خطأ مطبعي في الكشف ٥١٧/١ في السطر التاسع من أسفل الصفحة
كلمة: «الابتداء» صوابها: «الابتلاء»، وكلمة: «الاختيار» صوابها: «الاختبار» والله الموفق.

الموضع السابع والأربعون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ عَمَةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونَ﴾ يونس: ٧١.
هكذا قرأ عامة القراء العشرة.

وقرأ السري بن ينعم (١): «أفصوا إلي» بالفاء (٢).

معنى القراءتين :

القراءة بـ ﴿اقْضُوا﴾ بالقاف، أي: افعلوا ما بدا لكم.

القراءة بـ «أفصوا» بالفاء من أفضيت، معناه: اسرعوا إلي (٣).

قال ابن جني (ت ٣٩٢هـ) : «وهو أفضت من الفضاء، وذلك أنه إذا صار إلى الفضاء تمكن من الإسراع، ولو كان من ضيق لم يقدر من الإسراع على ما يقدر عليه من السعة... فقولهم: أفضيت: صرت إلى الفضاء، كقولهم... أعمن الرجل: إذا صار إلى عمان وأنجد: أتى نجداً، ونحو ذلك» اهـ (٤).

حاصل القراءتين :

الآية بالقراءتين تفيد أن نوحاً ﷺ قال لقومه: إن طال عليكم لبثي فيكم وتخويفي إياكم بآيات الله وعزمتكم على قتلي وطردي فعلى الله توكلت واعتمدت فاعزموا أمركم وافعلوا ما بدا لكم على وجه السرعة ولا تمهلون . وهذا اخبار من الله تعالى عن نبيه نوح ﷺ أنه كان بنصر الله واثقا ومن كيدهم غير خائف، وفيه تعزية لنبيه ﷺ وتقوية لقلبه (٥).

(١) السَّري بن يَنْعَمُ بفتح التحتانية وسكون النون وضم المهمله الجبلاني بضم الجيم وسكون الموحدة، شامي، صدوق عابد. الجرح والتعديل ٢٨٤/٤ التقريب ص ٢٣٠.

(٢) المحتسب ٣١٥/١.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٢٩/٣ معاني القرآن للنحاس ٣٠٧/٣ المحتسب ٣١٥/١.

(٤) المحتسب ٣١٦/١.

(٥) تفسير القرطبي ٣٦٤/٨.

الموضع الثامن والأربعون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يونس: ١٦.
وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ القيامة: ١.
تنوعت القراءات في قوله: ﴿وَلَا أَدْرَاكُمْ﴾ :
فروى قنبل بطرق عن ابن كثير بحذف الألف التي بعد اللام.
وروى العراقيون قاطبة عن أبي ربيعة عن البزي عن ابن كثير كذلك في
الموضعين.

وروى ابن الحباب والمغاربة والمصريون قاطبة عن البزي اثبات الألف
فيهما، وبذلك قرأ باقي العشرة (١).
وقرأ الشنوبزي عن الأعمش: «و لا نذرتكم به» بنون ساكنة و زال معجمة
مفتوحة وراء ساكنة وتاء مضمومة (٢)، وكذا هي في حرف ابن مسعود (٣).
وقرأ الحسن: «ولا أدراكم به» بهمزة ساكنة وتاء مرفوعة (٤) وهي قراءة
ابن عباس وابن سيرين كذلك (٥).
معنى القراءات :

القراءة بحذف الألف التي بعد اللام: ﴿وَلَا أَدْرَاكُمْ﴾ معناها : ولأعلمكم به،
ومعنى الآية: لو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليكم (٦)، أي: من غير
طريقي وعلى لسان غيري، ولكنه يمن على من يشاء من عباده، فخصني بهذه
الكرامة ورآني لها أهلا دون الناس (٧).

القراءة باثبات الألف: ﴿وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ معناها: لا يعلمكم الله به، ومعنى
الآية: لو شاء الله ما أرسلني إليكم فتلوت عليكم القرآن، ولا أعلمكم الله و
لا أخبركم به (٨).

القراءة بـ«ولا نذرتكم به» بنون ساكنة و زال معجمة مفتوحة وراء ساكنة

(١) النشر ٢ ٢٨٢ الاتحاف ص ٢٤٧.

(٢) البحر المحيط ١٣٣/٥ الاتحاف ص ٢٤٧ القراءات الشاذة ص ٥٢.

(٣) البحر المحيط ١٣٣/٥.

(٤) البحر المحيط ١٣٣/٥ الاتحاف ص ٢٤٧.

(٥) المحتسب ٣٠٩/١.

(٦) تفسير القرطبي ٣٢٠/٨.

(٧) البحر المحيط ١٣٢/٥.

(٨) تفسير القرطبي ٣٢٠/٨ البحر المحيط ١٣٢/٥.

وتاء مرفوعة معناها من الانذار (١)، ومعنى الآية لو شاء الله ما تلوت عليكم القرآن ولا أنذرتكم به، وهي في المعنى تعود إلى القراءة باثبات الألف: ﴿ولا أدراككم به﴾.

القراءة بـ«ولا أدراككم به» بهمزة ساكنة مكان الألف وبعدها تاء مضمومة في معناها وجهان :

الأول : أنها من الدراية، والأصل: «أدريتكم» فقلبت الياء همزة، وهي في المعنى تعود إلى القراءة باثبات الألف: ﴿ولا أدراككم به﴾.

الثاني : أنها من الدرء بمعنى الدفع وتكون الهمزة على هذا أصيلة، والمعنى: لو شاء الله ما تلوت القرآن عليكم ولا جعلتكم بتلاوته خصماء تدرؤونني بالجدال وتكذبونني (٢).

حاصل القراءات :

يأمر الله عز وجل رسوله ﷺ بأن يقول للكفار: لو شاء الله ما تلوت عليكم هذا القرآن ولا علمتم به مطلقا لا مني ولا من غيري، ولو شاء لأعلمكم به من غيري، ولو شاء الله ما تلوته عليكم ولا جعلتكم بتلاوته خصماء تدفعونني بالجدال وتكذبونني.

(١) البحرالمحيط ١٣٣/٥ الاتحاف ص ٢٤٧.

(٢) البحرالمحيط ١٣٣/٥ القراءات الشاذة ص ٥٢.

الموضع التاسع والأربعون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ يونس: ٩٢.
هكذا قرأ عامة القراء العشرة .

وقرأ أبي بن كعب و ابن السميعة ويزيد البربري: «فاليوم ننحيك ببदनك»
بالحاء (١).

معنى القراءات :

القراءة بالجيم: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ أي: نلقيك على نجوة من الأرض أو نبعدك مما وقع فيه قومك من قاع البحر ونظهرك جسدا لا روح فيه، وقيل غير ذلك وهو متقارب (٢).

القراءة بالحاء: «ننحيك» أي: نلقيك بناحية تلي البحر (٣).

حاصل القراءات :

أخبر تعالى أنه أبعد بدن فرعون مما وقع فيه قومه من قاع البحر، وأنه جعله على نجوة من الأرض بناحية مما يلي البحر.

(١) المحتسب ٣١٦/١ .

ثم رأيت ابن الجزري في النشر ١٦/١ يقول: «مما نقله غير ثقة كثير في كتب الشواذ مما غالب إسناداه ضعيف كقراءة ابن السميعة وأبي السمال وغيرهما في: ﴿نُنَجِّيكَ ببदनك﴾ «ننحيك» بالحاء المهملة» هـ

قلت : واعتمدت في إيرادها على المحتسب لما ذكره في مقدمته وبالله التوفيق .

(٢) تفسير القرطبي ٣٨٠/٨ البحر المحيط ١٨٩/٥ .

(٣) المحتسب ٣١٧/١ .

الموضع الخمسون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا، قَالَ سَلَامٌ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ هود: ٦٩.
وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا، قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ الذاريات: ٢٥.

تنوعت القراءات في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ﴾ :

فقرأ حمزة والكسائي بكسر السين وسكون اللام بلا ألف في الموضعين: ﴿سِلْمٌ﴾.

وقرأ باقي العشرة: ﴿سَلَامٌ﴾ بفتح السين واللام وبألف بعدها في الموضعين (١).

معنى القراءات :

قيل : سلام وسلم بمعنى واحد، كحرام وحرم، وحلال وحل (٢).

وقيل : القراءة بـ ﴿سَلَامٌ﴾ بمعنى التحية.

القراءة بـ ﴿سِلْمٌ﴾ بمعنى السلم ضد الحرب تقول: نحن سلم لكم (٣).
حاصل القراءات :

رد إبراهيم عليه السلام تحيتهم بالتحية بالمثل وبأحسن، كما أعطاهم السلم، فكأنه قال لهم: لست مريدا غير السلامة والصلح.

(١) المبسوط ص ٢٠٥ النشر ٢٩٠/٢ الاتحاد ص ٢٥٨.

(٢) معاني القرآن للقرآء ٢٠/٢-٢١.

(٣) البحر المحيط ٢٤١/٥.

الموضع الحادي والخمسون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ، كَذَلِكَ لَنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ يوسف: ٢٤.

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ: رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾ الحجر: ٣٩-٤٠.

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ ذَكَرَ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ مريم: ٥١.

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ الصافات: ٣٩-٤١.

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الصافات: ٧٣-٧٤.

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الصافات: ١٢٧-١٢٨.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ. إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الصافات: ١٥٨-١٦٠.

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ. لَوْ أَنْ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ. لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الصافات: ١٦٧-١٦٩.

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾ سورة ص ٨٢-٨٣.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿مُخْلَصًا﴾ و﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ :

فقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿مُخْلَصًا﴾ بفتح اللام ووافقهم الأعمش.

وقرأ سائر العشرة: ﴿مُخْلَصًا﴾ بكسر اللام ووافقهم ابن محيصن واليزيدي والحسن (١).

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بكسر اللام في جميع القرآن، ووافقهم اليزيدي والحسن وابن محيصن.

وقرأ أبو جعفر ونافع وعاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام في جميع القرآن العظيم، ووافقهم الأعمش (٢).

(١) المبسوط ص ٢٤٤ النشر ٢٩٥/٢ الاتحاف ص ٢٦٤.

(٢) المبسوط ص ٢٠٩ إرشاد المبتدي ص ٣٨٠ الاتحاف ص ٢٦٤.

معنى القراءات :

القراءة بكسر اللام: ﴿مُخْلِصًا﴾ و﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ أي: أخلصوا دينهم وأعمالهم من الرياء (١) لأن اسم الفاعل يدل على من وقع منه الفعل أو تعلق به (٢).

القراءة بفتح اللام: ﴿مُخْلِصًا﴾ و﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ أي: الله أخلصهم من الأسواء والفواحش فصاروا مخلصين (٣) لأن اسم المفعول يدل على من وقع عليه الفعل (٤).

حاصل القراءات :

أخبر الله عزوجل أنه استخلصهم لعبادته وخلصهم من أدران القلوب والأعمال وهياهم بذلك ليكونا مخلصين له الدين حنفاء.

ويلاحظ مايلي :

(١) أن القراءتين تكمل احداهما الأخرى، ولا تعارض بينهما ولا تناقض.

(٢) أن الإخلاص لما كان في أصله موهبة من الله تعالى، وعملا من صاحبه جاءت القراءتان بصيغة اسم الفاعل واسم المفعول.

فغاية القراءة بفتح اللام الاخبار بأن الله أخلصهم وهياهم ليكونوا مخلصين، كقوله عزوجل: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ سورة ص ٤٦.

وغاية القراءة بكسر اللام الدلالة على أنهم فعلوا الاخلاص في أعمالهم وقلوبهم، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ النساء: ١٤٦ وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ الزمر: ١٤ وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ البينة: ٥.

(١) معاني القرآن للزجاج ١٠٢/٣ حجة القراءات ص ٣٥٨-٣٥٩.

(٢) شذا العرف ص ٧٧.

(٣) معاني القرآن للزجاج ١٠٢/٣ حجة القراءات ص ٣٥٩.

(٤) شذا العرف ص ٧٩.

الموضع الثاني والخمسون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ إبراهيم: ٤٦.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿لِتَزُولَ﴾ :

فقرأ الكسائي وحده: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ بفتح اللام الأولى وضم الثانية، ووافقه ابن محيصن.

وقرأ باقي العشرة: ﴿لِتَزُولَ﴾ بكسر اللام الأولى وفتح الثانية، ووافقهم اليزيدي والحسن والأعمش (١).

معنى القراءات :

القراءة بفتح اللام الأولى وضم الثانية: ﴿لِتَزُولَ﴾ معناها: عند الله مكرهم، وإن كان مكرهم يقرب في الكيد إلى إزالة الجبال، فإن الله ينصر دينه، ومكرهم عنده لا يخفى؛ فمعنى: هذه القراءة أن الله جل ذكره عظم مكرهم كما قال: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ نوح: ٢٢ وقال: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ مريم ٩٠-٩١ (٢).

وهذا المعنى في هذه القراءة المتواترة تدل عليه قراءة أبي بن كعب: «ومكرو مكرهم، وعند الله مكرهم، ولولا كلمة الله لزال من مكرهم الجبال» (٣). وروي عن عمر و علي و ابن مسعود وابن عباس أنهم قرؤوا: «وإن كاد مكرهم لتزول منه الجبال» (٤).

فهذا دليل على تعظيم مكرهم، ولأن كاد في كلام العرب تكون لمقاربة الفعل (٥).

والقراءة بكسر اللام الأولى وفتح اللام الثانية أي ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، فمكرهم أضعف وأوهن من أن تزول منه الجبال

(١) المبسوط ص ٢١٨ إرشاد المبتدي ص ٣٩٤ الإتحاف ص ٢٧٣.

(٢) معاني القرآن وأعرابه للزجاج ١٦٧/٣ معاني القرآن للنحاس ٤٢٢/٣ الكشف ٢٧/٢.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤٤٣/٣ الكشف ٢٧/٢ ولم يورد سندها، وهي مخالفة لرسم المصحف، والظاهر أنها قراءة تفسيرية والله أعلم.

(٤) أعراب القرآن للنحاس ١٨٧/٢ علل القراءات ٣٣٧/١ المحتسب ٣٦٥/١ الكشف ٢٧/٢ الدر المنثور ٥٣/٥-٥٤ كنز العمال ٥٩٦/٢.

(٥) الكشف ٢٨/٢، وقد نبه ابن هشام في «مغني اللبيب» ص ٨٦٨-٨٦٩ على أن ما شاع في ألسن بعض المشتغلين بالنحو من أن «كاد» نفيها إثبات وإثباتها نفي غير صحيح، والصواب أن معناها هو المقاربة.

الراسيات، وهي بعض خلق الله عزوجل، فكيف يمكن لمكرهم أن يزيل القرآن والنبوة والله وعد نبيه ﷺ اظهر دينه فقال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ الفتح: ٢٨ ويدل على هذا قوله سبحانه وتعالى بعد هذه الآية: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعَدَّهُ رَسُولُهُ﴾ أي: لا يخلفهم ما وعدهم من نصره واظهار نبوتهم وكلمتهم (١).
حاصل القراءات :

أن الكفار مكروا مكرا عظيما كبيرا يقرب من أن يزيل الجبال، لكن مكرهم هذا بالنسبة الى الله عزوجل ضعيف واهن لا يستطيع أن يزيل جبلا خلقه الله، فكيف يستطيعون بمكرهم أن يزيلوا أمر الدين والنبوة والقرآن التي وعد الله رسوله باظهارها على الدين كله ولو كره الكافرون.
وتلاحظ الأمور التالية :

(١) أن اختلاف معنى القراءتين ليس من باب اختلاف التناقض والتعارض بل من اختلاف التنوع، وكلا المعنيين حق.
قال ابن جني : «إن قيل: هذا اختلاف في التأويل بإثبات من إحدى القراءتين ما نفته الأخرى!».

قيل : لا، ليس ذلك ضدا و لا ناقضا، وذلك أن قوله: عز اسمه: ﴿وإن كان مكرهم لتزول من...﴾ أي: إن مكرهم تزول منه الجبال، ودخلت اللام للفرق بين «إن» المخففة من الثقيلة و «إن» النافية كدخولها في قوله سبحانه: ﴿إن كاد يضلنا عن آلهتنا...﴾ [الفرقان: ٤٢] أي: إنه قد كاد يضلنا، وليست لام الابتداء كما يظن من لا خبرة له...

و أما ﴿لَتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ فمعناه - لعمرى -: إن الجبال لا تزول منه، وليس هذا نفيا لما أثبتته القراءة الأخرى؛ وذلك أن الجبال في قوله: ﴿لَتَزُولَ﴾ المراد به هذه الجبال التي هي أوتاد الأرض.

والجبال في قراءة من قرأ: ﴿لَتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ لا يعنى بها هذه التي ذكرناها، وإنما المراد بها - والله أعلم - ثبات الدين وعزة المسلمين فسماه عز اسمه جبالا لثباته وتمكنه، ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ [التوبة: ٣٣] وقوله: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ [الصف: ٨] وغير ذلك من الآي الشاهدة بقوة الدين واعتلاء

(١) معاني القرآن للزجاج ١٦٦/٣ معاني القرآن للنحاس ٤٣/٣ حجة القراءات ص ٣٧٩.
ويلاحظ أنني اخترت تفسير الجبال بالمعنى المعروف في لغة العرب في القراءتين.

أيدي المؤمنين.

ويؤكد ذلك أن لفظ «الجبال» قد وضع عبارة عما لا تدركه المعاينة وإنما هو من المعاني المتصورة... وقد شاع ذلك في اللغة» اهـ (١).

(٢) أورد غالب أهل التفسير (٢) قصة النسور وخلاصتها: أن رجلاً طاغية اتخذ نسورا وأطعمها وسمنها ثم قعد هو وصاحبه في تابوت وربط التابوت بأرجل النسور وعلقوا اللحم فوق التابوت فكانت النسور كلما نظرت إلى اللحم صعدت وصعدت تذهب نحو اللحم حتى انقطع بصره من الأرض، ثم صوب العصا التي علق فيها اللحم إلى الأرض فتصوبت النسور إليها، فسمعت الجبال حفيف النسور فكانت ترى أنها أمر من السماء فكانت تزول فهو قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾. هكذا أورد كثير من المفسرين هذه القصة، وهي بعيدة جداً والظاهر أنها من الإسرائيليات والله أعلم.

وقد رد هذه القصة جماعة من أهل التفسير :

قال الرازي (ت ٦٠٦هـ) بعد إيراده لهذه القصة: «قال القاضي: وهذا بعيد جداً لأن الخطر فيه عظيم، ولا يكاد العاقل يقدم عليه، وما جاء فيه خبر صحيح معتمد ولا حجة في تأويل الآية البتة» اهـ (٣).

وقال علاء الدين أبوالحسن الخازن (ت ٧٤١هـ) بعد حكايته للقصة: «واستبعد بعض العلماء هذه الحكاية، وقال: إن الخطر فيه عظيم...» (٤) وساق الكلام السابق.

وقال أبوحيان الأندلسي (ت ٧٤٤هـ): «وما روي من قصة النمروذ أو بختنصر واتخاذ الأنسر وصعودهما عليها إلى قرب السماء في قصة طويلة، وما تأول بعضهم أنه عبر بالجبال عن الاسلام والقرآن لثبوته ورسوخه، وعبر بمكرهم عن اختلافهم فيه من قولهم: هذا سحر، وهذا شعر، وهذا أفك؛ فأقوال ينبو عنها ظاهر اللفظ وبعيد جداً قصة الأنسر» اهـ (٥).

(١) الخطريات ص ٥٦-٥٨ باختصار.

(٢) منهم الطبري في تفسيره (دارالفكر) ٢٤٤/١٣ وفي تاريخه ٢٨٨/١-٢٩٠، والزجاج في معاني القرآن ١٦٧/٣ والنحاس في معاني القرآن ٤٤٤/٣ والبغوي في تفسيره ٤١-٤٠/٣ والقرطبي في تفسيره ٣٨٠/٩-٣٨١ وابن كثير في تفسيره ٤٤٢/٢ وغيرهم.

(٣) تفسير الرازي ١٤٤/١٩.

(٤) تفسير الخازن ٨٦/٣.

(٥) البحر المحيط ٤٣٨/٥.

وقال الألويسي (ت ١٢٧٠هـ) بعد نقله لكلام الرازي: «ونعم ما قال في خبر التسور؛ فإنه وإن جاء عن علي كرم الله وجهه وعن مجاهد وابن جبير وأبي عبيدة والسدي وغيرهم إلا أن في الخبر ما لا يخفى على من نقر، وقد شاع ذلك من أخبار القصاص وخبرهم ما وقع عن درجة القبول، ولو طاروا إلى النسر الطائر...» اهـ (١).

قلت : ولعل عذر من أوردها ما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ : «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» (٢)، خاصة وأنها لا تخالف ما عندنا بل توافقه رغم بعدها عن الواقع والله أعلم.

(١) روح المعاني ٢٥٢/١٣.

(٢) حديث صحيح عن عبدالله بن عمرو.

أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل تحت رقم (٣٤٦١) والترمذي في كتاب العلم باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل تحت رقم (٢٦٧١)، وانظر ما سبق ص ٥٨.

الموضع الثالث والخمسون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سُرَابِيلَهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ إبراهيم: ٤٩-٥٠.
هكذا قرأ عامة القراء العشرة.

وقرأ زيد بن أخي يعقوب عن عمه يعقوب الحضرمي - أحد القراء العشرة - وكذا أبوحاتم عنه، وكذا قرأ علي بن أبي طالب وأبو هريرة وابن عباس وعكرمة وابن جبير وابن سيرين والحسن - بخلاف عنه - وسنان بن سلمة وزيد بن علي وقتادة وأبو صالح والكلبي وعيسى الهمداني وعمرو بن فائد وعمرو بن عبيد جميعهم قرأ بفتح القاف وكسر الطاء وتنوين الراء «قطر»، «آن» بالتنوين على أنها كلمتين (١).

معني القراءات :

قراءة القراء العشرة: ﴿قَطِرَانٍ﴾ أي: قطران الأبل، وهوشيء يتحلب من شجر تهنأ (يعني: تطلّى) به الأبل عند إصابته بالجرب .
والقراءة الأخرى على كلمتين «قطر آن» القطر: النحاس المذاب، و«آن»: الذائب الحار الذي قد تناهى حره (٢).

حاصل القراءات : أن سراويل المجرمين في النار ستكون من قطران ومن نحاس مذاب حار تناهى حره، فالقراءة الخارجة عن العشرة وسّعت معنى الآية وبيّنت أن للمجرمين سراويل من قطران وسراويل من نحاس مذاب غاية في الحرارة والله أعلم.

وتلاحظ الأمور التالية :

(١) أن هذه القراءة صحيحة السند عن رسول الله ﷺ، ولا تخالف رسم المصحف ولا تخالف العربية.

(٢) أنه ورد عن السلف في تفسير الآية قولان ، فظن اختلافاً ليس باختلاف وإنما كل تفسير على قراءة فمن فسر الآية بقوله سراويلهم من قطران الأبل، يطلّى به حتى يشتعل ناراً كما ورد عن الحسن (٣) وعكرمة (٤) فهو تفسير لقراءة من قرأ: ﴿قَطِرَانٍ﴾ كلمة واحدة بدون تنوين كلمة «قطر» .
ومن فسر الآية بقوله: سراويلهم من نحاس مذاب حار، كما ورد عن ابن

(١) علل القراءات ٨٩/١ المحتسب ٣٦٦/١.

(٢) زاد المسير ٣٧٧/٤ البحر المحيط ٤٤٠/٥.

(٣) تفسير الطبري (دار الفكر) ٢٥٦/١٣.

(٤) الدر المنثور ٦٠/٥.

عباس (١) وابن جبير (٢) فهو تفسير لقراءة من قرأ: «قطر آن» بالتنوين على كلمتين.

(٣) قال الفراء (ت٢٠٧هـ): «قوله: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ﴾ عامة القراء مجمعون على أن القطران حرف واحد مثل الطربان. قال وحدثني حبان عن الكلبي عن أبي صالح أن ابن عباس فسرهما: «من قطر آن» قد انتهى حره، قرأها ابن عباس كذلك.» (٣).
قال أبوزكريا: «وهو من قوله: ﴿قَالَ آتُونِي أَفْرَغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦].» اهـ (٤).

(٤) أسوق هنا كلاما للطبري (ت٣١٠هـ) حول هذه القراءة الأحادية مع التنبيه على حال بعض الأسانيد عنده قال الطبري: «قد روي عن بعض المتقدمين أنه كان يقرأ ذلك: «من قطرآن» بفتح القاف وتسكين الطاء وتنوين الراء وتصيير «آن» من نعته، وتوجيه معنى القطر إلى أنه النحاس ومعنى «الآن» إلى أنه الذي قد انتهى حره. وممن كان يقرأ **كذلك**... عكرمة مولى ابن عباس. حدثني بذلك أحمد بن يوسف قال: حدثنا القاسم قال: حدثنا هشيم قال: أخبرنا حصين به (٥)....

-
- (١) تفسير الطبري (دارالفكر) ٢٥٧/١٣ الدر المنثور ٦٠/٥.
(٢) ماسبق.
(٣) إسناد ضعيف جدا.
أخرجه الفراء كما ترى في معاني القرآن ٨٢/٢ وابن خالوية في علل القراءات ٩٠/١ من طريق آخر قال حدثني ابن مجاهد عن السمرى عن الفراء عن أبي بكر بن عياش عن الكلبي به.
والكلبي هو محمد بن السائب قال عنه في التقريب ص ٤٧٩: «متهم بالكذب ورمي بالرفض» اهـ.
وينظر الاتقان (أبوالفضل) ٢٠٩/٤.
(٤) معاني القرآن للفراء ٨٢/٢.
(٥) إسناد صحيح إلى عكرمة.
أخرجه الطبري في تفسيره (دارالفكر) ٢٥٦/١٣.
قلت: أحمد بن يوسف شيخ الطبري هو الأزدي أبو الحسن النيسابوري حافظ ثقة كما في «التقريب» ص ٨٦.
والقاسم هو أبو عبيد بن سلام امام مشهور ثقة فاضل كما في التقريب ص ٤٥٠.
وهشيم هو ابن بشير أبو معاوية السلمي ثقة ثبت كثير التدليس والارسال الخفي كما في التقريب ص ٥٧٤.
قلت: صرح هشيم هنا بالتحديث كما ترى.
وحصين هو ابن عبد الرحمن أبوالهذيل السلمي الكوفي ثقة تغير حفظه في الآخر كما في التقريب ص ١٧٠.

حدثني المثنى قال: حدثنا إسحاق قال: حدثنا عبد الرحمن ابن أبي حماد قال: حدثنا يعقوب القمي عن جعفر عن ابن جبير أنه كان يقرأ: «سراييلهم من قطر آن» (١)....

حدثني المثنى قال: حدثنا إسحاق قال: حدثنا هشام قال: حدثنا أبو حفص عن هارون عن قتادة أنه كان يقرأ: «من قطر آن» قال من صفر قد انتهى حره» (٢).

قال الطبري: «وكان الحسن يقرأها: «من قطر آن» اهـ» (٣).

(٥) تقدم أن هذه القراءة صحيحة السند عن النبي ﷺ، ولا يضرها ورودها من بعض الطرق الضعيفة والواهيّة فقد رواها عن يعقوب الحضرمي زيد ابن أخيه كما ذكره ابن مهران (٤) ولم يتفرد زيد بذلك عن عمه يعقوب بل تابعه أبو حاتم عن يعقوب (٥).

(١) إسناده ضعيف .

أخرجه الطبري في تفسيره (دارالفكر) ٢٥٦/١٣ .
المثنى شيخ الطبري قال أحمد شاكر في تحقيقه لتفسير الطبري (١/١٧٦): «أما المثنى شيخ الطبري فهو المثنى بن إبراهيم الآملي يروي عنه الطبري كثيرا في التفسير والتاريخ» اهـ

قلت : رواية الطبري عن المثنى في تاريخه محصورة في بضع وعشرين رواية كما في الفهارس العامة لتاريخ الطبري ٣٨٨/١٠ ولم أعثر له على ترجمة فيما بين يدي من كتب .
وإسحاق هو ابن الحجاج له ترجمة في الجرح والتعديل ٢١٧/٢ لم يذكر فيها جرحا ولا تعديلا، فهو مجهول الحال، وصرح الطبري باسمه في مواضع منها في تفسيره (شاكر) ٣٨٥، ٢٠٦/٢ .

وعبد الرحمن بن أبي حماد هو عبد الرحمن بن سكين بن أبي حماد ترجم له في غاية النهاية (١/٣٦٩) وقال: «صالح مشهور» .

وعزاه بنحوه في «الدر المنثور» ٦٠/٥ إلى ابن أبي حاتم .

(٢) إسناده ضعيف .

أخرجه الطبري في تفسيره (دارالفكر) ٢٥٧/١٣ .

قلت : وفي السند المثنى وإسحاق ابن أبي حماد تقدما فيما قبله .

(٣) تفسير الطبري (دارالفكر) ٢٥٦/١٣ باختصار .

(٤) الغاية في القراءات العشر ص ١٨٤ المبسوط ص ٢١٨ وأورد في أولهما إسناده في القراءة عن زيد عن يعقوب، الغاية ص ٦٩-٧٠ المبسوط ص ٧٧-٧٨ .

(٥) زاد المسير ٣٧٧/٤ .

الموضع الرابع والخمسون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النحل: ١١٠.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿ما فتنوا﴾ :

فقرأ ابن عامر بفتح الفاء والتاء مبنيا للفاعل: ﴿ما فَتَنُوا﴾.

وقرأ باقي العشرة بضم الفاء وكسر التاء مبنيا للمفعول: ﴿ما فُتِنُوا﴾، ووافقهم اليزيدي والأعمش والحسن وابن محيصن (١).

معنى القراءات :

القراءة بفتح الفاء والتاء معناها: من بعد ما فتنوا الناس عن دين الله عزوجل، فالآية تشير إلى من أسلم من المشركين ، ويحتمل أن يكون المعنى: من بعد ما فتنوا أنفسهم بإظهار ما أظهروا للتقية؛ لأن الرخصة لم تكن نزلت بعد (٢).

القراءة بضم الفاء وكسر التاء معناها من بعد ما فتنهم المشركون عن دينهم (٣).

حاصل القراءات :

بينت الآية حكم من فتن وعذب في دين الله تعالى فاعطى المشركين من القول ما طلبوه كما فعل عمار بن ياسر.

وحكمه أن الله يغفر له.

وبينت الآية بقراءة ابن عامر حكم من آذى المسلمين وفتنهم وعذبهم في دين الله ثم أسلم.

وحكمه أن الله عزوجل يغفر له ذلك، والله أعلم.

(١) المبسوط ص ٢٢٦ النشر ٣٠٥/٢ الإتحاف ص ٢٨٠-٢٨١.

(٢) زاد المسير ٤/٤٩٨.

وعكس ذلك أبوحيان، فجعل الأول محتملا والثاني هو الظاهر. البحر المحيط

٥٤١/٥.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٢٢٠/٣ زاد المسير ٤/٤٩٨.

بسم الله الرحمن الرحيم
قام الطالب باستيفاء الملاحظات المطلوبة
منه في المذاكرة

عبد العزيز محمد علي
مراجعة د. محمد
١٥ عبد الله بن محمد

المكتبة العامة للعلوم
بجامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات
الدراسات العليا
فروع الكتاب والسنة

القرآن وآثرها في التفسير والأحكام



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٢١٠٨

١٠٠٤٢٩٠

إعداد

محمد بن عمر بن صالح باز

لنيل درجة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية

إشراف

فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور

عبد الستار فتح سعيد



١٤١٢ هـ - ١٤١٣ هـ

المكتبة العامة
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الدراسات العليا
فروع الكتاب والسنة

القرآن

وأثرها في التفسير والأحكام

إعداد

محمد بن عمر بن صالح باز

لنيل رجة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية

إشراف

فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور

عبد الستار فتح سعيد

المجلد الثاني

١٤١٢ هـ - ١٤١٣ هـ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الموضع الخامس والخمسون :
قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ الإسراء: ١٦.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ :

فقرأ يعقوب بمد الهمزة: ﴿آمَرْنَا﴾ ورويت عن ابن كثير وأبي عمرو وعاصم ونافع من غير الطرق التي اشتهرت عنهم، ووافقه الحسن (١) وبها قرأ علي بن أبي طالب وابن أبي اسحاق وأبورجاء وعيسى بن عمر وسلام وعبد الله بن أبي يزيد والكلبي وتروى عن ابن عباس والحسن وقتادة وأبي العالية وابن هرمز (٢).

وقرأ باقي العشرة: ﴿أَمَرْنَا﴾ بدون مد وبفتح الميم (٣) وهاتان قراءتان متواترتان.

وزواية عن الحسن ويحيى بن يعمر وعكرمة: «أمرنا» بكسر الميم، وتروى عن ابن عباس كذلك.

وقرأ ابن عباس وأبو عثمان النهدي والسدي وزيد بن علي وأبو العالية: «أَمَرْنَا» بتشديد الميم (٤) وهاتان قراءتان أحاديثان.
معنى القراءات :

قراءة من قرأ: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بدون مد وبفتح الميم في معناها ثلاثة أقوال:

الأول : أنه من الأمر، وفي الكلام إضمار تقديره: أمرنا مترفيها بالطاعة ففسقوا، وهو قول ابن جبير.

قال الزجاج (ت٣١١هـ): «ومثل قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ من الكلام: أمرتكم فعصيتني؛ فقد علم أن المعصية مخالفة الأمر وكذلك الفسق مخالفة أمر الله جل ثناؤه» اهـ (٥).

قال النحاس (ت٣٣٨هـ): «المعنى: أمرناهم بالطاعة، والفاسق إذا أمر بالطاعة عصي؛ فغضوا؛ فحق عليهم القول بالعصيان، أي: وجب» اهـ (٦).

الثاني : ﴿أَمَرْنَا﴾: كثرنا ، يقال: أمر بنو فلان إذا كثروا، والمعنى:

(١) المبسوط ص ٢٢٨ النشر ٣٠٦/٢ الإتحاف ص ٢٨٢.

(٢) المحتسب ١٥/٢-١٧ زاد المسير ١٩/٥ البحر المحيط ٢٠/٦.

(٣) المبسوط ص ٢٢٨ النشر ٣٠٦/٢ الإتحاف ص ٢٨٢.

(٤) المحتسب ١٥/٢-١٧ زاد المسير ١٩/٥ البحر المحيط ٢٠/٦.

(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٣٢/٣.

(٦) معاني القرآن الكريم للنحاس ١٣٤/٤.

كثرت مترفياها.

الثالث : ﴿أمرنا﴾: أمرنا، يقال: أمرت الرجل، بمعنى: أمرته، والمعنى: سلطنا مترفيا بالإمارة (١).

معنى قراءة: ﴿أمرنا﴾ بمد الهمزة وفتح الميم على صيغة «فاعل» التي تقتضي المشاركة في الأكثر، وهي هنا لا تقتضي ذلك والمعنى: كثرت مترفيا (٢).

وصيغة «فاعل» إذا جاءت بمعنى المجرد فإنها قد تقتضي التكثير من الفعل فتكون بمعنى «فعل» المضعف (٣) وهي هنا كذلك.

معنى قراءة: «أمرنا» بتشديد الميم فيه قولان :

الأول : أنها بمعنى: كثرت.

الثاني : أنها من الإمارة بمعنى: ولينا مترفيا وصيرناهم أمراء (٤).

حاصل القراءات :

هذه الأقوال جميعها في معنى الآية بالقراءات الواردة فيها لا مانع منها، فإله إذا أراد إهلاك قرية كثر مترفيا وجعلهم أمراء عليها وأمرهم بالطاعة فعصوا ، فتكون المعصية والفجور غالين، فإذا تمت هذه الأمور حق عليها القول فدمرها سبحانه وتعالى تدميرا .

وتلاحظ الأمور التالية :

(١) أن الآية بمجموع القراءات الواردة فيها تكشف عن سنة من سنن الله في المجتمعات، فهو سبحانه إذا أراد هلاك قرية فإنه يبدأ من فساد المترفين ثم يكون التأمير والانغماس في الترف ثم يكون التكثير والركون للظالمين (٥).

وفي هذا تنبيه إلى تأكيد وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة من الرعية للراعي، والنصيحة من الراعي للرعية.

وقد أشارت إلى هذا المعنى آيات منها: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ الأنعام: ١٢٣.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ هود: ١٠٢.

(١) معاني القرآن الكريم للنحاس ١٣٤/٤، زاد المسير ١٨/٥-١٩.

(٢) ماسبق، البحر المحيط ٢٠/٦.

(٣) شذا العرف ص ٤٢-٤٣.

(٤) معاني القرآن الكريم للنحاس ١٣٤/٤ البحر المحيط ٢٠/٦.

(٥) انظر سنن الله في المجتمع من خلال القرآن ص ٣٣-٣٨.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾^١
هود ١١٦-١١٧.

قال سيد قطب (ت ١٣٨٧هـ) في كلامه على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ الاسراء: ١٦ قال: «والآية تقرر سنة الله هذه، فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك فكثرت فيها المترفون فلم تدافعهم (يعني: القرية وأهلها) ولم تضرب على أيديهم؛ سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها، فعم فيها الفسق، فتحللت وترهلت فحقت عليها سنة الله وأصابها الدمار والهلاك، وهي المسؤولة عما يحل بها لأنها لم تضرب على أيدي المترفين، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين، فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا، ولو أخذت (يعني: القرية وأهلها) عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحققت الهلاك، وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك.

إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف وسننا لا تتبدل، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة الله وتحقق كلمته، والله لا يأمر بالفسق، إن الله لا يأمر بالفحشاء، لكن وجود المترفين في ذاته دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها، وسارت في طريق الانحلال وأن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقا، وهي التي تعرضت لسنة الله بسماحتها للمترفين بالوجود والحياة.

فالإرادة هنا ليست إرادة للتوجيه القهري الذي ينشيء السبب ولكنها ترتب النتيجة على السبب، الأمر الذي لا مفر منه لأن السنة جرت به، والأمر ليس أمرا توجيهيا إلى الفسق ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود المترفين وهي الفسق^(١).

وهنا تبرز تبعات الجماعة في ترك النظم الفاسدة تنشيء آثارها التي لا مفر منها، وعدم الضرب على أيدي المترفين فيها كي لا يفسقوا فيها فيحق عليها القول فيدمرها تدميرا.

(١) كلام الشيخ سيد قطب رحمه الله، لا ينفي الإرادة القدريّة إنما يريد - والله أعلم - أن وقوع ذلك على هذه الهيئة هو من الإرادة الكونية القدريّة، هذا ما يظهر، والله أعلم. فإن كانت الأخرى فهذا مذهب المعتزلة، وانظر «البيان لأخطاء بعض الكتاب» ص ١٥٢. وقد بين ابن قيم الجوزية رحمه الله أن الإرادة في الآية من الإرادة الكونية، القدريّة، ودلل على أرجحيته من سبعة أوجه، وذلك في كتابه: «شفاء العليل» ص ٢٨٠-٢٨١.

هذه السنة قد مضت في الأولين من بعد نوح قرنا بعد قرن كلما فشت الذنوب في أمة انتهت بها إلى ذلك المصير، والله هو الخبير بذنوب عباده البصير ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الاسراء: ١٧]. اهـ (١).

(٢) شكك الفراء (ت ٢٠٧هـ) في قراءة: «أمرنا» فقال: «وقرأ الحسن: «أمرنا» وروى عنه «أمرنا» و لاندري أنها حفظت عنه لأننا لا نعرف معناها ها هنا» اهـ (٢).

قال أبوحيان (ت ٧٥٤هـ): «ورد الفراء هذه القراءة لا يلتفت إليه؛ إذ نقل أنها لغة كفتح الميم ومعناها كثرت» اهـ (٣). قلت: لكن يلاحظ أنها ليست من القراءات العشرة، مع موافقتها للرسم؛ لأنها لم تتواتر، والله أعلم.

(٣) قال أبوعلي الفارسي (ت ٣٧٧هـ): «لا وجه لكون ﴿أمرنا﴾ من الإمارة؛ لأن رياستهم لا تكون إلا لواحد بعد واحد، والاهلاك إنما يكون في مدة واحد منهم» اهـ (٤).

قلت: كذا قال وتعقبه أبو حيان (ت ٧٥٤هـ) رحمه الله بقوله: «ما قاله أبوعلي لا يلزم لأننا لا نسلم أن الأمير هو الملك بل كونه ممن يأمر ويؤتمر به، والعرب تسمي أميرا من يؤتمر به وإن لم يكن ملكا. ولئن سلمنا أنه أريد به الملك فلا يلزم ما قال؛ لأن القرية إذا ملك عليها مترف ثم فسق، ثم آخر ففسق، ثم كذلك كثر الفساد وتوالى الكفر ونزل بهم على الآخر من ملوكهم» اهـ (٥).

قلت: ما قاله أبوحيان رحمه الله هو الصواب، والله أعلم. (٤) في قراءة أبي بن كعب: «وإذا أردنا أن نهلك قرية بعثنا فيها أكابر مجرميها فمكروا فيها فحق عليها القول» (٦). قلت: والظاهر أنها تفسير منه للآية والله أعلم.

(١) في ظلال القرآن ٢٢١٧/٤-٢٢١٨.

(٢) معاني القرآن للفراء ١١٩/٢.

(٣) البحر المحيط ٢٠/٦.

(٤) بواسطه البحر المحيط ٢٠/٦.

(٥) ماسبق.

(٦) معاني القرآن للفراء ١١٩/٢ معاني القرآن الكريم للنحاس ١٣٦/٤.

الموضع السادس والخمسون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ الاسراء: ٤١.

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ الفرقان: ٥٠.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿ليذكروا﴾ :

فقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿ليذكروا﴾ باسكان الذال وضم الكاف مع تخفيفها في الموضعين، ووافقهم الأعمش.

وقرأ باقي العشرة: ﴿ليذكروا﴾ بفتح الذال والكاف مع تشديدها فيهما، ووافقهم ابن محيصن والحسن واليزيدي (١).

معنى القراءات :

القراءة باسكان الذال وضم الكاف مع تخفيفها من الذكر ضد النسيان.

القراءة بفتح الذال والكاف مع تشديدها من التذكر والاتعاظ

والاعتبار (٢).

حاصل القراءات :

في الآية أمر بالذكر وعدم النسيان وأمر بالاعتبار والتذكر والاتعاظ، ولا شك أن الاعتبار والتذكر لا يكون إلا بعد الذكر وعدم النسيان، كما أن الذكر وعدم النسيان لا يؤدي المقصود بدون الاعتبار والاتعاظ، فجمعت الآية بالقراءتين بين الأمرين والله أعلم.

ويلاحظ مايلي :

مثل هذا تماما تكرر في مواضع، وهي التالية :

١ - تنوع القراءة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ

وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ مريم: ٦٧.

قرأ نافع وابن عامر وعاصم: ﴿يَذْكُرُ﴾ باسكان الذال وضم الكاف من

الذكر ضد النسيان.

وقرأ باقي العشرة: ﴿يَذْكُرُ﴾ بتشديد الذال والكاف من التذكر

(١) المبسوط ص ٢٢٩ النشر ٣٠٧/٢ الإتحاف ص ٢٨٣.

(٢) الكشف ٤٧/٢ الإتحاف ص ٢٨٣.

والاعتاظ(١).

٢ - وتنوع القراءة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ الفرقان: ٦٢.

قرأ حمزة وخلف: ﴿يَذَّكَّرَ﴾ بتخفيف الـ ذال مسكنة، وتخفيف الكاف مضمومة.

وقرأ الباقيون بتشديد الـ ذال والكاف مفتوحتين(٢).

٣ - وتنوع القراءة في قوله تعالى: ﴿قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَنْتُمْ دَكَّرْتُمْ﴾

يس: ١٩.

فقرأ أبو جعفر: ﴿دَكَّرْتُمْ﴾ بتخفيف الكاف من الذكر ضد النسيان.

وقرأ باقي العشرة بالتشديد في الكاف: ﴿دَكَّرْتُمْ﴾ من التذكر والاعتبار

والاعتاظ(٣).

(١) المغني في توجيه القراءات العشر ١٤/٣.

(٢) ماسبق ٩٣/٣.

(٣) ماسبق ١٧٤/٣-١٧٥.

الموضع السابع والخمسون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ الاسراء: ١٠٢.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ :

فقرأ الكسائي بضم التاء ووافقه الأعمش.

وقرأ الباقر بفتح التاء (١).

معنى القراءات :

القراءة بضم التاء معناها أن موسى ﷺ أخبر بذلك عن نفسه بصحة ذلك عنده، وأنه لا شك عنده في أن الذي أنزل الآيات هو رب السماوات والأرض (٢).

ومعنى القراءة بفتح التاء أن موسى ﷺ خاطب فرعون بأنك يا فرعون تعلم أن الذي أنزل الآيات هو رب السماوات والأرض، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل: ١٤ (٣).

حاصل القراءات :

أن موسى ﷺ أخبر بعلمه عن نفسه بصحة ذلك الله رب السماوات والأرض، هو الذي أنزل الآيات، كما أخبر موسى فرعون بأنه (فرعون) يعلم هذا كذلك؛ ولكنه العناد والكفر والظلم.

فأفادت القراءتان الإخبار عن حال موسى ﷺ وعن حال فرعون بآية واحدة مع الإيجاز.

قال أبو محمد علي بن حزم (ت ٤٥٦هـ): «وكلا القراءتين حق من عند الله تعالى، لا يجوز أن يرد منها شيء، فنعم موسى عليه الصلاة والسلام علم ذلك، وفرعون علم ذلك» اهـ (٤).

وتلاحظ الأمور التالية :

(١) أن القراءتين مع اختلاف لفظهما ومعناها وامتناع جواز اجتماعهما في شيء واحد؛ ليس بينهما تناقض ولا اختلاف تضاد، بل يصدق بعضها بعضا.

(١) الغاية ص ١٩٣ ارشاد المبتدي ص ٤١٤ الاتحاف ص ٢٨٧.

(٢) تفسير الطبري (دار الفكر) ١٧٤/١٥ الكشف ٥٢/٢.

(٣) حجة القراءات ص ٤١ تفسير القرطبي ٣٣٧/١٠.

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٢٠٣/٣.

(٢) إِنْ قِيلَ عَلَى قِرَاءَةِ الضَّمِّ: يُخْبِرُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ نَفْسِهِ مُحْتَاجًا بِذَلِكَ عَلَى فِرْعَوْنَ كَيْفَ يَصِحُّ الِاحْتِجَاجُ بِعِلْمِهِ، وَعِلْمُهُ لَا يَكُونُ حُجَّةً عَلَى غَيْرِهِ؟.

فَالْجَوَابُ : أَنَّهُ لَمَّا قِيلَ ﴿رَسَوَلَكُمُ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونًا﴾ الشُّعْرَاءُ: ٢٧ كَانَ ذَلِكَ قَدْحًا فِي عِلْمِهِ؛ لِأَنَّ الْمَجْنُونِ لَا يَعْلَمُ، فَكَأَنَّهُ نَفَى ذَلِكَ، وَدَفَعَ عَنْ نَفْسِهِ، فَقَالَ: لَقَدْ عَلِمْتُ صَحَّةَ مَا أَتَيْتُ بِهِ عِلْمًا صَحِيحًا كَعِلْمِ الْفَضْلَاءِ، فَصَارَتْ الْحُجَّةُ عَلَى فِرْعَوْنَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ (١).

(٣) وَفِي الْقِرَاءَةِ بِالْفَتْحِ تَوْبِيخٌ وَتَقْرِيعٌ وَتَقْرِيرٌ مِنْ مُوسَى ﷺ لِفِرْعَوْنَ.
(٤) وَفِي آيَةِ الْقِرَاءَتَيْنِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْكَافِرَ يَجْحَدُونَ بِالسَّنَنِ وَالْآيَاتِ الَّتِي أَتَى بِهَا الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقُلُوبُهُمْ تَسْتَيْقِنُ بِهَا، وَتَعْلَمُ أَنَّهَا حَقٌّ.

وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...﴾ الْبَقَرَةُ: ٢٥٦، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ النَّمْلُ: ١٣-١٤.

وَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَعْرِفَةَ الْقَلْبِيَّةَ، وَالْيَقِينَ الْقَلْبِيَّ الْمَجْرَدَ عَنْ عَمَلِ الْجَوَارِحِ، وَالْقَوْلَ بِاللِّسَانِ، لَا يَكُونُ إِيْمَانًا شَرْعِيًّا وَأَنَّهُ لَا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ (٢).

(١) حُجَّةُ الْقِرَاءَاتِ ص ٤١١.

(٢) الْفَصْلُ فِي الْمَلَلِ وَالْأَهْوَاءِ وَالنَّحْلِ ٣/ ٢٠٠-٢١٢. وَقَدْ أَطَالَ ابْنُ حَزْمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَقْرِيرِ هَذَا الْمَعْنَى وَأَقَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلَ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ وَالْإِجْمَاعِ وَالْمَعْقُولِ وَالْحِسِّ وَالْمُشَاهَدَةِ الْضَرُورِيَّةِ.

الموضع الثامن والخمسون :
 قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ لَخَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾ الكهف: ٥١.
 تنوعت القراءات في قوله: ﴿وَمَا كُنْتُ﴾ :
 فقرأ أبو جعفر بفتح التاء: ﴿وَمَا كُنْتُ﴾، ووافقه الحسن.
 وقرأ باقي العشرة: ﴿وَمَا كُنْتُ﴾ بضم التاء، ووافقهم الأعمش واليزيدي
 وابن محيصن (١).

معنى القراءات :

القراءة بفتح التاء: ﴿وَمَا كُنْتُ﴾ خطاب من الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ
 ليعلم أمته أنه لم يزل محفوظا لم يعتضد بمضل، ولا مال إليه.
 القراءة بضم التاء: ﴿وَمَا كُنْتُ﴾ اخبار من الله تعالى عن ذاته المقدسة
 بأنه سبحانه وتعالى ليس في حاجة إلى أحد (٢).

حاصل القراءات :

تضمنت الآية بالقراءتين خبرين :

أولهما : عن الله تبارك وتعالى أنه ليس في حاجة إلى أحد.
 ثانيهما : عن رسوله ﷺ أنه لم يتخذ المضلين عصدا .

(١) النشر ٣١١/٢ الاتحاف ص ٢٩١.

(٢) الاتحاف ص ٢٩١ المغني في توجيه القراءات العشر ٣٧٤/٢.

الموضع التاسع والخمسون :
 قول الله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ، قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعْدَبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ الكهف: ٨٦.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ :
 فقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحفص في روايته عن عاصم
 بغير ألف بعد الحاء وبهمز الياء: ﴿حَمِئَةٍ﴾، ووافقهم اليزيدي .
 وقرأ باقي العشرة بالألف وفتح الياء من غير همز: ﴿حَامِيَةٍ﴾ ووافقهم
 الحسن والأعمش واليزيدي (١).

معنى القراءات :
 القراءة بغير ألف بعد الحاء و بهمز الياء: ﴿حَمِئَةٍ﴾ أي: ذات حمأة،
 والحمأة الطين الأسود المنتن (٢)، ويقال: حمأت البئر أي: أخرجت حماتها.
 القراءة بالألف وفتح الياء من غير همز: ﴿حَامِيَةٍ﴾ حارة (٣).
 حاصل القراءات :

القراءة بالهمز: ﴿حَمِئَةٍ﴾ لا تنافي القراءة بغير همز: ﴿حَامِيَةٍ﴾ إذ قد
 تكون الشمس تغرب في عين حارة ذات حمأة، فتكون الآية بالقراءتين جمعت
 وصفين في العين التي تغرب فيها الشمس أنها حارة، وأنها ذات حمأ طين
 أسود نتن.
 ويلاحظ مايلي :

قال ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ): «ربما توهم متوهم أن هذه الشمس على عظم
 قدرها تغوص في عين ماء، وليس كذلك، فإنها أكبر من الدنيا (٤) مرارا فكيف
 تسعها عين ماء؟ وإنما وجدها تغرب في العين كما يرى راكب البحر
 الذي لا يرى طرفه أن الشمس تغيب في الماء، وذلك لأن ذا القرنين انتهى
 إلى آخر البنيان، فوجد عينا حمئة ليس بعدها أحد» اهـ (٥).



- (١) المبسوط ص ٢٣٨ النشر ٣١٤/٢ الاتحاد ص ٢٩٤.
- (٢) المفردات للراغب ص ١٣٣.
- (٣) معاني القرآن وأعرابه للزجاج ٣٠٨/٣ الكشف ٧٣/٢-٨٤.
- (٤) يقصد بـ«الدنيا» الأرض وليس العوالم جميعا.
- (٥) زاد المسير ١٨٦/٥ وانظر ما نقله صاحب «محاسن التأويل» عن ابن حزم في تقرير ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله ٩٦-٩٥/١١.

الموضع الستون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ قال: هي عصاي أتوكأ عليها، وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى﴾ سورة طه: ١٧-١٨.
هكذا قرأ عامة القراء العشرة: ﴿وأهش﴾ بضم الهاء والشين المعجمة.

وقرأ عكرمة: «وأهس» بالسين المهملة وهي قراءة آحادية.
وقرأ النخعي: «وأهش» بكسر الهاء وبالمعجمة (١) وهي آحادية.
معنى القراءات :

قيل : لا فرق بين ﴿أهش﴾ بالشين، و «أهس» بالسين فكلاهما بمعنى واحد (٢).

وقيل : بينهما فرق كما يلي (٣) :

قراءة الجمهور ﴿وأهش﴾ بالشين المعجمة والهاء المضمومة وقراءة النخعي «وأهش» بالشين المعجمة وبكسر الهاء تحتل وجهين:
الأول : من هش الخبز يهش إذا كان ينكسر لهشاشته والمعنى: أهش الورق والكأ والنبات أي أخبطه على رؤس غنمي لتأكله.
الثاني : من هش يهش هشاشة إذا مال أي: أميل بها على غنمي بما يصلحها من السوق وتكسير العلف ونحو ذلك (٤).
والقراءة بالسين المهملة «وأهس» معناها أسوق، أي: أنحي على غنمي بها زاجرا لها، والهس زجر الغنم (٥).

حاصل القراءات :

لا تمانع بين المعنيين جميعا فالعصا يستعملها في خبط الكأ والنبات والورق لتأكله الغنم، ويستعملها كذلك لزجر غنمه وسوقها.
ويلاحظ مايلي :

(١) التفريق بين معنى القراءتين هو المعتمد لأن التأسيس أولى من التأكيد (٦).

(١) المحتسب ٥٠/٢.

(٢) حكاة القرطبي في تفسيره ١٨٧/١١.

(٣) كما صنع صاحب الكشف ٤٣٠/٢ ومن قبله ابن جني في «المحتسب» ٥٠/٢، وحكاة القرطبي في تفسيره ١٨٧/١١ عن الماوردي.

(٤) المحتسب ٥٠/٢ الكشف ٤٣٠/٢ البحر المحيط ٢٣٤/٦.

(٥) ماسبق.

(٦) الاشباه والنظائر في فروع الشافعية ص ١٣٥.

(٢) على قراءة: «أهس بها على غنمي» بالسين المهملة يأتي سؤال: كيف قال: «أهس بها على غنمي»؟ و هلا قال: أهس بها غنمي، كقولك: أسوق بها غنمي.

أجاب عن هذا ابن حني (ت٣٩٢هـ) رحمه الله بقوله: «قيل: لما دخل السوق معنى الانتحاء لها، والميل بها عليها استعمل معها «على» حملا على المعنى... ومن ذلك قولهم: «كفى بالله» أي: كفى الله، إلا أنهم زادوا الباء حملا على معناه، إذ كان في معنى: أكتف بالله، ولذلك قالوا: «حسبك به» لمّا دخله معنى: «أكتف»، والفعل لا يخبر عنه، ونظائره كثيرة جدا» اهـ (١).

(٣) تضمن جواب موسى كليم الله ﷺ نكتا منها :

(أ) جاء جوابه ﷺ زيادة على السؤال، وحكمة ذلك رغبته عليه الصلاة والسلام في مطاولة مناجاته لربه تعالى، وازدياد لذاذته بذلك وتعداده نعمه تعالى عليه، بما جعل فيها من المنافع (٢) .

(ب) تضمنت هذه الزيادة تفصيلا في قوله: ﴿أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾ وإجمالا في قوله: ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ (٣).

(ج) قدّم في الجواب مصلحة نفسه في قوله: ﴿أتوكأ عليها﴾ ثم ثنى بمصلحة رعيته في قوله: ﴿وأهش بها على غنمي﴾ (٤).

وليس في هذا تفضيل لنفسه وأثرة لها وإنما لأن الغرض الأول فعلا المقصود من اتخاذ العصا هو التوكؤ عليها في هذا المقام.

(١) المحتسب ٥٠/٢ .

(٢) البحر المحيط ٢٣٤/٦ الإتيان (أبوالفضل) ٣١٢/٢ .

(٣) الكشف ٤٣٠/٢ .

(٤) البحر المحيط ٢٣٤/٦ .

الموضع الحادي والستون :

قوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ، وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ سورة طه: ٩٧.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ :

فقرأ ابن كثير وأبو عمرو و يعقوب بضم التاء وكسر اللام مبنيًا للفاعل: ﴿تُخْلَفُهُ﴾ ووافقهم ابن محيصن واليزيدي والحسن.

وقرأ باقي العشرة بفتح اللام على البناء للمفعول: ﴿تُخْلَفُهُ﴾ ووافقهم الأعمش (١).

معنى القراءتين :

القراءة بضم التاء وكسر اللام: ﴿تُخْلَفُهُ﴾ تحتل معنيين :

الأول : ستأتيه ولن تجده مخلفاً، كما يقال: أحمده أي: وجدته

محموداً .

الثاني : على التهديد أي: لا بد لك من أن تصير إليه (٢).

القراءة بفتح اللام بمعنى: إن الله لن يخلفك إياه (٣).

حاصل القراءتين :

يخبر الله تعالى عن قول موسى عليه الصلاة والسلام وتهديده إياه بأن له موعداً، أي يوم القيامة، لن يخلفه ولن يخلفه .

فمن قرأ بفتح اللام فالمعنى: يكافئك الله على ما فعلت في القيامة، والله لا يخلف الميعاد.

ومن قرأ بكسر اللام فالمعنى: إنك تبعث وتوافي يوم القيامة لا تقدر على غير ذلك، ولن تخلفه (٤).

ولا يخفى ما فيه من التهديد.

(١) المبسوط ص ٢٥٠ النشر ٣٢٢/٢ الإتحاف ص ٣٠٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥٧/٣ وقارن بتفسير القرطبي ٢٤٢/١١.

(٣) تفسير القرطبي ٢٤٢/١١.

(٤) معاني القرآن وأعرابه للزجاج ٣٧٥/٣.

الموضع الثاني والستون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ الأنبياء: ٩٦.

هكذا قرأ عامة القراء العشرة: ﴿من كل حدب﴾ بالحاء والباء.
وقرأ ابن مسعود: «من كل جدث ينسلون» بالجيم والطاء (١).
معنى القراءتين :

قراءة جمهور القراء: ﴿من كل حدب﴾ الحدب: كل ما ارتفع من ظهر الأرض (٢)، والمعنى يطلعون من كل ثنية ومرتفع ويعمون الأرض (٣).
وعلى هذه القراءة يكون الضمير «هم» عائداً على يأجوج ومأجوج (٤).
قراءة ابن مسعود: «جدث» يعني: القبر، أي: يخرج الناس من قبورهم للحشر (٥).

وعلى هذه القراءة يكون الضمير: «هم» عائداً على البشر (٦).
حاصل القراءتين :

جمعت الآية بالقراءتين بيان حال يجوج ومأجوج في خروجهم قبل قيام الساعة، وحال الناس في خروجهم للحشر كما في قوله تعالى: ﴿وَنَفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ سورة يس: ٥١.
ويلاحظ مايلي :

(١) أن هذا المتحصل من الآية بالقراءتين لا ينسجم مع سباق الآية ولحاقها؛ فإنه ذكر خروج يأجوج ومأجوج، وذكر بعدها قوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقِّ إِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا، يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ الأنبياء: ٩٧.

ولعل المعنى على قراءة: «من كل جدث» بالجيم والطاء من باب المقدم والمؤخر إذ المعنى: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق وهم (أي: العالم) من كل جدث ينسلون شاخصة أبصار الذين كفروا.
ويجوز أن يكون الضمير في قوله: «وهم من كل جدث» على القراءتين

(١) المحتسب ٦٦/٢.

(٢) المفردات للراغب ص ١١٠.

(٣) البحر المحيط ٣٣٩/٦.

(٤) ماسبق .

(٥) ماسبق.

(٦) تفسير القرطبي ٣٤١/١١ البحر المحيط ٣٣٩/٦.

بالجيم والثاء، وبالحاء والباء، يجوز أن يكون الضمير عائداً على يأجوج ومأجوج، والمعنى: إنهم يخرجون من كل مرتفع وثنية، ومن كل قبر ومنخفض، إذ يحصل منهم نبش القبور، والنزول في كل مكان يمرون عليه، وما نقل عن يأجوج ومأجوج لا يمنع ذلك إن لم يوافق.

(٢) عد الكرمانى (توفي بعد ٣١٥هـ) القول بأن مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ أي: جميع الخلق من كل حدب ينسلون؛ عد هذا القول من غرائب التفسير (١).

قلت : هو كذلك على قراءة العامة، أما على القراءة المروية عن ابن مسعود: «من كل جدث ينسلون» بالجيم والثاء فهو قول مستقيم؛ إذ تدل عليه هذه القراءة، ولذلك قال أبوحيان الأندلسي (ت: ٧٥٤هـ) رحمه الله: «الظاهر أن ضمير «هم» عائداً على يأجوج ومأجوج أي يطلعون من كل ثنية ومرتفع ويعمون الأرض وقيل: الضمير للعالم، ويدل عليه قراءة عبدالله وابن عباس: «من كل جدث» بالثاء المثلثة وهو القبر» اهـ (٢).

قلت : وقضية عدم انسجام هذا التفسير للقراءة مع سياق الآية تحل بأن الآية من باب المقدم والمؤخر، وقد أفرد هذا النوع السيوطي (ت: ٩١١هـ) رحمه الله في كتابه: «الإتقان في علوم القرآن» (٣).

(١) غرائب التفسير وعجائب التأويل ٧٤٨/١.

(٢) البحر المحيط ٣٣٩/٦.

(٣) تحقيق أبو الفضل إبراهيم ٣٣/٣.

الموضع الثالث والستون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ الحج: ٢٣.

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ فاطر: ٣٣.
تنوعت القراءات في قوله: ﴿وَلَوْلُؤًا﴾ :

فقرأ نافع وعاصم وأبوجعفر بالنصب في الموضعين.

وقرأ يعقوب موضع سورة الحج بالنصب.

وقرأ باقي العشرة الموضعين بالجر، ووافقهم الحسن والأعمش واليزيدي وابن محيصن.

وقرأ يعقوب موضع سورة فاطر بالجر (١).

معنى القراءات :

القراءة بالنصب: ﴿وَلَوْلُؤًا﴾ عطفًا على محل: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ أي: يحلون أساور ويحلون لؤلؤًا أو بتقدير فعل أي: ويؤتون لؤلؤًا.

وهذا الأخير لم يذكر غيره ابن جني (٢) (ت ٣٩٢هـ) رحمه الله.

القراءة بالجر: ﴿وَلَوْلُؤًا﴾ عطفًا على ﴿أَسَاوِرَ﴾ أي: يحلون أساور من لؤلؤ كما يحلون أساور من ذهب (٣).

حاصل القراءات :

أجملت القراءة بالنصب حال اللؤلؤ لما يعطى لأهل الجنة، وبينت القراءة بالجر أنهم يحلون به على هيئة أساور.

كما دلت الآية بالنصب على أن حليتهم باللؤلؤ ليست مقصورة على مجرد الأساور والله أعلم.

فأفادت القراءتان معنى العموم والخصوص معاً، وهذا أجدر بفضل الله تعالى، وأعظم في بيان جلال الثواب الذي يعطيه الله تعالى لعباده المؤمنين.

(١) المبسوط ص ٢٥٦-٢٥٧ النشر ٢/٣٢٦ الاتحاف ص ٣١٤.

(٢) المحتسب ٢/٧٨.

(٣) الكشف ٢ ١١٧-١١٨ البحر المحيط ٦/٣٦١.

الموضع الرابع والستون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ، فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكَلُّوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الحج: ٣٦.

هكذا قرأ عامة القراء العشرة: ﴿عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾.

وقرأ ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وإبراهيم وأبي جعفر محمد بن علي والأعمش واختلف عنهما، وعطاء بن أبي رباح والضحاك والكلبي: «صوافن» وهي قراءة شاذة.

وقرأ: «صوافي» أبو موسى الأشعري والحسن وشقيق وزيد بن أسلم وسليمان التيمي ورويت عن الأعرج (١)، وهي قراءة شاذة.

معنى القراءات :

قراءة الجمهور: ﴿صَوَافَّ﴾ أي: قد صفت قوائمها، أي: فاذكروا اسم الله عليها في حال نحرها، والبغير ينحر قائما.

القراءة بـ«صوافن» الصافن الذي يقوم على ثلاث، فالبغير إذا أرادوا نحره تعقل إحدى يديه فهو صافن، والجمع صوافن.

القراءة بـ«صوافي» أي: خوالص، والمراد خالصة لله عزوجل، ولا تشركوا في التسمية على نحرها أحدا (٢).

حاصل القراءات :

لا تمنع بين جميع هذه المعاني، فالبغير تنحر قائمة وعلى ثلاث، خالصة لله عزوجل.

مع ملاحظة أن القراءتين الثانية والثالثة شاذة لمخالفتها رسم المصحف، فيستفاد منها في التفسير فقط.

(١) المحتسب ٨١/٢ البحر المحيط ٣٦٩/٦.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤٢٨/٣ المحتسب ٨١/٢ البحر المحيط ٣٦٩/٦.

الموضع الخامس والستون :
قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ الحج: ٥١.

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزِ أَلِيمٍ﴾ سبأ: ٥.

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ سبأ: ٣٨.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ :

فقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ بدون ألف وبتشديد الجيم في المواضع الثلاثة، ووافقهما اليزيدي فيها، وابن محيصن في موضع سورة الحج، والموضع الثاني من سورة سبأ.

وقرأ باقي العشرة: ﴿معاجزين﴾ بالالف وتخفيف الجيم (١).
معنى القراءات :

القراءة بدون ألف وبتشديد الجيم: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ أي: مثبطين الناس عن الإسلام ويؤخرونهم عن الدخول فيه، وهو بمعنى: يحببون إليهم ترك اتباع النبي ﷺ (٢).

القراءة بالالف وبتخفيف الجيم: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ أي: مشاقين الله تعالى، وقيل: معاندين الله تعالى، وقيل: مسابقين الله تعالى، والمعنى: إنهم ظنوا أنهم يعجزون الله، وقيل: يفوقونه فلا يقدر عليهم، وذلك باطل من ظنهم (٣).
قال الزمخشري (ت٥٣٨هـ): «عاجزه سابقه؛ لأن كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به، فإذا سبقه قيل: أعجزه وعجزه، والمعنى: سعوا في ﴿آياتنا﴾ بالفساد من الطعن فيها حيث سموها سحرا وشعرا وأساطير، ومن تثبيط الناس عنها سابقين أو مسابقين في زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم» اهـ (٤).

حاصل القراءات :

أثبتت القراءة بالالف وتخفيف الجيم سعي الكفار إلى إبطال حجج الإسلام وآيات صدق المصطفى ﷺ، واثبتت القراءة بدون ألف وبالتشديد سعي الكفار إلى تثبيط المسلمين عن الإسلام، ولا مانع من إرادة ذلك جميعه.

(١) المبسوط ص ٢٥٨ النشر ٣٢٧/٢ الاتحاف ص ٣١٦.

(٢) الكشف ١٢٢/٢-١٢٣ البحر المحيط ٣٧٩/٦.

(٣) الكشف ١٢٣/٢ زاد المسير ٤٤٠/٥.

(٤) تفسير الزمخشري ٣٦-٣٧.

الموضع السادس والستون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ المؤمنون: ١١٠.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجُلًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ سورة ص ٦٢-٦٣.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿سِخْرِيًّا﴾ :

فقرأ نافع وحمزة والكسائي وأبوجعفر وخلف: ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين في الموضعين، ووافقهم الأعمش.

وقرأ باقي العشرة: ﴿سِخْرِيًّا﴾ بكسر السين فيهما، ووافقهم اليزيدي وابن محيصن والحسن (١).

معنى القراءات :

قيل : القراءتان بمعنى واحد، ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين وبكسرهما واحد وهذا منقول عن الخليل وسيبويه (٢).

وقيل : بينهما فرق :

القراءة بضم السين من السخرة والتسخير وهو الخدمة.

القراءة بكسر السين من السخرية والاستهزاء (٣).

حاصل القراءات :

لا تمنع بين المعنيين إذ أن الكفار منهم من اتخذ المؤمنين سخرة للخدمة؛ لأنه كان يملكه عبداً، أو يقهره محكوماً تحت سلطانه ونحو ذلك، ومنهم من اتخذ المؤمنين سخرية واستهزاء كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ. وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ. وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ. وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءَ لَضَالُونَ. وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ المطففين: ٢٩-٣٣.

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ): « ﴿فَاتَّخَذُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ مكسورة الأولى لأنه من قولهم: يسخر منه، وبعضهم يضم أوله؛ لأنه يجعله من السخرة والتسخر بهم» اهـ (٤).

(١) المبسوط ص ٢٦٣ النشر ٣٢٩/٢ الاتحاف ص ٣٢١.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢٤/٤.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢٤٣/٢ تفسير غريب القرآن ص ٣٠٠.

(٤) مجاز القرآن ٦٢/٢.

ويلاحظ ما يلي :

(١) قال أبوحيان (ت٧٥٤هـ): «قال أبو عبيدة والكسائي والفراء ضم السين من السخرة والاستخدام، والكسر من السخر وهو الاستهزاء...» اهـ (١).

قلت : في نسبة التفريق إلى الكسائي (ت١٨٩هـ) نظر؛ إذ قال الفراء (ت٢٠٧هـ): «قال الكسائي: سمعت العرب تقول: بحر لحي ولحي ودري ودري منسوب إلى الدر والكرسي والكرسي وهو كثير.

قال الفراء: وهو في مذهبه (يعني: الكسائي) بمنزلة قولهم: العصي والعصي، والأسوة والاسوة» اهـ (٢).

قلت : ومنه تعلم أن الكسائي في مذهبه أن قراءة الضم والكسر لغتان بمعنى واحد، وليس كما ذكر أبوحيان رحمه الله ويؤكد ما ذكرته من أن الكسائي لا يفرق بين القراءة بالضم والكسر من جهة المعنى في قوله تعالى: ﴿سَخِرَ مِنْكُمْ﴾ ما يلي :

(٢) قال أبوجعفر النحاس (ت٣٣٨هـ): «لا يعرف هذا التفريق الخليل وسيبويه رحمهما الله ولا الكسائي ولا الفراء.

قال الكسائي : هما لغتان بمعنى واحد، كما يقال: عُصِي وعِصِي. وقال محمد بن يزيد : إنما يؤخذ التفريق بين المعاني عن العرب فأما التأويل فلا يكون» اهـ (٣).

قلت : وهذا الكلام فيه أمور :

الأول : أنه يوافق ما تقدم من أن الكسائي لم يفرق بين القراءتين خلافاً لأبي حيان رحمه الله تعالى في ذكره الكسائي ممن فرق. الثاني : قوله: «ولا الفراء» فيه نظر ؛ فإني رأيت الفراء حكى في كتابه القول بالتفريق، ثم نقل قول الكسائي، ولم يعقب عليه، نعم لما حكى القول بالتفريق قال: «قال الذين كسروا...» قلت: لكنه غير صريح في أنه لا يرى التفريق تأمل.

الثالث : قول محمد بن يزيد: «إنما يؤخذ التفريق بين المعاني عن العرب...» مراده - والله أعلم - أن التفريق بين القراءتين لا يشترط فيه

(١) البحر المحيط ٤٢٣/٦.

(٢) معاني القرآن للفراء ٦٢/٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١٢٤/٣.

أن يؤخذ عن أهل اللغة إلا إذا كان من جهة بيان معنى اللفظ المجرد في اللغة، أما إذا كان من جهة بيان المراد من اللفظ في السياق القرآني - وهو ما عبر عنه بالتأويل - فإن المرجع فيه أهل التفسير. قلت : وهنا نقل التفريق في معنى القراءتين عن بعض أهل اللغة وأهل التفسير:

(أ) قال الحسن وقتادة وأبو عمرو بن العلاء - وهذا معنى ما قالوا -: «السُّخْرِي بالضم ما كان من جهة السخرة، والسُّخْرِي بالكسر ما كان من الهزؤ» (١).

(ب) قال الزجاج (ت٣١١هـ): «قوله: ﴿سُخْرِي﴾ يقرأ بالضم والكسر، وكلاهما جيد، إلا أنهم قالوا: إن بعض أهل اللغة قال: ما كان من الاستهزاء فهو بالكسر، وما كان من جهة التسخير فهو بالضم...» اهـ (٢).

(ج) قال عبد الرحمن بن زيد في قوله: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا﴾ قال: «هما مختلفتان ﴿سُخْرِيًّا﴾ و ﴿سُخْرِيًّا﴾ يقول الله: ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]. قال : هذا سُخْرِي يسخرونهم .

والآخرون الذين يستهزئون بهم هم: ﴿سُخْرِيًّا﴾. فتلک سُخْرِي يسخرونهم عندك، فسخرک رفعک فوقه، والآخرون استهزءوا بأهل الاسلام هي سُخْرِي يسخرون منهم؛ فهما مختلفتان. وقرأ قول الله عز وجل: ﴿كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]. وقال : يسخرون منهم كما سخر قوم نوح بنوح: ﴿اتَّخَذُوهُمْ سُخْرِيًّا﴾ اتخذوهم هزؤا لم يزالوا يستهزئون بهم» اهـ (٣).

(٣) قال ابن عطية (ت٤١٥هـ): «وقرأ أصحاب عبد الله وابن أبي إسحاق والأعرج بضم السين كل ما في القرآن، وقرأ الحسن وأبو عمرو بالكسر إلا التي في الزخرف فإنهما ضما السين كما فعل الناس» اهـ (٤). وحكى ابن عطية اجماع القراء على ضم السين في قوله تعالى: ﴿لِيَتَّخِذَ

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/٤٨٨.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/٢٤.

(٣) تفسير الطبري (دارالفكر) ١٨/٦١.

(٤) انظر البحر المحيط ٦/٤٢٣.

بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا (الزخرف: ٣٢) (١).

قلت : إن كان مراد ابن عطية بحكاية إجماع القراء يعني القراء العشرة فهو مسلم، أما إن كان مراده غير ذلك فقد تعقبه أبوحيان الأندلسي (ت ٧٥٤هـ) بقوله: «وليس ما ذكره من إجماع القراء على ضم السين في الزخرف صحيحاً، لأن ابن محيصن وابن مسلم كسرا في الزخرف ذكر ذلك أبو القاسم ابن جبارة الهذلي في كتاب: «الكامل» (٢).» اهـ (٣).

قلت : الأمر كما قال أبوحيان رحمه الله وقد نص على ذلك ابن مهران (٤) (ت ٣٨١هـ) رحمه الله.

(١) انظر البحر المحيط ٤٢٣/٦.

(٢) كتاب الكامل للهذلي لوحة ٢٢٢.

(٣) البحر المحيط ٤٢٣/٦.

(٤) المبسوط ص ٢٦٣.

الموضع السابع والستون :
 قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، لِكُلِّ أَمْرٍ ءَمْرَيْنِ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ النور: ١١.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿كِبْرَهُ﴾ :
 فقرأ يعقوب: ﴿كُبره﴾ بضم الكاف، وهي قراءة أبي رجاء وحميد بن قيس وسفيان الثوري ويزيد بن قطيب وعمرة بنت عبد الرحمن.
 وقرأ باقي العشرة بكسرهما: ﴿كَبْرَهُ﴾ (١).

معنى القراءات :

القراءة بكسر الكاف: ﴿كَبْرَهُ﴾ فيها قولان :
 الأول : البداءة بالإفك، والمراد الذي تولى البداءة بالإفك.
 الثاني : الإثم، والمراد الذي تولى الإثم في حديث الإفك.
 القراءة بضم الكاف: ﴿كُبره﴾ المعنى: عظمه، والمراد: الذي تولى معظم الإفك (٢).

حاصل القراءات :

أفادت الآية بالقراءتين الوعيد الشديد لمن تولى الإثم وبدأ باشاعته وتولى معظمه ، وكل هذه المعاني لاتمانع بينها.

(١) المبسوط ص ٢٦٦ النشر ٣٣١/٢ الاتحاد ص ٣٢٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣٥/٤ المحتسب ١٠٤/٢ النشر ٣٣١/٢.

الموضع الثامن والستون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ النور: ١٥.

هكذا قرأ عامة القراء العشرة: ﴿تَلَقَّوْنَهُ﴾ بفتح الثلاث وشد القاف.

وقرأ ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما وابن يعمر وعثمان الثقفي: «إذ تلقونه» بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف.

وقرأ ابن السميعة: «إذ تلقونه» بضم التاء والقاف وسكون اللام، وهاتان القراءتان آحاديثان.

وقرأت أم سفيان بن عيينة: «إذ تتلقونه» بتاءين مفتوحتين وبفاء بعد القاف.

وعنها أيضا: «إذ تتلقونه» بالتاء المثلثة بعد التاء، والفاء بعد القاف، وكانت على قراءة ابن مسعود (١).

وقرأ ابن أسلم وأبوجعفر: «تألقونه» بفتح التاء وهمزة ساكنة بعدها لام مكسورة.

وقرأ يعقوب في رواية المازني: «يتلقونه» بتاء مكسورة بعدها ياء ولام مفتوحة (٢)، وهذه القراءة شاذة.

روي عن سفيان بن عيينة أنه قال: «سمعت أُمي تقرأ: «إذ تتلقونه» (بتاءين وفاء بعد القاف) وكانت على قراءة عبد الله».

وروي عنه أيضا: «سمعت أُمي تقرأ: «إذ تتلقونه» (بتاء ثم ثاء وفاء بعد القاف) وكان أبوها يقرأ بقراءة عبد الله» (٣).

معنى القراءات :

قراءة جمهور القراء: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ أي: يأخذه بعضكم من بعض، يقال: تلقى القول وتلقنه، والأصل: «تتلقونه»، وهي قراءة أبي بن كعب وابن مسعود.

قراءة عائشة وابن عباس ومن معهم: «تلقونه» فيها قولان :

الأول: أنها من الولق الذي هو الإسراع بالشئ بعد الشئ كعدد في أثر عدد، وكلام في أثر كلام، ويقال: ولق في سيره إذا أسرع .

الثاني : أنها من قول العرب: ولق الرجل يلقي ولقا إذا كذب

(١) المحتسب ١٠٤/٢.

(٢) البحر المحيط ٤٣٨/٦.

(٣) المحتسب ١٠٥/٢.

واستمر على كذبه (١).

وجمع النحاس (ت ٣٣٨هـ) بين القولين فقال في بيان معنى هذه القراءة: «يقال: ولق يلق إذا أسرع في الكذب وغيره» اهـ (٢).

قراءة ابن السميغ: «إذ تلقونه» مضارع ألقى، والمعنى: تلقونه من أفواهكم.

قراءة أم سفيان بن عيينة: «تتقفونه» أي: تجمعونه وتحطّبونه من عند أنفسكم، ولا أصل له عند الله تعالى.

وقراءة أم سفيان الأخرى: «تتقفونه» من ثقفت الشيء إذا طلبته وأدركته، والمعنى: تتصيدون الكلام في الإفك منه هنا ومن هنا (٣).
حاصل القراءات:

جميع هذه المعاني يصدق بعضها بعضاً، ولا تمنع بينها، فالقراءات وسعت معنى الآية، وجعلت لها أكثر من معنى، وجميعها يصدق على أصحاب الإفك.

وتعبير الآية بهذه المعاني مع تعدد القراءات بأوجز لفظ وأخصر عبارة فيه إعجاز بالإيجاز فسبحان الله العظيم.

(١) تفسير القرطبي ٢٠٤/١٢ البحر المحيط ٤٣٨/٦.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥١٠/٤.

(٣) المحتسب ١٠٥/٢.

الموضع التاسع والستون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ الفرقان: ٧-٨.

تنوعت القراءات في قوله تعالى: ﴿جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ :
فقرأ حمزة والكسائي وخلف بنون الجمع: ﴿نَأْكُلُ مِنْهَا﴾ ووافقهم الأعمش .

وقرأ باقي العشرة بالياء: ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ ووافقهم اليزيدي وابن محيصن والحسن (١).

معنى القراءات :

القراءة بنون الجمع على معنى أنهم يقترحون جنة يأكلون هم منها .
القراءة بالياء على معنى أنهم يقترحون جنة يأكل منها النبي ﷺ (٢).
حاصل القراءتين :

أفادت الآية بالقراءتين أنهم اقترحوا جنة يأكلون هم منها والرسول ﷺ .

قال النحاس (ت ٣٣٨هـ) بعد إشارته إلى القراءتين: «والقراءتان حسنتان تؤديان عن معنيين وإن كانت القراءة بالياء أبين لأنه قد تقدم ذكر النبي ﷺ وحده فإن يعود الضمير إليه أبين» اهـ (٣).

قلت : وهذا باعتبار القرب في التقدم، وإلا فقد تقدم لهم أيضا ذكر في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ﴾ الفرقان: ٧.

(١) المبسوط ص ٢٧٠ النشر ٣٣٣/٢ الإتحاف ص ٣٢٧.

(٢) الكشف ١٤٤/٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١٥٣-١٥٢/٣.

الموضع السبعون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ. قَالُوا: سَبَّحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا. فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ الفرقان: ١٧-١٩.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ :

فقرأ حفص بالتاء: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ على الخطاب، ووافقه الأعمش.
وقرأ باقي العشرة بالياء: ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ على الغيب ووافقهم الحسن واليزيدي وابن محيصن (١).

معنى القراءتين :

القراءة بالتاء على الخطاب لمتخذي الشركاء.

القراءة بالياء على الغيب والمعنى فما يستطيع الشركاء (٢) .

حاصل القراءتين :

أفادت الآية بالقراءتين أن متخذي الشركاء، والشركاء لا يستطيعون صرفاً للعذاب ولا نصراً من الله عز وجل، ولا نصراً من عند أنفسهم لبعضهم بعضاً.

ويلاحظ مايلي :

المعنى على القراءة بالياء يحتمل وجهاً غير ما تقدم بأن يكون الضمير للكفار كالقراءة بالتاء (٣)، فيكون أسلوب التفات من الخطاب إلى الغيبة لبيان حقايرتهم وخستهم.

(١) المبسوط ص ٢٧١ النشر ٢/ ٣٣٤ الإتحاف ص ٣٢٨.

(٢) الكشف ٢/ ١٤٥.

(٣) زاد المسير ٦/ ٧٩.

الموضع الحادي والسبعون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ. وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ الشعراء: ٥٣-٥٦.
تنوعت القراءات في قوله: ﴿حاذرون﴾ :

فقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان عنه، ورواية هشام من طريق الدجواني، وعاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿حاذرون﴾ بألف بعد الحاء، ووافقهم الأعمش.

وقرأ باقي العشرة بحذف الألف: ﴿حذرون﴾، ووافقهم ابن محيصن والحسن واليزيدي (١).

وقرأ عبدالله بن السائب وابن أبي عامر: «حاذرون» بالبدال غير معجمة (٢)، وهي قراءة آحادية.

معنى القراءات :

قيل : هما بمعنى واحد (٣)، وقيل : بينهما فرق القراءة بـ ﴿حاذرون﴾ بألف بعد الحاء، معناها: مستعدون بالسلاح وغيره من آلة الحرب.

القراءة بـ ﴿حذرون﴾ معناها: خائفون وحذرون (٤).

القراءة بـ «حاذرون» بالبدال غير معجمة معناها: أقوياء غلاظ الأجسام (٥).

حاصل القراءات :

لا تمانع بين هذه المعاني جميعها؛ فهم خائفون وحذرون من تفشي هذا الأمر في الناس وهم مستعدون بالسلاح وغيره من آلة الحرب وبقوة أجسامهم، مستعدون للقيام بحربهم ومنعهم من الاستمرار فيما هم عليه.

(١) المبسوط ص ٢٧٤-٢٧٥ النشر ٢/٣٣٥ الاتحاد ص ٣٣٢.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/٨١ إعراب القراءات السبع وعللها ٢/١٣٤ المحتسب ٢/١٢٨.

(٣) مجاز القرآن ٢/٨٦ الكشف ٢/١٥١.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/٩٢ معاني القرآن للنحاس ٥/٨٠.

(٥) إعراب القراءات السبع وعللها ٢/١٣٤ المحتسب ٢/١٢٨.

الموضع الثاني والسبعون :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الْوَاعِظِينَ. إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ الشعراء: ١٣٦-١٣٧.
تنوعت القراءات في قوله: ﴿خُلُقٌ﴾ :

فقرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب والكسائي بفتح الخاء وسكون اللام: ﴿خُلُقٌ﴾ ووافقهم الحسن واليزيدي وابن محيصن.
وقرأ الباقر بضم الخاء واللام: ﴿خُلُقٌ﴾ ووافقهم الأعمش (١).
وقرأ ابن عباس وعكرمة وعاصم الجحدري برفع الخاء وتسكين اللام: ﴿خُلُقٌ﴾ (٢).

معنى القراءات :

القراءة بفتح الخاء وتسكين اللام: ﴿خُلُقٌ﴾ فيها وجهان :
الأول : بمعنى اختلاقهم وكذبهم، كما قال تعالى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ سورة قصص: ٧.
الثاني : بمعنى خلقنا كما خلق من كان قبلنا، نحيا كما حيوا، ونموت كما ماتوا، ولا نبعث كما لم يبعثوا (٣).
القراءة بضم الخاء واللام: ﴿خُلُقٌ﴾ أي عادة، أي: هكذا كان الناس يعيشون ما عاشوا ثم يموتون ولا بعث لهم ولا حساب (٤).
القراءة بضم الخاء وسكون اللام: «خلق» بمعنى: عادة فهي بمعنى القراءة بضم الخاء واللام (٥).

حاصل القراءات :

لا مانع من إرادة هذه المعاني، فالكفار أجابوا نبيهم هوداً عليه السلام لما دعاهم بأن ما جاء به أمر مختلق من قديم، كما قال الكفار لنبينا عليه السلام: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ الفرقان: ٥، وانكروا البعث وقالوا: كان الناس يعيشون ما عاشوا ثم يموتون ولا بعث لهم ولا حساب.

(١) المبسوط ص ٢٧٥ النشر ٢/٣٣٥-٣٣٦ الإتحاف ص ٣٣٣.

(٢) زاد المسير ١٣٧/٦.

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٩٧/٤ الكشف ١٥١/٢.

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٩٧/٤ الكشف ١٥١/٢.

(٥) زاد المسير ١٣٧/٦.

الموضع الثالث والسبعون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾. بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿النمل: ٦٥-٦٦.

تنوعت إقرءات في قوله: ﴿بَلِ ادَّارَكَ﴾ :

فقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بوصل الهمزة وتشديد الدال وألف بعدها ووافقهم الأعمش: ﴿بَلِ ادَّارَكَ﴾.

وقرأ باقي العشرة بهمزة واحدة مقطوعة وسكون الدال مخففة بلا ألف: ﴿أدرك﴾، ووافقهم الحسن واليزيدي (١).

وقرأ ابن محيصن: «أ أدرك» بهمزة ثم ألف بعدها (٢).

معنى القراءات :

القراءة بقطع الهمزة وإسكان الدال من غير ألف بعد الدال معناها: بلغ ولحق، كما تقول: أدرك علمي هذا، أي: بلغه و ﴿بَلِ﴾ بمعنى: «هل»، فهو إنكار أن يبلغ علمهم أمر الآخرة وفيه معنى التقرير والتوبيخ لهم وطلبهم علم ما لا يبلغونه أبداً، فالمعنى: هل أدرك علمهم في الآخرة، ومتى تكون، أي: أنهم لم يدركوا علم الآخرة ووقت حدوثها، ودل على ذلك قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ أي: من علمها.

و ﴿فِي﴾ بمعنى: الباء، والتقدير: هل أدرك علمهم بالآخرة أي: هل بلغ علمهم غايته فلم يدركوا علم الآخرة، ولم ينظروا في حقيقتها، والعمى عن الشيء أعظم من الشك فيه، وهو في حرف أبي بن كعب: «أم تدارك» على معنى النفي (٣).

القراءة بوصل الألف وتشديد الدال وألف بعد الدال، أي: تدارك تتابع وتلاحق، وفيها قولان:

أحدهما : بل تكامل علمهم يوم القيامة؛ لأنهم مبعوثون قال ابن عباس: «ما جهلوه في الدنيا علموه في الآخرة».

الثاني : بل تدارك ظنهم وحسدكم في الحكم على الآخرة فتارة

(١) المبسوط ص ٢٨٠ النشر ٣٣٩/٢ الإتحاف ص ٣٣٩.

(٢) الإتحاف ص ٣٣٩ وهناك قراءات أخرى فوق القراءات الأربع عشرة ذكرها ابن جني في «المحتسب» ١٤٢/٢ تعود في المعنى إلى ما ذكرته من القراءات المتوترة.

(٣) الكشف ١٦٤/٢-١٦٥.

يقولون: إنها كائنة، وتارة يقولون: لا تكون (١).

حاصل القراءات :

هذه المعاني لا تمنع بينها؛ فهم لا يدرك علمهم الآخرة متى ستكون؟. وهم تتابع وتتلاحق أقوالهم في الآخرة فتارة يقولون: لا تكون، وتارة يقولون: أنها كائنة، ثم يقرر الله عز وجل أنهم إنما يعلمون في الآخرة ما جهلوه في الدنيا.

(١) زاد المسير ١٨٨/٦.

الموضع الرابع والسبعون :
قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ النمل: ٨٠.

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى، وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ الروم: ٥٢.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿لَا تَسْمَعُ الصُّمَّ﴾ في الموضعين :
فقرأ ابن كثير فيهما بالياء وفتح الميم، و﴿الصُّمَّ﴾ بالرفع.
وقرأ الباقر فيهما بالتاء وضمها وكسر الميم، ونصب: ﴿الصُّمَّ﴾ (١).
معنى القراءات :

قراءة ابن كثير بالياء المفتوحة والميم المفتوحة ورفع: ﴿الصُّمَّ﴾
معناها: إن الصم لا يسمعون الدعاء لأنهم صم، والمراد بالدعاء النداء،
وهذا تمثيل لأعراض الكفار عن سماع الحق.

قال مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ): «فالمعنى أنهم لا ينقادون إلى الحق كما
لا يسمع الأصم المعرض المدبر عن سماع ما يقال له من كلام من يكلمه فلم
يكفه أنه معرض عما يقال له حتى وصفه بالصمم؛ فهذا غاية امتناع سماع
ما يقال له، فيشبههم في إعراضهم عن قبول ما يقال لهم من الاسلام والكتاب
بدعاء الأصم المعرض المدبر عن الشيء» اهـ (٢).

قراءة الجمهور بالتاء وضمها وكسر الميم ونصب: ﴿الصُّمَّ﴾ معناها: إن
الرسول ﷺ لا يسمع الصم الدعاء.

قال مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ): «إنك يا محمد لا تقدر أن تسمع دعاءك
الصم المعرضين عنك المدبرين، شبهوا في إعراضهم عما جاءهم به محمد
وترك قبولهم له بالأصم المعرض عن الشيء المدبر» اهـ (٣).

حاصل القراءات :

لا تعارض بين هذه المعاني ؛ فالكفار يعرضون عن الوحي الذي جاء به
الرسول ﷺ ولا يسمعون له، والرسول ﷺ لا يملك أن يسمع من يعرض عنه.

(١) المبسوط ص ٢٨١ النشر ٣٣٩/٢ الاتحاف ص ٣٣٩.

(٢) الكشف ١٦٥/٢.

(٣) ما سبق .

الموضع الخامس والسبعون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ النمل: ٨٢.
هكذا قرأ عامة القراء العشرة: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾.

وقرأ ابن عباس وابن جبير ومجاهد والجدري وأبي زرعة: «تكلّمهم» بفتح التاء وسكون الكاف وكسر اللام دون تشديد وهي قراءة آحادية.

وقرأ أبي بن كعب: «تنبئهم أن الناس كانوا».

وقرأ ابن مسعود: «تكلّمهم بأن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون» (١) وهاتان قراءتان شاذتان.

معنى القراءات :

قراءة الجمهور: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ من الكلام ويؤكد قراءة أبي بن كعب: «تنبئهم»، وقراءة ابن مسعود: «تكلّمهم بأن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون» وهي على التفسير والله أعلم.

قراءة ابن عباس ومن معه: «تكلّمهم» من الكلم بمعنى: الجرح، أي: تجرح الناس وتسمهم (٢).

حاصل القراءات :

أفادت الآية بالقراءات الواردة فيها أن هذه الدابة يخرجها الله عزوجل، وأنها تخاطب الناس وتكلّمهم، وتسمهم وتجرحهم.

قال أبو الجوزاء: «سألت ابن عباس عن هذه الآية: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أو «تكلّمهم»؟. فقال: هي والله تكلّمهم وتكلّمهم تكلم المؤمن وتكلم الفاجر أي تجرحه» اهـ (٣).

(١) المحتسب ١٤٤/٢-١٤٥ تفسير القرطبي ٢٣٨/١٣.

(٢) المحتسب ١٤٤/٢-١٤٥ تفسير القرطبي ٢٣٨/١٣.

(٣) تفسير القرطبي ٢٣٨/١٣.

الموضع السادس والسبعون :
قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى، أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا، وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ القصص: ٤٨.

تنوعت القراءات في قوله تعالى: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ﴾:
فقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بكسر السين، من دون ألف
واسكان الحاء: ﴿سِحْرَانِ﴾.

وقرأ باقي العشرة بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء: ﴿سَاحِرَانِ﴾ (١).
معنى القراءتين :

القراءة بكسر السين واسكان الحاء دون ألف قبلها: ﴿سِحْرَانِ﴾ في
المراد منها ثلاثة أقوال:

أحدها : السحران : التوراة والفرقان قاله ابن عباس والسدي.
والثاني : السحران : الانجيل والقرآن، قاله قتادة.
والثالث : السحران : التوراة والانجيل، قاله أبو مجلز وإسماعيل
بن أبي خالد.

والمعنى كل سحر منهما يقوي الآخر، فنسب التظاهر إلى السحرين
توسعا في الكلام (٢).

القراءة بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء: ﴿سَاحِرَانِ﴾ في المراد
منها ثلاثة أقوال:

الأول : موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، قاله ابن عباس
والحسن وابن جبير، وعلى هذا يكون هذا من قول مشركي العرب.
الثاني : موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، قاله مجاهد وعلى
هذا يكون القول من قول اليهود لهما في ابتداء الرسالة.
الثالث : محمد وعيسى، قاله قتادة ، فعلى هذا يكون من قول اليهود
الذين لم يؤمنوا بنبينا (٣).

حاصل القراءات :

بينت الآية بالقراءتين أن الكفار إذا دعاهم النبي ﷺ سواء كان نبينا
أم موسى أم عيسى عليهم صلوات الله وسلامه قالوا: هذان كتابان
وساحران تعاوننا.

(١) المبسوط ص ٢٨٧ النشر ٢/٣٤١-٣٤٢ الاتحاف ص ٣٤٣.

(٢) زاد المسير ٦/٢٢٨.

(٣) ماسبق ٦/٢٢٧.

الموضع السابع والسبعون :
قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا، وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا
رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾ سبأ: ٣٣.

هكذا قرأ عامة القراء العشرة: ﴿بل مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بسكون الكاف
وضم الراء.

وقرأ سعيد بن جبير وأبورزين: ﴿بل مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.

وقرأ قتادة: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ (١).

معنى القراءات :

معنى قراءة الجمهور: ﴿مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: مكرهم في الليل
والنهار (٢)، أي: مسارتكم إيانا ودعاؤكم لنا إلى الكفر حملنا على هذا .
والمكر في كلام العرب الاحتيال والخديعة (٣).

وقراءة ابن جبير وأبي رزين: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ من الكرور
والمعنى: تكرار الليل والنهار صدنا.

وليس في هذه القراءة تراجع عن قولهم: ﴿لَوْ لَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ سبأ:
٣١ إذ تقدير الآية بحسب السياق: كرور الليل والنهار علينا أصارانا إلى
الكفر، إذ تأمروننا أن نكفر بالله، أي: كرور الليل والنهار علينا على
إغوائكم إيانا هو الذي أصارنا إلى النار، أي: تتابع الأيام والليالي على
هذا الكلام جعله إلغاً وعرفاً راسخاً.

وقراءة قتادة: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ على نحو القراءة السابقة أي:
مكر كائن في الليل والنهار فالظرف صفة للحدث (٤).

حاصل القراءات :

بينت الآية بقراءة الجمهور أن خديعة وحيلة الكفار هي التي حملت
المستضعفين على الكفر، وبينت القراءات الأخرى سبيل ذلك وهو تكرار
المكر في الليل والنهار والله أعلم.

(١) المحتسب ١٩٣/٢.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢٥٤/٤.

(٣) تفسير القرطبي ٣٠٢/١٤.

(٤) المحتسب ١٩٤/٢.

الموضع التامس والسبعون :
قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ سورة يس: ٣٨.

هكذا قرأ عامة القراء العشرة: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾.
وقرأ ابن مسعود وابن عباس وعكرمة وعطاء بن أبي رباح وأبو جعفر محمد بن علي وأبو عبد الله جعفر بن محمد وعلي بن حسين: «والشمس تجري لا مستقر لها» (١) وهي قراءة شاذة.

معنى القراءات :

قراءة الجمهور: ﴿الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أي: الشمس جارية حتى إذا غربت وانتهت إلى الموضع الذي لا تتجاوزه استقرت تحت العرش إلى أن تطلع (٢)، كما دلت على ذلك السنة الصحيحة.

قراءة ابن مسعود وابن عباس ومن معهما: «الشمس تجري لا مستقر لها» أي: أنها تجري في الليل والنهار لا وقوف لها ولا قرار إلى أن يكورها الله يوم القيامة (٣).

حاصل القراءات :

أثبتت الآية بقراءة الجمهور جريان الشمس، وأنها تجري حتى تصل إلى مستقرها.

وأثبتت القراءة الأخرى أن الشمس لا مستقر لها.

ولا تناقض بين القراءتين إذ المراد بالمستقر المنفي في قراءة ابن عباس وابن مسعود إنما هو بحسب الرؤية البشرية، فالشمس لا ترى إلا جارية في الليل والنهار.
ويلاحظ مايلي :

(١) عن أبي ذر قال: «سألت النبي ﷺ عن قوله: ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾؟ قال: مستقرها تحت العرش» (٤).

(١) المحتسب ٢/٢١٢.

(٢) تفسير القرطبي ١٥/٢٧، ٢٨.

(٣) المحتسب ٢/٢١٢ تفسير القرطبي ١٥/٢٨.

(٤) حديث صحيح .

أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ حديث رقم (٤٨٠٣) ورواه مطولا في الموضع نفسه حديث رقم (٤٨٠٢) وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان حديث

(٢) قال الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) في شرحه لحديث أبي زر السابق: «قوله: «تحت العرش» قيل: هو حين محاذاتها له، ولا يخالف هذه قوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦] فإنَّ المراد بها نهاية مدرك البصر إليها حال الغروب، وسجودها تحت العرش إنما هو بعد الغروب. وفي الحديث رد على من زعم أن المراد بمستقرها غاية ما تنتهي إليه من الارتفاع وذلك أطول يوم في السنة، وقيل: إلى منتهى أمرها عند انتهاء الدنيا» اهـ (١).

(٣) قال الخطابي (ت٣٨٨هـ): «وليس في سجودها لربها تحت العرش ما يعوقها عن الدأب في سيرها والتصرف لما سخرت له سبحانه الذي أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا وتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين» اهـ (٢).

قلت : لم يرتض هذا الحافظ ابن حجر وتعقبه فقال: «قلت: ظاهر الحديث أن المراد بالاستقرار وقوعه في كل يوم وليلة عند سجودها، ومقابل الاستقرار المسير الدائم المعبر عنه بالجري والله أعلم» اهـ (٣).

= رقم (١٥٩). وانظر جامع الأصول ٢/٣٣٢-٣٣٣.

(١) فتح الباري ٨/٥٤٢.

(٢) أعلام الحديث ٣/١٨٩٤.

(٣) فتح الباري ٨/٥٤٢.

قلت : ولامانع من إرادة المعاني جميعا وتفويض الكيفية إلى عالمها سبحانه وتعالى.

الموضع التاسع والسبعون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ سورة يس: ٥٢.

هكذا قرأ القراء العشرة: ﴿مَنْ بَعَثَنَا﴾ بفتح الميم والعين.

وقرأ علي بن أبي طالب بكسر الميم والثاء وسكون العين: «من بعثنا» (١) وهي قراءة أبي رزين والضحاك وعاصم الجحدري (٢).

معنى القراءات :

قراءة الجمهور: ﴿مَنْ بَعَثَنَا﴾ استفهام عن موقظهم من هو (٣).

قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «من بعثنا» أي: ويلنا كائن من بعثنا (٤).

حاصل القراءات :

بينت الآية بالقراءتين أن الكفار يتفجعون من بعثهم بعد الموت لما يتوقعونه من العذاب، وأنهم يتساءلون عن موقظهم من مرقدهم إلى ذلك البعث الذي يشاهدون فيه صدق ما كذبوه ولذلك هم يتفجعون: «يا ويلنا من بعثنا».

ويترتب على القراءتين أن ﴿مَنْ﴾ في الأولى اسم استفهام و﴿بَعَثَنَا﴾ فعل ماضي، وفي الثانية «من» حرف جر و«بعثنا» مصدر مجرور بحرف الجر.

(١) المحتسب ٢/٢١٣.

(٢) زاد المسير ٧/٢٥.

(٣) روح المعاني ٢٣/٣٢.

(٤) المحتسب ٢/٢١٣.

الموضع الثمانون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾
الصفات: ٦.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ :
فقرأ شعبة عن عاصم بتنوين: ﴿زِينَةٍ﴾ ونصب ﴿الْكَوَاكِبِ﴾.
وقرأ حفص عن عاصم وقرأ حمزة بتنوين ﴿زِينَةٍ﴾ وجر ﴿الْكَوَاكِبِ﴾
ووافقهما الحسن والأعمش.
وقرأ الباقر بحذف التنوين: ﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ ووافقهم ابن محيصن
واليزيدي (١).

معنى القراءات :

القراءة بحذف التنوين وإضافة: ﴿زِينَةٍ﴾ إلى ﴿الْكَوَاكِبِ﴾ معناها: زينا
السماء بضؤ الكواكب وحسنها.
القراءة بتنوين ﴿زِينَةٍ﴾ وخفض ﴿الْكَوَاكِبِ﴾ أي: الكواكب بدلا من
الزينة؛ لأنها هي، كما تقول: مررت بأبي عبد الله: محمد، فالمعنى: إنا زينا
السماء الدنيا بالكواكب.
القراءة بتنوين ﴿زِينَةٍ﴾ ونصب ﴿الْكَوَاكِبِ﴾ معناها: زينا السماء الدنيا
بأن زينا الكواكب فيها حين ألقيناها في منازلها وجعلناها ذات نور.
ويجوز أن يكون ﴿الْكَوَاكِبِ﴾ في النصب بدلا من قوله ﴿بِزِينَةٍ﴾ لأن قوله:
﴿بِزِينَةٍ﴾ في موضع نصب (٢).

حاصل القراءات :

قال عاصم بن أبي النجود (توفي في حدود ١٢٧هـ): «من قرأها: ﴿بِزِينَةِ
الْكَوَاكِبِ﴾ مضافا ولم ينون فلم يجعلها زينة للسماء وإنما جعل الزينة
للكواكب» اهـ (٣).

قلت : وأفاب رحمه الله: أن من لم يقرأها: ﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ على الإضافة
يجعل الكواكب زينة للسماء.
ويتحصل أن الكواكب بنفسها زينة، وأنها وزينتها زينة للسماء الدنيا
والله أعلم.

(١) المبسوط ص ٣١٥ النشر ٣٥٦/٢ الاتحاف ص ٣٦٧.

(٢) زاد المسير ٤٦/٧.

(٣) الدر المنثور ٧٩/٧ وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

الموضع الحادي والثمانون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾
الصفات: ١١-١٣.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿عَجِبْتَ﴾ :

فقرأ حمزة والكسائي وخلف بتاء المتكلم المضمومة: ﴿عَجِبْتُ﴾ ووافقهم الأعمش.

وقرأ باقي العشرة بتاء الخطاب المفتوحة: ﴿عَجِبْتَ﴾ ووافقهم اليزيدي والحسن وابن محيصن (١).

معنى القراءات :

القراءة بضم التاء يتعجب الله سبحانه وتعالى من كفر هؤلاء، فيكون التعجب هنا مسنداً إليه تعالى على ما يليق به منزهاً عن التمثيل والتكيف والتعطيل (٢).

ولما كان التعجب لا يكون إلا لما خفي سببه؛ أسند إلى الله تعالى على ضرب من غاية المبالغة، لأن المعنى: الله تعالى يعلم كل شيء، ولا يجد لكم سبباً واحداً في علمه للكفر وإنكار البعث ولذلك يتعجب من فعلكم كما أشار إلى ذلك في الآيات الأخرى كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سورة يونس: ١٨ وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ، قُلْ: سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يَصْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ الرعد: ٣٣. وقيل : المعنى قل: يا محمد بل عجبت أنا (٣).

وقيل : المعنى: إن هؤلاء من رأى حالهم يقول: عجبت (٤).

والمعنى في القراءة بفتح التاء: بل عجبت يا محمد من كفرهم وتكذيبهم مع اعترافهم بالخالق سبحانه (٥).

(١) إرشاد المبتدي ص ٢١ هـ النشر ٣٥٦/٢ الاتحاف ص ٣٦٨.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣٠٠/٤ معاني القرآن للنحاس ١٦/٦ حجة القراءات ص ٦٠٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ١٦/٦ تفسير القرطبي ٧٠/١٥.

(٤) الكشف ٢٢٣/٢ القلائد ص ١٢٤.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٢٩٩/٤ الكشف ٢٢٣/٢ حجة القراءات ص ٦٠٦.

حاصل القراءات :

أن الله عزوجل يعجب ورسوله يعجب من كفر المشركين وعنادهم، وعدم إيمانهم مع تظاهر الآيات في الدلالة على الحق (١).
وتلاحظ الأمور التالية :

(١) أن هاتين القراءتين مع اختلاف لفظهما ومعناهما لم يتناقضا ولم يتضادا فكل قراءة تصدق الأخرى وتضيف إليها معنى.

(٢) أن هذه الآية الكريمة على قراءة حمزة والكسائي فيها إثبات صفة العجب لله تعالى، فهي إذا من آيات الصفات على هذه القراءة (٢).

قال الزجاج (ت٣١١هـ): «ومن قرأ ﴿عَجِبْتُ﴾ فهو إخبار عن الله.

وقد أنكر قوم هذه القراءة وقالوا: الله عزوجل لا يعجب.

وانكارهم هذا غلط ؛ لأن القراءة والرواية كثيرة، والعجب من الله عزوجل خلافه من الآدميين، كما قال: ﴿وَيُمَكِّرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] و﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

والمكر من الله والخداع خلافه من الآدميين.

وأصل العجب في اللغة: أن الإنسان إذا رأى ما ينكره ويقل مثله قال: عجب من كذا وكذا، وكذا إذا فعل الآدميون ما ينكره الله جاز أن يقول فيه عجب، والله قد علم الشيء قبل كونه، ولكن الإنكار إنما يقع والعجب الذي يلزم به الحجة عند وقوع الشيء» اهـ (٣).

قلت : وهذا كلام متين منه رحمه الله، وقد جاءت أحاديث عن رسول الله ﷺ أخبر فيها عن عجب الله سبحانه وتعالى، من ذلك:

(أ) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: عجب ربنا تعالى من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل».

وفي رواية: «عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل» (٤).

(ب) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ :

(١) تفسير الطبري (دارالفكر) ٤٣/٢٣.

(٢) أضواء البيان ٦٨٠/٦.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣٠٠/٤.

(٤) حديث صحيح .

أخرجه البخاري في كتاب الجهاد باب الأسارى في السلاسل حديث رقم (٣٠١٠)

وأبوداود في كتاب الجهاد باب الأسير يوثق تحت رقم (٢٦٧٧).

فائدة: قال أبوداود: «يعني: الأسير يوثق ثم يسلم» اهـ

عجب ربنا تبارك وتعالى من رجل غزا في سبيل الله، فانهزم أصحابه فعلم ما عليه، فرجع حتى أهريق دمه، فيقول الله عزوجل لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي حتى أهريق دمه»(١).

(ج) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يعجب ربك من راعي غنم في رأس شظية للجبل (٢) يؤذن بالصلاة ويصلي، فيقول الله عزوجل: انظروا إلى عبدي هذا، يؤذن ويقيم الصلاة يخاف مني قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة»(٣).

قلت : فصفة «العجب» أخبر بها رسول الله ﷺ عن الله تبارك وتعالى، ورسول الله أعلم بما يليق بالله عزوجل، فنثبت له سبحانه صفة العجب بما يليق له دون تشبيه أو تحريف أو تكييف أو تعطيل والله أعلم.

(٣) أن القراءتين تؤكدان العجب من حال هؤلاء الكفرة في إصرارهم على الكفر والعناد مع ما يرونه من الآيات البينات والله أعلم.

(١) حديث حسن .

أخرجه أبوداود في كتاب الجهاد باب في الرجل الذي يشري نفسه حديث رقم (٢٥٣٦) وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٢٧/٤ وحسنه أيضا محقق جامع الأصول ٥٠٨/٩.

(٢) الشظية من الجبل قطعة مرتفعة في رأس الجبل. النهاية في غريب الحديث والأثر ٤٧٦/٢.

(٣) حديث صحيح .

أخرجه أبوداود في كتاب الصلاة باب الأذان في السفر حديث رقم (١٢٠٣) والنسائي في كتاب الأذان باب الأذان لمن يصلي وحده ٢٠/٢.

والحديث صححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٦٥/١ حديث رقم (٤١) وصححه أيضا محقق جامع الأصول ٣٩٥/٩.

الموضع الثاني والثمانون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا، أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ، سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ﴾ الزخرف: ١٩.
تنوعت القراءات في قوله: ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ :

فقرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائي وخلف بالالف بعد الموحدة المفتوحة ورفع الدال: ﴿عِبَادُ﴾ جمع عبد، ووافقهم ابن محيصن واليزيدي والشنبوذي، وعن المطوعي كذلك لكن بالفتح.
وقرأ باقي العشرة: ﴿عِنْدَ الرَّحْمَنِ﴾ بالنون الساكنة وفتح الدال بلا ألف (١).

معنى القراءات :

القراءة بالباء: ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ جمع عبد، كقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ الأنبياء: ٢٦ وهذه القراءة تدل على نفي قول من جعل الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا لأنه يخبر أنهم عباد، والولد لا يكون عبد أبيه، فهي قراءة تدل على تكذيب من ادعى ذلك وترد قوله.

القراءة بالنون: ﴿عِنْدَ الرَّحْمَنِ﴾ على الظرف كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الأعراف: ٢٠٦ وكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الأنبياء: ١٩، وفي هذه القراءة دلالة على شرف منزلتهم وجلالة قدرهم عند الله عز وجل فلما يدريهم أنهم أناث؟ (٢).

حاصل القراءات :

تضمنت الآية بالقراءتين تقرير مايلي :

(١) أن الملائكة عباد لله تعالى.

(٢) أن الملائكة في منزلة عالية من الشرف وجلال القدر عند الله

تعالى.

وفي هذين التقريرين إيضاح كذب الكفار وبيان جهلهم في نسبة الأولاد إلى الله سبحانه وتعالى، ثم في تحكمهم بأن الملائكة إناث وانهم بنات الله.

وذكرهم بوضف «العباد» مدح لهم؛ أي: كيف عبدوا من دون الله من هو في نهاية العبادة لله؟ ثم كيف حكموا بأنهم أناث من غير دليل؟ (٣).

(١) المبسوط ص ٣٣٤ النشر ٣٦٨/٢ الاتحاف ص ٣٨٥.

(٢) الكشف ٢٥٦-٢٥٧.

(٣) تفسير القرطبي ٧٢/١٦-٧٣.

الموضع الثالث والثمانون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ الزخرف: ٥٧.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿يَصِدُّونَ﴾ :

فقرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبوجعفر وخلف: ﴿يَصِدُّونَ﴾ بضم الصاد.

وقرأ باقي العشرة: ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكسر الصاد مضارع (١).

معنى القراءتين :

القراءة بضم الصاد أفادت أن قوم الرسول ﷺ لما ضرب ابن مريم مثلاً صدوا غيرهم عن الإيمان.

القراءة بكسر الصاد أفادت أن قوم الرسول ﷺ لما ضرب ابن مريم مثلاً صدوا في أنفسهم.

وقيل : يصدون بكسر الصاد يضجون.

أو يصدون من التصدية وهو التصفيق والصياح والضجيج بمعنى: يصفقون ظناً منهم أنهم أقاموا الحجة على الرسول ﷺ في شأن عيسى عليه الصلاة والسلام وأنه يدخل النار مع آلهتهم لأنه عبد من دون الله تعالى. ويؤيد هذا المعنى ما جاء عن ابن عباس: « أن النبي ﷺ قال: لقريش يامعشر قريش لا خير في أحد يعبد من دون الله.

فقالوا : ألسنت تزعم أن عيسى كان نبياً وكان عبداً صالحاً؛ إن كنت صادقاً؛ إنه لكآلهتهم فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ يضجون ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمُ السَّاعَةَ﴾ خروج عيسى قبل يوم القيامة (٢).

(١) المبسوط ص ٣٣٥-٣٣٦ النشر ٣٦٩/٢ الاتحاد ص ٣٨٦.

(٢) إسناده حسن .

أخرجه أحمد في المسند (شاکر) ٣٢٨/٤ حديث رقم (٢٩٢١) بسياق أتم من هذا و أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٥٣/١٢-١٥٤ والسياق له، وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص ٣١٥ بسياق تام، و ص ٣٩٧ بهذا السياق.

قال في مجمع الزوائد ٣٢٨/٤: «فيه عاصم بن بهدلة وثقه أحمد وغيره وهو سفيء الحفظ وبقية رجاله رجال الصحيح» هـ

والحديث في سننه عاصم بن بهدلة والمتقرر أنه حسن الحديث مالم يخالف، وقد حسن حديثه الذهبي في «الميزان» ٣٥٧ / ٢.

و عزاه في الدر المنثور ٣٨٥/٧ إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه كذلك.

والحديث صححه السيوطي في لباب النقول ص ١٨٩ و أحمد شاکر في تحقيقه

حاصل القراءات :

قال في التحرير والتنوير: «كلا المعنيين حاصل منهم» اهـ (١).
وعلى المعنى الثاني في (يصدون) بالكسر يضجون يتحصل أن قوم
الرسول ﷺ إذا ضرب ابن مريم مثلا يضجون ويعرضون، فيكون إعراضا
مصحوبا بضجيج (٢) والله أعلم.

= للمسند و أشار إلى حُسْنِهِ مقبل الوادعي في «الصحيح المسند من أسباب النزول»
ص ١٣١.

(١) التحرير والتنوير ١/٥٥.

(٢) حجة القراءات ص ٦٥٢-٦٥٣.

الموضع الرابع والثمانون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكُمُ أَعْمَالُكُمْ﴾ سورة محمد: ٣٥.

هكذا قرأ عامة القراء العشرة: ﴿تَدْعُوا﴾ بسكون الدال.

وقرأ السلمي: «وتدعوا إلى السلم» بتشديد الدال (١) وهي قراءة آحادية. معنى القراءتين :

قراءة الجمهور معناها: لا تدعوا إلى الصلح ابتداء (٢).

قراءة السلمي معناها: لا تنسبوا إلى السلم، أي: لا تنسبوا أنفسكم إلى السلم مع الكفار (٣).

حاصل القراءات :

المنع من مسالمة الكفار مطلقاً، فلا يجوز للمسلم أن يدعو الكفار إلى السلم ابتداء، كما لا يجوز له أن ينسب نفسه إلى السلم فيجعلهم يطلبون السلم ليعطيهم إياه، والله اعلم.

ويلاحظ مايلي :

مثل هذه الآية وأثر القراءات فيها قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الصف : ٧.

هكذا قرأها عامة القراء العشرة.

وقرأ طلحة: «وهو يدعى إلى الاسلام» بتشديد الدال.

قال ابن جني (ت ٣٩٢هـ): «ظاهر هذا أن يقال: يدعي الاسلام إلا أنه لما كان يدعي الاسلام ينتسب إليه قال: يدعى إلى الاسلام حملاً على معناه كقول الله تعالى: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ [النازعات: ٨] وعادة الاستعمال: هل لك في كذا، لكنه لما كان معناه: أدعوك إلى أن تزكى، استعمل «إلى» هنا تطاولاً نحو المعنى «اهـ» (٤).

(١) المحتسب ٢/٢٧٣.

(٢) زاد المسير ٧/٤١٣.

(٣) المحتسب ٢/٢٧٣.

(٤) ماسبق ٢/٣٢١.

الموضع الخامس والثمانون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفْتَمَّارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ النجم: ١٢.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿أَفْتَمَّارُونَهُ﴾ :

فقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بفتح التاء وسكون الميم بلا ألف: ﴿أَفْتَمَّارُونَهُ﴾ ووافقهم الأعمش.

وقرأ باقي العشرة: ﴿أَفْتَمَّارُونَهُ﴾ بضم التاء وفتح الميم وألف بعدها، ووافقهم ابن محيصن واليزيدي والحسن (١).

معنى القراءتين :

القراءة بفتح التاء وسكون الميم بلا ألف: ﴿أَفْتَمَّارُونَهُ﴾ من مريته إذا علمته وجحدته، وعدى بـ«على» لتضمنه معنى الغلبة، والتقدير: أفتجحدونه على ما يرى؛ إذ كان شأن المشركين الجحود لما يأتيهم به محمد ﷺ.

القراءة بضم التاء وفتح الميم وألف بعدها: ﴿أَفْتَمَّارُونَهُ﴾ من ماراه يماريه وراء أي: جادله، والمعنى: أفتجادلونه فيما علمه ورآه كما قال: ﴿يَجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ الأنفال: ٦ (٢).

قال مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ): «وقد تواترت الأخبار بمجادلة قريش النبي ﷺ أمر الإسراء» اهـ (٣).

حاصل إقرأات :

القراءتان تصدق بعضهما بعضا وتضيف كل واحدة إلى الأخرى معنى زائدا، فالكفار جحدوا أمر الإسراء وجادلوا الرسول ﷺ سعيًا في إبطاله والله أعلم (٤).

(١) المبسوط ص ٣٥٤ النشر ٣٧٩/٢ الاتحاف ص ٤٠٢.

(٢) الكشف ٢٩٤-٢٩٥ الاتحاف ص ٤٠٢.

(٣) الكشف ٢٩٥/٢.

(٤) ما سبق.

الموضع السادس والثمانون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ. فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ. وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الرحمن: ١٠-١٣.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ :
فقرأ ابن عامر بنصب الثلاثة الأسماء: ﴿وَالْحَبُّ ذَا الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾،
وكذا كتب ﴿ذَا الْعَصْفِ﴾ في المصحف الشامي بألف (١).
وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ بخفض النون ورفع الأولين:
﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ ووافقهم الأعمش.
وقرأ باقي العشرة برفع الأسماء الثلاثة: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾
و ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ في مصاحفهم بالواو (٢)، ووافقهم اليزيدي وابن محيصن
والحسن.

معنى القراءات (٣) :

قوله: ﴿وَالْحَبُّ﴾ يريد جميع الحبوب كالبر والشعير ونحوها.
وقوله: ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ فيه قولان :
أحدهما : أنه تبين الزرع وورقه الذي تعصفه الرياح، قاله ابن
عباس وابن مجاهد وغيرهما.
والثاني : أنه المأكول من الحب، حكاه الفراء، ولا سلف لهذا
القول.

وقوله: ﴿الرَّيْحَانُ﴾ فيه أربعة أقوال :
الأول : أنه الرزق، رواه عكرمة عن ابن عباس وبه قال مجاهد،
وسعيد بن جبيرة والسدي، والعرب تقول: خرجت أطلب ريحان الله (٤)، أي:
أطلب رزق الله.

والثاني : أنه خضرة الزرع، روي عن ابن عباس.
قال بعضهم : «فعلى هذا سمي ريحانا لاستراحة النفس بالنظر إليه».
والثالث : أنه الريحان الذي يشم، روي عن ابن عباس وهذا مذهب

(١) المقنع في رسم مصاحف الأمصار ص ١١٢ النشر ٣٨٠/٢.

(٢) المبسوط ص ٣٥٨ النشر ٣٨٠/٢ الاتحاف ص ٤٠٥.

(٣) زاد المسير ١٠٨/٨-١٠٩ الدر المنثور ٦٩٣/٧-٦٩٤.

(٤) غريب القرآن وتفسيره ص ٣١٦ تفسير غريب القرآن ص ٤٣٧.

الحسن والضحاك وابن زيد.

والرابع : أنه مالم يؤكل من الحب والعصف المأكول حكاه
الفراء.

قلت : وهذه الأقوال الأربعة حاصلها قولان؛ لأن القول الثاني والثالث في
معنى واحد، فمن النبات ما تستريح إليه النفس لطيب ريحه ، ومنه ما تستريح
إليه النفس لحسن منظره، والقول الرابع لا سلف له ، وقد حكاه الفراء
مؤخراً له، مصدراً إياه بقوله: «قال بعضهم:...» (١)، فالحاصل من هذه الأقوال
الأربعة في معنى ﴿الرَّيْحَانِ﴾ قولان هما:

الأول : أنه الرزق.

الثاني : أنه ما تستريح إليه النفس لطيب ريحه أو لحسن منظره.
ويتعين كون ﴿الرَّيْحَانِ﴾ بمعنى الرزق على قراءة حمزة والكسائي وخلف
وتقدير المعنى عليها: والحب ذو ورق الزرع و تبته و ذو الرزق؛ فالتبن وورق
الزرع رزق البهائم، و ﴿الرَّيْحَانِ﴾ هو رزق بني آدم من الحب.

وعلى هذا فـ ﴿الرَّيْحَانِ﴾ لا يحتمل المشموم أو ما يستروح بمنظره (٢).

ويحتمل معنى ﴿الرَّيْحَانِ﴾ القولين على باقي القراءات.

فالمعنى على قراءة ابن عامر بالنصب: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾

أي: خلق إله الحب ذا العصف وخلق الريحان.

وعلى هذه القراءة فـ ﴿الريحان﴾ محتمل لمعنى الرزق، ولمعنى ما يستروح

به مما يشم أو ينظر إليه (٣).

والمعنى على قراءة الباقيين بالضم: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ أي:

في الأرض فاكهة وفيها الحب ذو العصف وفيها الريحان؛ فيكون الريحان ها

هنا هو الريحان الذي يشم أو يكون هاهنا هو الرزق (٤).

حاصل القراءات :

خلق الله إله الحب صاحب الورق والتبن للبهائم، وصاحب الرزق لسائر

الخلق، وهو ما يؤكل من الحب ، كما خلق ما يستروحون بطيب ريحه أو

بحسن منظره من الزرع.

(١) معاني القرآن للفراء ١١٤/٣.

(٢) الكشف ٢٩٩/٢-٣٠٠ حجة القراءات ص ٦٩٠-٦٩١ أضواء البيان ٧/٧٤٠.

(٣) الكشف ٢٩٩/٢ أضواء البيان ٧/٧٤٠.

(٤) حجة القراءات ص ٦٩١ أضواء البيان ٧/٧٤٠.

وتلاحظ الأمور التالية :

(١) أن القراءات مع تنوع لفظها ومعناها يصدق بعضها بعضاً، ويضيف إليها معنى جديداً .

(٢) إن قلت: في معنى الآية على قراءة حمزة والكسائي وخلف: ﴿العَصْف﴾ هو ما تأكله البهائم من ورق الزرع وتبته، و ﴿الرَّيْحَان﴾ ما يرزقه الناس من الحب؛ فإن العصف والعصفة رزق أيضاً فكأنه قال: ذو الرزق وذو الرزق؟.

فالجواب : هذا لا يمتنع لأن العصفة رزق غير الرزق الذي أوقع الريحان عليه، وكأن الريحان أريد به الحب إذا خلص لفائفه، فأوقع عليه الرزق لعموم المنفعة به، وأنه رزق للناس وغيرهم (١).

(٣) أن الآية على قراءة حمزة ومن معه يكون معناها كقوله عز وجل: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ النازعات: ٣٣ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾ السجدة: ٢٧ وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ سورة طه: ٥٣-٥٤ وكقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَرَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدائقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا. مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ عبس: ٢٤-٣٢ (٢).

(٤) لما ذكر الله السماء في أول سورة الرحمن في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ آية: ٧، ذكر مقابلها فقال: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ أي: خفضها مدحوة لينتفع بها وجعل فيها فاكهة ضرباً مما يتفكه به، وبدأ بقوله: ﴿فَاكِهَةً﴾ إذ هو من باب الابتداء بالأدنى، والترقي إلى الأعلى ونكر لفظها لأن الانتفاع بها دون الانتفاع بما يذكر بعدها.

وثنى بالنخل مُعَرِّفًا ذاكرًا الأصل ولم يذكر ثمرتها وهو «التمر» فقط لكثرة الانتفاع بها من ليف وسعف وجريد وجذوع.

ثم أتى ثالثاً بالحب الذي هو قوام عيش الإنسان في أكثر الأقاليم وهو «البر» و «الشعير» وكل ماله سنبل، وأوراق متشعبة على ساقه، ووصفه بقوله: ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ تنبيهاً على إنعامه عليهم بما يقوتهم من الحب، ويقوت بهائمهم من ورقه الذي هو التبن.

(١) حجة القراءات ص ٦٩١ هامش.

(٢) الكشف ٣٠٠/٢ أضواء البيان ٧٤١/٧.

وبدأ بالفاكهة وختم بالمشموم وبينها النخل والحب ليحصل ما به يتفكه وما به يتقوت وما به تقع اللذازة من الرائحة.

وذكر النخل باسمها والفاكهة دون شجرها لعظيم المنفعة بالنخل من جهات متعددة، وشجر الفاكهة بالنسبة إلى ثمرتها حقيرة؛ فنص على ما يعظم الانتفاع به من شجرة النخل ومن الفاكهة دون شجرها (١).

(٥) أن مجيء الآية محتملة لمعنيين في قراءة، ومجيئها على معنى واحد في قراءة من أحد المعنيين؛ فيه تأكيد على هذا المعنى، ففي الآية تأكيد على قضية امتنان الله بجعل الحب رزقا لسائر الخلق، مما يتناسب مع كونه مما لا يستغنى عنه.

(١) البحر المحيط ١٨٩/٨-١٩٠ باختصار.

الموضع السابع والثمانون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ﴾ الواقعة: ٨٩.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿فَرَوْحٌ﴾ :

فقرأ رويس في روايته عن يعقوب: ﴿فَرَوْحٌ﴾ بضم الراء (١) وانفرد ابن مهران (٢) بروايته عن روح عن يعقوب، ورويت عن ابن عباس مرفوعة (٣)، وهي قراءة أبي بكر الصديق وأبي رزين والحسن وعكرمة وابن يعمر وقتادة وابن أبي سريج عن الكسائي (٤).

وقرأ باقي العشرة: ﴿فَرَوْحٌ﴾ بالفتح، وهي قراءة الحسن وابن محيصن واليزيدي والأعمش (٥).

معنى القراءات :

القراءة بفتح الراء: ﴿فَرَوْحٌ﴾ في معناها أقوال (٦) :

الأول : الفرح، رواه ابن جبير عن ابن عباس.

الثاني : الراحة، وهو مروى عن ابن عباس.

الثالث : المغفرة والرحمة، رواه العوفي عن أيضا.

الرابع : الجنة، قاله مجاهد.

الخامس : روح في القبر، أي: طيب النسيم، قاله ابن قتيبة (٧).

القراءة برفع الراء: ﴿فَرَوْحٌ﴾ في معناها قولان (٨) :

الأول : فرحة، قاله قتادة.

الثاني : فحياة وبقاء، قاله ابن قتيبة (٩).

حاصل القراءات :

أن للسابقين حياة دائمة ، مريحة في جنته سبحانه .

(١) النشر ٣٨٣/٢ الاتحاف ص ٤٠٩.

(٢) المبسوط ص ٣٦١ وانظر النشر ٣٨٣/٢.

(٣) الاتحاف ص ٤٠٩.

(٤) المحتسب ٣١٠/٢ زاد المسير ١٥٦/٨.

(٥) النشر ٣٨٣/٢ الاتحاف ص ٤٠٩.

(٦) زاد المسير ١٥٦/٨.

(٧) تفسير غريب القرآن ص ٤٥٢.

(٨) زاد المسير ١٥٧/٨.

(٩) تفسير غريب القرآن ص ٤٥٢.

الموضع الثامن والثمانون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ، قِيلَ: ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ الحديد: ١٣.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿انظرونَا﴾ :

فقرأ حمزة بقطع الهمزة المفتوحة، وكسر الظاء ووافقه المطوعي في روايته عن الأعمش.

وقرأ باقي العشرة بوصل الهمزة وضم الظاء، ووافقهم الحسن واليزيدي وابن محيصن والشنبوزي عن الأعمش (١).

معنى القراءات :

قراءة حمزة بقطع الهمزة المفتوحة وكسر الظاء من الانظار بمعنى الامهال، أي: تمهلوا نقتبس من نوركم.

قراءة الجمهور بوصل الهمزة وضم الظاء من النظر، نظر العين، أي: انظروا إلينا وابصروا حالنا (٢).

حاصل القراءات :

بينت الآية بالقراءتين أن المنافقين والمنافقات يقولون للذين آمنوا: انظروا إلينا وابصروا حالنا، وانتظرونا لنسير معكم في نوركم.

(١) المبسوط ص ٣٦٢ النشر ٢/ ٣٨٤ الاتحاف ص ٤١٠.

(٢) الكشف ٢/ ٣٠٩.

الموضع التاسع والثمانون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم﴾ الحديد: ١٨.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿المصدقين والمصدقات﴾:

فقرأ ابن كثير وأبوبكر عن عاصم بتخفيف الصاد فيهما ووافقهما ابن محيصن: ﴿المصدقين والمصدقات﴾.

وقرأ باقي العشرة بالتشديد فيهما ووافقهم الحسن واليزيدي والأعمش: ﴿المصدقين والمصدقات﴾ (١).

معنى القراءتين :

قراءة ابن كثير وأبي بكر بتخفيف الصاد من التصديق أي: صدقوا الرسول ﷺ، والمعنى: إن المؤمنين والمؤمنات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم؛ لأن الإيمان والتصديق سواء.

قراءة الجمهور بتشديد الصاد من التصديق ، وأصله: إن المتصدقين والمتصدقات، ثم أرغم (٢).

حاصل القراءتين :

قال مكي بن أبي طالب (ت ٣٧٤هـ): «في القراءة بالتشديد قوة من جهة المعنى؛ وذلك أن كل من تصدق لله فهو مؤمن، وليس كل من آمن يتصدق لله، فالقراءة بالتشديد أعم لأنها تجمع الإيمان والصدقة.

وفي القراءة بالتخفيف قوة أيضاً من جهة المعنى؛ وذلك أنه محمول على التصديق الذي هو الإيمان ثم ذكر بعده: ﴿وأقرضوا الله﴾ فقد بين أنهم جمعوا الحالتين الإيمان والصدقة.

ومن شدد فإنما يقدر أن قوله: ﴿وأقرضوا﴾ تأكيد مكرر، لأن التشديد يدل على الصدقة وهي القرض، وكان في الكلام إذا قريء بالتشديد تكرير، وليس كذلك إذا قريء بالتخفيف، بل التخفيف وما بعده من ذكر القرض يدل على الإيمان والصدقة فذلك فائدتان، والتشديد وما بعده من ذكر القرض يدل على

(١) المبسوط ص ٣٦٣ النشر ٢/ ٣٨٤ الاتحاف ص ٤١٠.

(٢) الكشف ٢/ ٣١٠.

فائدة واحدة وهي الصدقة لا غير» اهـ (١).
قلت : أفادت الآية بالقراءتين أهمية الصدقة، وأنها دليل الايمان وبرهانه كما قال ﷺ : «... والصدقة برهان» (٢)، والله أعلم.

(١) الكشف ٢/٣١٠-٣١١.

(٢) حديث صحيح .

أخرجه مسلم في كتاب الطهارة باب فضل الوضوء حديث رقم (٢٢٣) وهو أول حديث في كتاب الطهارة ولفظه: «عن أبي مالك الأشعري قال: «قال رسول الله ﷺ : «الطهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الايمان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها»».

قال عياض: «قوله: «الصدقة برهان» أي: دليل على إيمان صاحبها؛ لأن شأن المنافقين اللزم فيها، ألا ترى ضعف إيمان من منعها في الردة أيام أبي بكر رضوان الله عليه» اهـ . نقله الأبى في شرحه لصحيح مسلم ٦/٢.

الموضع التسعون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ الملك: ٢٧.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿تدعون﴾

فقرأ يعقوب بسكون الدال مخففة: ﴿تدعون﴾ وهي قراءة الحسن وأبي رجاء والضحاك وعبد الله بن مسلم بن يسار وقتادة وسلام (١).

وقرأ باقي العشرة: ﴿تدعون﴾ بتشديد الدال مع فتحها (٢).

معنى القراءات :

القراءة بتخفيف الدال مع سكونها من الدعاء، أي: تطلبون وتستعجلون، والمعنى هذا الذي كنتم تطلبون وتستعجلون وتدعون الله أن يوقعه بكم كقوله تعالى: ﴿سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ المعارج: ١ (٣).

القراءة بتشديد الدال فيها قولان :

الأول : أنها من الدعاء، كقراءة يعقوب، أي: تتداعون بوقوعه، والمراد أن الدعوة بوقوعه فاشية منكم (٤).

الثاني : أنها من الدعوى، أي: هذا الذي كنتم من أجله تدعون الأباطيل والأكاذيب، تدعون أنكم إذا متم لا تبعثون فلا جنة ولا نار (٥).

حاصل القراءات :

أنه يقال للذين كفروا لما يروا العذاب: هذا الذي كنتم تسألون عنه وتستعجلون به، وهذا ما كنتم تنكرونه وتدعون أن لا جنة ولا نار.

(١) المحتسب ٣٢٤/٢.

(٢) المبسوط ص ٣٧٧ النشر ٣٨٩/٢.

(٣) المحتسب ٣٢٤/٢.

(٤) ماسبق .

(٥) زاد المسير ٣٢٤/٨.

الموضع الحادي والتسعون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾
المزمل: ٦.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿أشد وطئاً﴾ :

فقرأ أبو عمرو وابن عامر بكسر الواو وفتح الطاء وألف ممدودة بعدها
همزة بوزن: «قتال»، ووافقهم اليزيدي والحسن وابن محيصن.

وقرأ الباقر بفتح الواو وسكون الطاء بلا مد (١).

معنى القراءتين :

القراءة: ﴿وطأ﴾ على وزن: «قتال» مصدر واطأ يواطئ مواطأة، أي:
الليل أشد لمواطأة القلب واللسان فيهما، أو موافقته لما يراد من
الإخلاص والخضوع، ولذا فضلت صلاة الليل على النهار (٢).

القراءة بفتح الواو وسكون الطاء بلا مد، أي: الليل أشد على
المصلي من ساعات النهار، من قول العرب: اشتدت على القوم وطأة
السلطان؛ إذا ثقل عليهم ما يلزمهم به (٣)، أو المعنى: أشد ثبات قدم وأبعد
من الزلل، أو المعنى: أشد نشاطاً للمصلي، أو المعنى: أشد قياماً، أو
أثبت قياماً وقراءة أو أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثار من
العبادة (٤).

حاصل القراءات :

المعاني السابقة في معنى القراءتين لا مانع من ارادتها هنا، فالقيام
في الليل أكثر موافقة للقلب واللسان والإخلاص والخضوع، وقيام الليل
أشد على النفس لأنه يبعثها من لذيذ المنام، وهو أشد ثباتاً لقدم صاحبه في
قيامه وقراءته وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة.

(١) المبسوط ص ٣٨٦ النشر ٢/٣٩٢-٣٩٣ الاتحاف ص ٤٢٦.

(٢) الاتحاف ص ٤٢٦.

(٣) زاد المسير ٨/٣٩١.

(٤) عمدة الحفاظ ص ٦٣٥ الاتحاف ص ٤٢٦.

الموضع الثاني والتسعون :

قول الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ. وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ التكوير: ٢٢-٢٦.

تنوعت القراءات في قوله تعالى: ﴿بضنين﴾ :

فقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب من رواية رويس بالظاء: ﴿بِظْنِينٍ﴾.

وقرأ عاصم وخلف وحمزة وابن عامر ونافع وأبو جعفر ويعقوب من رواية روح بالصاد: ﴿بُضْنِينٍ﴾.

وانفرد ابن مهران برواية القراءة بالظاء: ﴿بِظْنِينٍ﴾ عن روح (١).

معنى القراءات :

القراءة بالصاد: ﴿بُضْنِينٍ﴾ أي: ببخيل من الضنة، وهي البخل، يقال: ضن بضن بفتحتها في المضارع، لأن الماضي بكسرها قال الشاعر: مَهْلًا أَعَاذِلَ قَدْ جَرَّبْتُ مِنْ خُلُقِي أَنِّي أَجُودُ لَأَقْوَامٍ وَإِنْ ضَنُّوا وَقِيلَ: الضنة البخل بالشيء النفيس، فهو أخص.

والمعنى: أنه ﷺ ليس ببخيل بما يوحى إليه، بل يبلغ جميع ما أنزل الله إليه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ الغاشية: ٢١ (٢).

معنى القراءة بالظاء: ﴿بِظْنِينٍ﴾ أي: بمتهم، من الظنة، قال الشاعر:

أَمَّا - وَكِتَابُ اللَّهِ - لَا عَنْ شَنَاةٍ هَجَرْتُ وَلَكِنْ الظَّنِّينَ الظَّنِّينَ (٣).

والمعنى: ليس محمد ﷺ بمتهم في أن يأتي من عند نفسه بزيادة فيما أوحى إليه أو ينقص منه شيئاً (٤).

حاصل القراءتين :

أن محمد ﷺ ليس ببخيل في الوحي فهو يبلغ ما أنزل الله إليه كما هو دون زيادة و لا نقص، فهو ليس ببخيل وليس بمتهم في الوحي.

وتلاحظ الأمور التالية :

(١) أن الآية لم يختلف رسمها في المصاحف، حيث كتبت فيها

(١) المبسوط ص ٣٩٨ النشر ٢/٣٩٨-٣٩٩ الاتحاف ص ٤٣٤.

(٢) الكشف ٢/٣٦٤ عمدة الحفاظ ص ٣١٤.

(٣) حجة القراءات ص ٧٥٢ تفسير القرطبي ١٩/٢٤٢.

(٤) الكشف ٢/٣٦٤ حجة القراءات ص ٧٥٢.

بالضاد(١).

قال الدمياطي (ت١١١٧هـ): «لا مخالفة في الرسم (يعني: بين الضاد والطاء) إذ لا مخالفة بينهما إلا في تطويل رأس الطاء على الضاد، قال الجعبري: وجه ﴿بضنين﴾ أنه رسم برأس معوجه وهو غير طرف فاحتمل القراءتين وفي مصحف ابن مسعود بالطاء.» اهـ(٢). قلت : إذا ثبت التواتر لم يحتج إلى موافقة الرسم كما قال ابن الجزري رحمه الله.

(٢) القراءة بـ﴿ظنين﴾ من الظنة التهمة، دل على ذلك أنه لم يتعد إلى مفعول واحد، قام مقام الفاعل، وهو مضمَر فيه و«ظننت» إذا كان بمعنى اتهمت لم تتعد إلا إلى مفعول واحد(٣). (٣) هاتان القراءتان اختلف لفظهما ولم يتناقضا، وهي تصدق بعضها بعضا بل أضافت كل قراءة معنى إلى الأخرى

(١) تفسير الطبري (دارالفكر) ٨٣/٣٠ النشر ٣٩٩/٢ وظاهر أن مرادهما المصاحف التي توافق الرسم العثماني فلا يعترض عليهما برسم مصحف ابن مسعود ولا غيره.

(٢) الإتحاف ص ٤٣٤ .

قلت : ولما قال أبو عبيدة معللاً إتحاد الرسم في المصاحف مع اختلاف القراءات في هذا الموضع: «إن الضاد والطاء في الخط القديم لا يختلفان إلا بزيادة رأس أحدهما على الأخرى زيادة يسيرة قد تشتبهُ».

تعقبه الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي ٣٣٠-٣٣١/٨ بقوله: «وهو كما قال، ويعرفه من قرأ الخط المسند وليس فيه اتهام لنقلة المصاحف كما توهم، لأن ما نقلوه موافق للقراءة المتواترة، ولا بد مما ذكره أبو عبيدة؛ لأنهم اشترطوا في القراءات موافقة الرسم العثماني، ولولاه كانت قراءة الطاء مخالفة له» اهـ.

قلت : لكن قال ابن الجزري في النشر ٣١/١: «التواتر إذا ثبت لا يحتاج فيه إلى الركنيين الأخيرين من الرسم وغيره، إذ ما ثبت من أحرف الخلاف متواترا عن النبي ﷺ وجب قبوله وقطع بكونه قرآنا سواء وافق الرسم أم خالفه» اهـ.

(٣) الكشف ٣٦٤/٢ تفسير الرازي ٧٤/٣١.

الموضع الثالث والتسعون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ الانفطار: ٦-٨.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿فسواك فعذلك﴾ :

فقرأ أبو جعفر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الدال: ﴿فعذلك﴾ ووافقهم الحسن والأعمش.

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بتشديد الدال: ﴿فعذلك﴾ ووافقهم ابن محيصن واليزيدي (١).

معنى القراءات :

القراءة بالتشديد: ﴿فعذلك﴾ أي: سوى خلقك في أحسن صورة وأكمل تقويم، فجعلك معتدلاً معدل الخلق مقوماً، ولم يجعلك كالبهائم متطأطئاً (٢).

والقراءة بالتخفيف: ﴿فعذلك﴾ تحتل المعنى السابق في القراءة بالتشديد، وتحتل أن تكون بمعنى صرفك وأمالك إلى أي: صورة شاء، إما إلى صورة حسنة وإما إلى صورة قبيحة، أو إلى صورة بعض قراياته (٣).
حاصل القراءتين :

خلق الله تعالى الإنسان سوياً في خلقته، في أحسن تقويم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ التين: ٤، وصوره في الصورة التي أرادها سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ آل عمران: ٦.
وتلاحظ الأمور التالية :

(١) قوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ بيان لقوله: ﴿عدلك﴾ إذا كان الجار والمجرور متعلقاً بقوله: ﴿ركبك﴾، أو متعلقاً بقوله: ﴿بربك﴾، وهذا الثاني قول الجمهور، والمعنى: عليه ما غرك بربك الكريم الذي ... في أي صورة ما شاء ركبك (٤).

(٢) قيل : قوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ يتعلق بقوله: ﴿فعذلك﴾ أي: فعذلك في صورة أي صورة، و ﴿أي﴾ تقتضي التعجيب

(١) المبسوط ص ٣٩٩ النشر ٢/٣٩٩ الاتحاف ص ٤٣٤.

(٢) تفسير الطبري (دار الفكر) ٨٧/٣٠ الكشف ٣٦٤/٢ حجة القراءات ص ٧٥٢-٧٥٣.

(٣) ماسبق.

(٤) تفسير القرطبي ٢٤٧/١٩ البحر المحيط ٤٣٧/٨ حاشية الشهاب على البيضاوي ٣٣٣/٨.

والتعظيم؛ فلم يجعلك في صورة خنزير أو حمار، وعلى هذا تكون ﴿ما﴾ منصوبة بـ﴿شاء﴾ كأنه قال: أي تركيب حسن شاء ركبك؛ والتركيب: التأليف والجمع (١).

ولا يتعلق قوله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ...﴾ بـ﴿عدلك﴾ على قراءة التخفيف (٢).

(٣) مما تقدم تعلم النكتة في عدم عطف قوله: ﴿ركبك﴾ بالفاء (٣).

(١) البحر المحيط ٤٣٧/٨.

(٢) تفسير القرطبي ٢٤٧/١٩.

(٣) تفسير البيضاوي ص ٧٨٧ البحر المحيط ٤٣٧/٨.

الموضع الرابع والتسعون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ. يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ. وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ. ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ. يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾
الانفطار: ١٣-١٩.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾ :

فقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: ﴿يوم﴾ بالرفع ووافقهم ابن محيصن واليزيدي.

وقرأ سائر العشرة: ﴿يوم﴾ بالنصب ووافقهم الحسن والأعمش (١).
معنى القراءات :

القراءة بالضم في معناها وجهان (٢) :

الأول : أن يكون قوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ بدل من قوله: ﴿ما يوم الدين﴾.

الثاني : أن يكون قوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ على إضمار «هو» فيكون المعنى: ما يوم الدين هو يوم لا تملك نفس لنفس شيئا.

وعلى الوجهين يكون قوله: ﴿يوم لا تملك..﴾ تفسير لقوله: ﴿يوم الدين﴾.
ومعنى القراءة بالنصب فيه وجوه (٣) :

الأول : أن يكون قوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ ظرفاً، على معنى: هذه الأشياء المذكورة تكون يوم لا تملك نفس لنفس شيئا.

الثاني : باضمار: «اذكروا»، أي: اذكروا يوم لا تملك نفس لنفس شيئا.

الثالث : أن تكون بمعنى القراءة بالضم، ويكون قوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾ في موضع رفع إلا أنه بني على الفتح لإضافته إلى قوله: ﴿لا تملك﴾؛ لأن ما أضيف إلى غير المتمكن قد يبني على الفتح وإن كان في موضع رفع أو جر.
حاصل القراءتين :

يخبر الله تبارك وتعالى أن هذه الأمور التي ذكرها في الآيات ستكون في ذلك اليوم الذي لا تملك فيه نفس لنفس شيئا وذلك اليوم هو يوم الدين،

(١) المبسوط ص ٣٣٩ النشر ٢/٣٩٩ الاتحاف ص ٤٣٥.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢٩٦/٥ الكشف ٢/٣٦٤-٣٦٥ تفسير الرازي ٨٦/٣١.

(٣) ماسبق .

الذي علينا أن نتذكره ونستعد له.

وتلاحظ الأمور التالية :

(١) أن هاتين القراءتين فيهما إعلام بشدة هول ذلك اليوم وبأنه لا ملك لأحد إلا لله الواحد القهار كما قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ غافر: ١٦ وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ البقرة: ٤٨ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ عبس: ٣٤-٣٦.

(٢) هذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ الفاتحة: ٤.

(٣) في الآية تقرير أنه ليس لأحد شيء في ذلك اليوم، وقررت آيات أخرى أن الله يقبل الشفاعة، ولا تعارض لأن قبول الشفاعة باذنه ورضاه سبحانه فعاد الأمر كله لله الواحد القهار كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ الأنبياء: ٢٨ وقال تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ يونس: ٣ وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ طه: ١٠٩ وقال: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ سبأ: ٢٣ وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الزمر: ٤٤.

الموضع الخامس والتسعون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ. يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ. خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ المطففين: ٢٢-٢٦.

تنوعت القراءات في قوله تعالى: ﴿ختامه﴾ :

فقرأ الكسائي بفتح الخاء والتاء والالف بينهما: ﴿خاتمته﴾.

وقرأ الباقر بكسر الخاء والالف بعد التاء: ﴿ختامه﴾ (١).

معنى القراءات :

معنى قراءة الكسائي : أن ختم هذا الرحيق الذي يختم به الإناء مسك، بدل الطين الذي يختم به رؤوس القوارير، فكأن ذلك المسك رطب ينطبع فيه الخاتم (٢).

وقد نقل هذا المعنى عن ابن عباس وغيره (٣).

معنى قراءة الباقرين : أن خاتمة ما في الكأس مسك، أي: إذا شربوا

هذا الرحيق ففني ما في الكأس يجدون عاقبتها مسكا (٤).

حاصل القراءتين :

أن الأبرار يسقون من رحيق مختوم على آنيته بمسك، وفي آخره إذا شربوا مسك.

وتلاحظ الأمور التالية :

(١) ذهب بعض أهل العلم إلى أن معنى القراءتين واحد، وهو آخره وعاقبته مسك، أي: هي طيبة الريح، وأن ريحها في آخر شرابهم يختم لها بريح المسك.

قال الطبري (ت ٣١٠هـ): «والختام والخاتم وإن اختلفا في اللفظ فإنهما متقاربان في المعنى، غير أن الخاتم اسم، والختام مصدر. ونظير ذلك قولهم: هو كريم الطبائع (٥) و الطبائع» اهـ (٦).

(١) المبسوط ص ٤٠٣ النشر ٣٩٩/٢ الاتحاف ص ٤٣٥.

(٢) الكشف ٣٦٦/٢ البحر المحيط ٤٤٢/٨.

(٣) الدر المنثور ٤٥١/٨.

(٤) الكشف ٣٦٦/٢ حجة القراءات ص ٧٥٤.

(٥) كذا في تفسير الطبري (دار الفكر) ١٠٧/٣٠ وصوابه: «كريم الطابع» ليصح التنظير وانظر «معاني القرآن» للفراء ٢٤٨/٣.

(٦) تفسير الطبري (دار الفكر) ١٠٧/٣٠ باختصار.

قلت : والمغايرة مع التأسيس أولى من مجرد المغايرة للتأكيد وبالله التوفيق.

(٢) للمفسرين في قوله تعالى: ﴿خَتَمَهُ مِسْكٌ﴾ أربعة أقوال (١) :

الأول : خلطه مسك، وينسب إلى مسعود ومجاهد.

الثاني : أن ختمه الذي يختم به الاناء مسك، وينسب إلى ابن

عباس.

الثالث : أن طعمه وريحه مسك، وينسب إلى علقمة.

الرابع : أن آخر طعمه مسك، قاله ابن جبير والفراء (٢)

وأبو عبيدة (٣) وابن قتيبة (٤) والزجاج (٥) في آخرين.

قلت : القول الأول ضعيف إذ الختم بمعنى المزج لم يسمع من كلام

العرب (٦).

والقول الثالث راجع إلى الثاني والرابع والله أعلم.

(١) تفسير الطبري (دار الفكر) ١٠٦/٣٠-١٠٧ زاد المسير ٥٩/٩.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢٤٨/٣.

(٣) مجاز القرآن ٢٩٠/٢.

(٤) تفسير غريب القرآن ص ٥٢٠.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣٠١-٣٠٠/٥.

(٦) تفسير الطبري (دار الفكر) ١٠٧/٣٠.

الموضع السادس والتسعون :
قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ الفجر ٦-٨.

هكذا قرأ عامة القراء: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾.
وقرأ ابن عباس: «بعاد أرم ذات العمار» بفتح الهمزة والراء.
وروي عن الضحاك: «بعاد أرم ذات العمار» بفتح الهمزة وسكون الراء.
وروي عن ابن الزبير: «بعاد أرم ذات العمار» بفتح الهمزة وكسر الراء.
وروي عنه أيضا: «بعاد أرم ذات العمار» بكسر الهمزة وفتح الراء
وكسر الميم (١).

معنى القراءات :

القراءة المتواترة: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ في المراد بـ«أرم» أربعة أقوال:
أحدها : أنه اسم بلدة، قيل: هي دمشق، وقيل: الإسكندرية، وقيل:
مدينة صنعها شدار بن عاد.

الثاني : أنه اسم أمة من الأمم، ومعناه: القديمة.

الثالث : أنه قبيلة من قوم عاد.

الرابع : أنه اسم لجد عاد (٢).

قراءة ابن عباس: «أرم ذات العمار» أي: جعلها رميما، والارم: الهلاك،
كما يقال: أرم بنو فلان أي: هلكوا.

القراءة المروية عن الضحاك: «بعاد أرم» بسكون الراء بمعنى
القراءة قبلها.

القراءة المروية عن ابن الزبير: بـ«عاد أرم ذات العمار» أي: أهل
أرم، هذه المدينة، فهي على حذف المضاف، أي: عاد أهل أرم ذات العمار،
ويحتمل أنه اسم لجد عاد أو علم على قبيلة من عاد.

القراءة بـ«عاد أرم ذات العمار» على إضافة «عاد» إلى: «أرم» وهي
المدينة التي يقال لها: ذات العمار، أي: أصحاب أعلام هذه المدينة (٣).

حاصل القراءات :

دلت الآية بالقراءات الواردة فيها على أن المقصود بعاد هم أهل
مدينة أرم ذات العمار، وأن الله أهلكهم ومدينتهم.

(١) المحتسب ٣٥٩/٣-٣٦٠.

(٢) زاد المسير ١٠٩/٩-١١١.

(٣) المحتسب ٣٦٠/٢ الدر المنثور ٥٠٦/٨.

الموضع السابع والتسعون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ. وَ مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ. إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ سورة الليل: ١-٤.

هكذا قرأ عامة القراء العشرة: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾.

وقرأ علي بن أبي طالب وابن مسعود وأبو الدرداء وابن عباس: «والنهار إذا تجلى والذكر والأنثى» (١).

وقرأ ابن مسعود أيضا: «والذي خلق الذكر والأنثى» (٢).

عن إبراهيم قال (٣): قدم أصحاب عبدالله على أبي الدرداء فطلبهم فوجدهم فقال: أيكم يقرأ على قراءة عبدالله؟ قال: كلنا. قال: فأيكم يحفظ؟ وأشاروا إلى علقمة. قال: كيف سمعته يقرأ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾؟ قال: علقمة: «والذكر والأنثى». قال: أشهد أنني سمعت النبي ﷺ يقرأ هكذا، وهؤلاء يريدونني على أن أقرأ: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ والله لا أتابعهم» (٤).

معنى القراءات :

القراءة المتواترة في معناها وجهان:

الأول : أي: وخلق الذكر والأنثى، فلفظة «ما» في ﴿وَمَا خَلَقَ﴾ مصدرية فيكون المعنى أقسم الله بخلقه للذكر والأنثى.

الثاني : أي: والذي خلق الذكر والأنثى، فلفظة «ما» بمعنى: «من» والقراءة الشاذة عن ابن مسعود: «والذي خلق الذكر والأنثى» تبينه، وعبر عن «من» بـ«ما» للدلالة على الوصفية ولقصد التفخيم، أي: والقادر العظيم

(١) المحتسب ٣٦٤/٢.

(٢) تفسير الرازي ١٩٨/٣١ فتح الباري ٧٠٧/٨.

(٣) هذا الحديث صورته الإرسال، لأن إبراهيم وهو النخعي ما حضر القصة، لكن وقع عند البخاري حديث رقم (٤٩٤٣): «عن إبراهيم عن علقمة... فتبين أن لا إرسال في هذا الحديث. وانظر فتح الباري ٧٠٧/٨.

(٤) حديث صحيح.

أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ حديث رقم (٤٩٤٤، ٤٩٤٣) وأخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب ما يتعلق بالقراءات حديث رقم (٨٢٤) وأخرجه الترمذي في جامعه كتاب القراءات باب ومن سورة الليل حديث رقم (٢٩٣٩) والنسائي في تفسيره ٢٨/٢ حديث رقم (٦٩٦-٦٩٧) والدوري في جزء فيه قراءات النبي ﷺ ص ١٧٦-١٧٧ حديث رقم (١٣١-١٣٢) وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد مختصرا ١٣٩/٢، ٣/١٤.

الذي خلق صنفى الذكر والأنثى (١).
فعلى الوجه الأول يكون القسم بخلقه سبحانه وتعالى للذكر والأنثى،
وعلى الثاني يكون القسم بالله تعالى.
والقراءة الشاذة عن علي ومن معه رضي الله عنهم بمعنى الوجه الأول
في القراءة المتواترة.
حاصل القراءات :

يقسم الله تعالى بنفسه وبخلقه للذكر والأنثى، كما يقسم بالذكر والأنثى،
فالقراءات أفادت تعدد القسم والمقسم به وذلك تعظيما لله، وتأكيذا لجواب
القسم في السورة والله أعلم.
وتلاحظ الأمور التالية :

(١) في المراد بالذكر والأنثى قولان:
الأول : آدم وحواء قاله ابن عباس والحسن والكلبي
ومقاتل .

الثاني يعني جميع الذكور والاناث من بني آدم والبهائم لأن الله تعالى
خلق جميعهم من ذكر وأنثى من نوعهم (٢).
وقيل : كل ذكر وأنثى من الآدميين دون البهائم لاختصاصهم بولاية الله
وطاعته (٣).

قال أبوحيان (ت ٧٥٤هـ): «الظاهر عموم الذكر والأنثى» اهـ (٤).
قلت : وكذا قال الشوكاني (٥) (ت ١٢٥٠هـ).

(٢) في تخصيص القسم بالذكر والأنثى لما فيهما من بديع صنع الله
وقوة قدرته سبحانه، وكذا في القسم بخلق الذكر والأنثى لفت نظر إلى هذه
الصفة لما فيها من إعجاز البشر عنها كما في الليل والنهار - الذين أقسم
الله بهما في مطلع هذه السورة - فإن فيهما من عموم الاعجاز للبشر ما هو
ظاهر وكذا قسمه بخلق الذكر والأنثى (٦).

(٣) قال أبوحيان (ت ٧٥٤هـ): «وما ثبت في الحديث من قراءة: «والذكر

(١) زاد المسير ١٣٨/٩-١٣٩ تفسير القرطبي ٨١-٨٠/٢٠ تفسير الشوكاني ٤٥٢/٥.

(٢) زاد المسير ١٤٥/٩-١٤٦.

(٣) تفسير القرطبي ٨١/٢٠.

(٤) البحر المحيط ٤٨٣/٨.

(٥) تفسير الشوكاني ٤٥٢/٥.

(٦) تنمة أضواء البيان ٢٥٤/٩-٢٥٥.

والأنثى» نقل آحاد مخالف للسواد فلا يعد قرآنا» اهـ (١).

وقال ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) معلقا على قراءة أبي الدرداء وابن مسعود: «لعل هذا مما نسخت تلاوته ولم يبلغ النسخ أبا الدرداء ومن ذكر معه، والعجب من نقل الحفاظ الكوفيين هذه القراءة عن علقمة وابن مسعود وإليهما تنتهي القراءة بالكوفة ثم لم يقرأ بها أحد منهم، وكذا أهل الشام حملوا القراءة عن أبي الدرداء ولم يقرأ أحد منهم بهذا، فهذا مما يقوي أن التلاوة بها نسخت» اهـ (٢).

قلت : هذا الذي أورده الحافظ رحمه الله ممكن، لكن الأصل عدمه، فلا يثبت إلا بدليل، وهناك احتمال آخر وهو عدم النسخ، ولم تشتهر هذه القراءة ولم يُقرأ بها لأنها لم تكن من الحرف الذي جمع عثمان رضي الله عنه الناس عليه.

قال الألويسي (ت ١٢٧٠هـ): «وأنت تعلم أن هذه قراءة شاذة منقولة آحادا، لاتجوز القراءة بها لكنها بالنسبة إلى من سمعها من النبي عليه الصلاة والسلام في حكم المتواتر تجوز قراءته بها» اهـ (٣).

قلت : هذا من جهة السند، أما من جهة المعنى فالأمر قريب ولا تعارض بين القراءتين، سواء كان القسم بالخالق سبحانه أو خلقه الذكر والأنثى أو القسم بالذكر والأنثى ذاتهما، وهذه معان متكررة كثيرا في القرآن الكريم أي: يقسم الله بذاته أو بصفة من صفاته أو بشيء من خلقه كالليل والنهار في نفس السورة والله أعلم.

(١) البحر المحيط ٤٨٣/٨.

(٢) فتح الباري ٧٠٧/٨.

(٣) روح المعاني ١٨٨/٣٠.

الموضع الثامن والتسعون :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سَيْنِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ. لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ التين: ١-٤.
هكذا قرأ عامة القراء العشرة: ﴿سَيْنِينَ﴾.

وقرأ عمر بن الخطاب (١) و عبد الله و طلحة و أبو الدرداء والحسن: «سيناء» بكسر السين والمد (٢).

وقرأ عمر أيضا وزيد بن علي وسعد بن أبي وقاص وأبو العالية وأبو مجلز بفتح السين والمد: «سيناء» (٣).

أخرج عبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف والدارقطني في الأفراد عن عمرو بن ميمون قال: «صليت خلف عمر بن الخطاب المغرب فقرأ في الركعة الأولى «والتين والزيتون وطور سيناء».

قال : وهكذا هي في قراءة عبد الله. وقرأ في الركعة الثانية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١] و ﴿لَا يَلَافُ قُرَيْشٌ﴾ [سورة قريش: ١] جمع بينهما ورفع صوته؛ فقدرت أنه رفع صوته تعظيما للبيت» (٤).

وقرأ ابن أبي إسحاق وعمرو بن ميمون وأبو رجاء بفتح السين: «سَيْنِينَ» (٥).

معنى القراءات :

اختلف في معنى «سَيْنِينَ» على أقوال:

الأول : أنه بمعنى الحسن أي: الجبل الحسن.

الثاني : أنه المبارك، أي: الجبل المبارك.

الثالث : أنه اسم حجارة بعينها، أضيف الجبل إليها لوجودها عنده.

الرابع : أنه الجبل المشجر.

الخامس : أنه سيناء اسم المكان الذي به هذا الجبل وهذا

أصح الأقوال، وتؤيده قراءة: «سيناء» (٦).

(١) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١٢٨.

(٢) زاد المسير ١٧٠/٩ البحر المحيط ٤٩٠/٨.

(٣) ماسبق .

(٤) الدر المنثور ٥٥٦/٨ كنز العمال ٥٩١/٢-٥٩٢.

(٥) البحر المحيط ٤٨٩/٨-٤٩٠.

(٦) زاد المسير ٤٦٦/٥.

حاصل القراءات :

أن الله عزوجل أقسم بالجبل الذي في سيناء (١) ولا مانع من أن يكون مباركاً حسناً مشجراً، فيكون المعنى الجبل المبارك الحسن المشجر الذي بسيناء.

قال الطبري (ت ٣١٠هـ): «والصواب من القول في ذلك أن يقال: أن «سيناء» اسم أضيف إليه الطور، ويعرف به كما قيل: جبلاً طياً، فأضيفاً إلى طياً».

ولو كان القول في ذلك كما قال من قال: معناه جبل مبارك، أو كما قال من قال: معناه الحسن؛ لكان «الطور» منوناً، وكان قوله: «سيناء» من نعته.

على أن «سيناء» بمعنى مبارك، حسن، غير معروف في كلام العرب، فيجعل ذلك من نعت الجبل، لكن القول في ذلك - إن شاء الله - كما قال ابن عباس، من أنه جبل عرف بذلك، وأنه الجبل الذي نودي منه موسى ﷺ، وهو مع ذلك مبارك، لا أن معنى سيناء معنى مبارك (٢)هـ.

(١) سيناء بكسر أوله ويفتح اسم موضع بالشام يضاف إليه الطور فيقال: طور سيناء، وهو الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، ونودي فيه وهو كثير الشجر. معجم البلدان ٣/٣٠٠.

وقال البكري في (معجم ما استعجم) ٣/٨٩٧: «الطور جبل بيت المقدس، ممتد ما بين مصر وأيلة...»هـ.

قال أبوالبقاء العكبري (ت ٦١٦هـ): «سيناء هو اسم جبل معروف، فإذا فتحت السين كانت همزته للتأنيث البتة لبطلان كونها لللاحق والتكثير؛ لأن «فعلاً» لم يأت في غير المضاعف كـ «الزلزال والقلقال»، ويجوز كسر السين، فعلى هذا تكون الياء فيه زائدة ويكون على «فيعال» مثل ديباج وديماس.

وقد تكون الياء أصلية ويكون كـ «علياء» في كون الهمزة لللاحق.

فإن قلت: فلم لم ينصرف؟ قلت: لاجتماع التعريف والتأنيث لأنها اسم بقعة، وهو مثل دمشق في تأنيثها بغير علامة»هـ. انظر معجم البلدان ٣/٣٠٠ وقارن بـ «املاء مامن به الرحمن» ٢/١٤٨.

قلت: وقد جاء في اسم هذا الموضع «سينين» كما في سورة التين: ﴿طور سينين﴾ وليس في كلام العرب اسم مركب من [س. ي. ن] إلا في قول الحرف: «سين». معجم البلدان ٣/٣٠٠ وانظر المعرب للجواليقي ص ٣٩٢-٣٩٣ ودائرة المعارف الإسلامية ١٥/٣٢٣-٣٢٧.

(٢) تفسير الطبري (دارالفكر) ١٨/١٤، ٣٠/٢٤١.

وتلاحظ الأمور التالية :

- (١) وردت كلمة «طور سيناء» في موضع آخر من القرآن العظيم غير سورة التين، وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكليم﴾ المؤمنون: ٢٠.
- (٢) القراءة «سينين» بفتح السين هي لغة بكر وتميم(١).

(١) البحر المحيط ٤٩٠/٨.

الفصل الثالث : في القراءات التي أزال الإشكال عن معنى الآية.

يتضمن هذا الفصل الآيات التي أنتج تنوع القراءات فيها رفع اشكال متوهم في معنى الآية.
وقد رتبها على حسب ورودها في المصحف الشريف، وعدد المواضع ستة مواضع.

الموضع الأول :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ، قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ المائدة: ١١٢.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ :
فقرأ الكسائي: ﴿تَسْتَطِيعُ﴾ بالخطاب، ﴿ربك﴾ بالنصب.
وقرأ باقي العشرة: ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ بالغيب، ﴿ربك﴾ بالرفع (١).
معنى القراءات :

قراءة الكسائي معناها: هل تقدر يا عيسى أن تسأل ربك؟ هل تفعل ذلك لنا؟. وهذا كما تقول للرجل: هل تستطيع أن تكلمني، وقد علمت أنه مستطيع لذلك؛ وإنما معناها: افعل ذلك (٢).

ومعنى قراءة باقي العشرة أي: هل يستجيب لك ربك إن سألته ذلك؟ (٣).
فهم كانوا عالمين باستطاعة الله وقدرته على ذلك وغيره.
حاصل القراءات :

بينت القراءة بالخطاب ونصب كلمة ﴿ربك﴾ المراد من القراءة بالغيبة وضم كلمة ﴿ربك﴾، ونفت توهم واشكال قد يفهم منها؛ وذلك أن القراءة بالغيبة وضم ﴿ربك﴾ قد يفهم منها أنه سؤال شك في قدرة الله سبحانه وتعالى، وهذا ينافي الايمان الذي أثبتته الله تعالى للحواريين في الآية قبلها إذ سياق الآية هكذا: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتَ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي. قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ...﴾ فكيف يكون سؤالهم سؤال شك في قدرة الله وهم مؤمنون؟ (٤).

بل سؤالهم كان لعيسى هل يقدر أن يسأل ربه، كما دلت على ذلك قراءة الكسائي، ولا إشكال والحمد لله رب العالمين.
وتلاحظ الأمور التالية :

(١) هذا التقرير الذي دلت عليه الآية بالقراءتين روي عن عائشة

(١) المبسوط ص ١٦٥ النشر ٢/٢٥٦.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣٢٥/١ الكشف ٤٢٢/١.

(٣) الكشف ٤٢٢/١-٤٢٣ حجة القراءات ص ٢٤٠-٢٤١.

(٤) ماسبق .

رضي الله عنها قالت: «كان الحواريون أعلم بالله من أن يقولوا: هل يستطيع ربك، إنما قالوا: هل تستطيع أنت ربك؟ هل تستطيع أن تدعوه؟» (١).

(٢) اختار ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) أن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ...﴾ المائدة: ١١٢ من صلة قوله تعالى في الآية قبلها: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي، قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ المائدة: ١١١، وأن تقدير معنى الآية: وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي، إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك؟.

قال الطبري (ت ٣١٠هـ): «فبين إذ كان ذلك كذلك أن الله تعالى ذكره قد كره منهم ما قالوا من ذلك واستعظمه وأمرهم بالتوبة ومراجعة الايمان من قيلهم ذلك، والاقرار لله بالقدرة على كل شيء، وتصديق رسوله فيما أخبرهم عن ربهم من الأخبار، وقد قال عيسى لهم عند قيلهم ذلك له استعظاما منه لما قالوا: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢].» (٢) اهـ قلت: ويلاحظ أن الطبري - رحمه الله - أثبت شك الحواريين في قدرة الله حين سألوا ذلك السؤال، وأنه فهم السؤال على ظاهره في قراءة الجمهور وأنه مع إثباته شك الحواريين لم ينف كونهم قبل السؤال مؤمنين وذلك يؤخذ من قوله رحمه الله: «وأمرهم بالتوبة ومراجعة الايمان من قيلهم ذلك...» ووجه هذا المعنى الذي اختاره بأن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ...﴾ من صلة قوله ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ...﴾.

أقول: إذا صح ما اختاره ابن جرير رحمه الله فيمكن أن يقال: لعل هذا صدر منهم قبل أن يتمكن الايمان في قلوبهم، أو كما قال بعض المفسرين: «قال الحواريون ذلك في صدر الأمر قبل علمهم بآيات عيسى عليه السلام بأنه يبريء الأكمه والأبرص ويحي الموتى» (٣).

(١) إسناده ضعيف.

أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (شاکر) ٢١٩/١١ وفي السند عنده ابن وكيع وهو سفيان بن وكيع بن الجراح قال في التقريب ص ٢٤: «كان صدوقا إلا أنه ابتلي بوراقه، فأدخل عليه مالميس من حديثه فنصح فلم يقبل فسقط حديثه» اهـ قلت: فالأثر ضعيف بهذا السند.

وعزاه في الدر المنثور ٢٣١/٣ إلى ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٢) تفسير الطبري (شاکر) ٢٢٠/١١.

(٣) نقله في البحر المحيط ٥٣/٤.

ويؤيد هذا أن في سؤالهم بعض تعنت، وفي قولهم: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ سؤال أدب إذ لم يقولوا: ياروح الله أو يارسول الله، وفي قولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ سؤال أدب (١) لا يتناسب مع كونهم أنصار عيسى عليه السلام والله أعلم.

(٢) اختار الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) أن الذين قالوا تلك المقالة لم يكونوا مؤمنين ببناء على ظاهر قراءة الجمهور فقال: «إن قلت: كيف قالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ بعد إيمانهم واخلاصهم؟ قلت: ما وصفهم الله بالإيمان والاخلاص، وإنما حكى ادعاءهم لهما ثم اتبعه قوله: ﴿إِنْ قَالُوا...﴾ فآذن أن دعواهم كانت باطلة وأنهم كانوا شاكين، وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ...﴾ كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم، وكذلك قول عيسى عليه السلام لهم معناه: اتقوا الله ولا تشكوا في اقتداره واستطاعته ولا تقترحوا عليه، ولا تحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها» اهـ (٢).

قلت : ولم يرتض أبوحيان (ت ٥٤٧هـ) رحمه الله هذا فتعقبه بقوله: «أما غير الزمخشري من أهل التفسير فأطبقوا على أن الحواريين كانوا مؤمنين حتى قال ابن عطية (ت ٥٤١هـ) لا خلاف أحفظه في أن الحواريين كانوا مؤمنين... قال ابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ) لا يجوز لأحد أن يتوهم أن الحواريين شكوا في قدرة الله، وإنما هذا كما يقول الانسان لصاحبه: هل تستطيع أن تقوم معي، وهو يعلم أنه مستطيع له ولكنه يريد هل يسهل عليك. انتهى.

وقال الفارسي (ت ٣٧٧هـ): معناه: هل يفعل ذلك بمسألتك إياه» اهـ (٣). قلت : ولعل خير جواب عن ظاهر الآية على قراءة الجمهور أن يقال: إن قراءة الكسائي - وهي متواترة - بينت المراد في قراءة الجمهور، ورفعت الإشكال المحتمل فيها، والله أعلم.

(٣) قال السيوطي (ت ٩١١هـ) رحمه الله: «نفي الاستطاعة قد يراد به نفي القدرة والإمكان، وقد يراد به نفي الامتناع، وقد يراد به الوقوع بمشقة وكلفة.

من الأول ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ [سورة يس: ٥٠] ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

(١) النهر الماد من البحر ٥٣/٤.

(٢) تفسير الزمخشري ٣٧٢/١.

(٣) البحر المحيط ٥٣/٤.

رَدَّهَا ﴿ [الأنبياء: ٤٠] ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾
[الكهف: ٩٧].

ومن الثاني ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ [المائدة: ١١٢] على القراءتين أي: هل يفعل، أو هل تجيبنا إلى أن تسأل، فقد علموا أنه قادر على الإنزال، وأن عيسى قادر على السؤال.

ومن الثالث ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٦]. «اهـ (١)». قلت : وهذا الذي قرره السيوطي من معنى نفي الاستطاعة في آية المائدة تؤيده القراءة الثانية التي ذكرت هنا وبالله التوفيق.

(١) الإتيان (أبوالفضل) ٢٣١/٣-٢٣٢.

الموضع الثاني :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَتُبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ، قَالَ: عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءَ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف: ١٥٦.

هكذا قرأ عامة القراء العشرة .

وقرأ الحسن وزيد بن علي وطاووس وعمرو الأسواري: «أصيب به من أساء» (١).

معنى القراءات :

قراءة عامة القراء العشرة: «أصيب به من أشاء» معناها: إن الله عزوجل يصيب بعذابه من يشاء، لا يملك أحد أن يرد ما أراد الله، وهذا الأمر مقرر عند أهل السنة ومحاط بأن الله تعالى لا يظلم عباده، وأنه سبحانه لا يعذب أحدا إلا بما جناه واجترمه على نفسه؛ فهو سبحانه الملك العليم الحكيم (٢).

ومعنى القراءة الشاذة: «أصيب به من أساء» من الاساءة أي: أصيب بعذابي الذين أساءوا، وفيها بيان لعلة استحقاق الاصابة بعذاب الله عزوجل (٣).

حاصل القراءات :

القراءة المتواترة فيها إيهام أن عذاب الله يصيب من يشاء من عباده أساء أو لم يسء، والقراءة الشاذة أزالته هذا الإيهام ودفعته بأن بينت أن الآية تدل بالقراءتين على أن عذاب الله يصيب به من يشاء ممن أساء. ويلاحظ مايلي :

(١) أن القراءة المتواترة إنما توهم هذا المعنى بالنظر إليها مجردة عن النصوص الأخرى المقررة لعدله سبحانه وحكمته وعلمه .

(٢) قال أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) عن القراءة بـ «عذابي أصيب به من أساء» بالسين غير المعجمة: «لا تصح هذه القراءة عن الحسن وطاووس، وعمرو بن فائد رجل سؤ، وقرأ بها سفيان بن عيينة مرة واستحسنها فقام إليه

(١) المحتسب ٢٦١/٢ زاد المسير ٢٧٠/٣ البحر المحيط ٤٠٢/٤ .

(٢) ماسبق .

(٣) المحتسب ٢٦١/٢ .

عبدالرحمن المقرئ وصاح به واسمعه. فقال سفيان: لم أدر ولم أفطن لما يقول أهل البدع» اهـ (١).

قال أبوحيان الأندلسي (ت ٧٥٤هـ): «للمعتزلة تعلق بهذه القراءة من جهة إنفاذ الوعيد، ومن جهة خلق المرء أفعاله وإن أساء لا فعل فيه لله تعالى، والانفصال عن هذا كالاتصال عن سائر الظواهر» اهـ (٢). قلت: وقد ذكر أن الشافعي رحمه الله (ت ٢٠٤هـ) اختار هذه القراءة (٣) والله أعلم.

(١) انظر البحر المحيط ٤/٤٠٢.

(٢) ما سبق.

(٣) تفسير الرازي ١٥/٢١.

الموضع الثالث :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تَخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ سورة طه: ٩٧.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾:

فقرأ أبو جعفر باسكان الحاء وتخفيف الراء، واختلف راوياه فابن وردان بفتح النون وضم الراء وافقه الأعمش، وابن جمار بضم النون وكسر الراء وافقه الحسن.

وقرأ باقي العشرة بضم النون وفتح الحاء وكسر الراء مشددة، وافقهم ابن محيصن واليزيدي (١).

معنى القراءات :

القراءة بتشديد الراء والقراءة بكسر الراء مخففة من الحرق بالنار، وفي التشديد معنى التكرار، أي: نحرقه مرة بعد مرة (٢).

القراءة بضم الراء من حرقت الحديد إذا برده فتحات وتساقط والمعنى: لنحرقنه، أي: لنبردنه ولنحتنه حتا ثم لننسفه في اليم نسفا (٣).

حاصل القراءات :

في الآية بقراءة الجمهور اشكال؛ إذ كيف يحرق العجل وينسف في اليم نسفا وهو من ذهب؟ ولدفع هذا الإشكال أقول: أفادت الآية بالقراءتين أن موسى عليه الصلاة والسلام توعّد العجل بأن يحرقه بالنار حرقا شديداً، ويبرده بالمبرد حتى يتحات ويتساقط ثم يذروه في البحر فيضيع فيه. ويلاحظ مايلي :

قال أبو حيان (ت ٧٥٤هـ): «في مصحف أبي وعبد الله: «لنذبحنه ثم لنحرقنه ثم لننسفه» وتوافق هذه القراءة من روى أنه (أي: العجل) صار لحما ودما ذا روح، ويترتب الاحراق بالنار على هذا، وأما إذا كان جماداً مصوغاً من الحلي فيترتب برده لا احراقه، إلا أن عني به إذا بته. وقال السدي : أمر موسى بذبح العجل فذبح وسال منه الدّم، ثم احرّق ونُسِفَ رماده.

وقيل : بُرِدَتْ عِظَامُهُ بِالْمِبْرَدِ حَتَّى صَارَتْ بَحِيثَ يُمْكِنُ نَسْفُهَا» اهـ (٤).

(١) المبسوط ص ٢٥٠ النشر ٣٢٢/٢ الاتحاف ص ٣٠٧.

(٢) معاني القرآن وأعرابه للزجاج ٣٧٥/٣.

(٣) المحتسب ٥٨/٢.

(٤) البحر المحيط ٢٧٦/٦.

الموضع الرابع :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ النور: ٦٠.

هكذا قرأ عامة القراء العشرة: ﴿أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس: «فليس عليهن جناح أن يضعن جلابيهن غير متبرجات» (١).

معنى القراءات :

الثياب في قراءة العامة اسم عام يشمل كل ما يلبس، وسياق الآية يدل أن المراد بالثياب ما تلبسه المرأة فوق ملابسها عند لقاء الأجانب. قراءة ابن مسعود وابن عباس: «جلابيهن» الجلاب هو القميص ويطلق على الثوب المشتمل على الجسد كله وعلى الخمار وعلى ما يلبس فوق الثياب كالملحفة وعلى الملاعة تشتمل بها المرأة (٢) والمراد هنا هذه المذكورات في الآخر.

حاصل القراءات :

بينت هذه القراءة الشاذة عن ابن عباس وابن مسعود أن المراد بالثياب لا كل الثياب ولكن ما تشتمل به المرأة وتلبسه فوق الثياب العادية التي تلبسها في بيتها، فحاصل القراءات أنها بينت المراد ودفعت إشكال قد يرد من معنى متوهم.

فهنا القراءة السادة دفعت الإشكال عن معنى القراءة المتواترة والله أعلم.

(١) الدر المنثور ٢/٢٢٢.

(٢) عمدة الحفاظ ص ٩٦.

الموضع الخامس :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ الطور: ٢١.
تنوعت قراءات القراء في قوله: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ﴾:

فقرأ أبو عمرو بقطع الهمزة وفتحها واسكان التاء والعين ونون وألف بعدها، ووافقه اليزيدي.

وقرأ سائر العشرة بوصل الهمزة وتشديد التاء وفتح العين وتاء ساكنة بعدها، ووافقهم الحسن وابن محيصن والأعمش (١).

معنى القراءات :

معنى قراءة الجمهور اخبار من الله تعالى عن ذرية المؤمنين أنها تتبع أباؤها في الإيمان (٢)، لكن هل هذا يشمل كل ذرية الذين آمنوا أم لا؟ ليس في القراءة ما يبين ذلك.

قراءة أبي عمرو معناها: إخبار من الله تعالى عن نفسه أنه يوفق من يشاء من ذرية المؤمنين الى الإيمان بمثل إيمانهم ويخذل من يشاء فلا يوفقه إلى الإيمان (٣)، فبينت هذه القراءة المجمل في قراءة الجمهور.

واختلف المفسرون في هذا على ثلاثة أقوال :

الأول : أن معناها: ألحقنا بهم ذرياتهم من المؤمنين في الجنة وان كانوا لم يبلغوا أعمال آبائهم، تكرمة من الله تعالى لابائهم المؤمنين باجتماع أولادهم معهم، روى هذا المعنى ابن جبير عن ابن عباس .

الثاني : أن معناها: بلغت أن آمنت ألحقنا بهم ذرياتهم الصغار الذين لم يبلغوا الإيمان، وروى العوفي هذا عن ابن عباس وبه قال الضحاك، ومعنى هذا القول أن أولادهم الكبار تبعوهم بإيمان منهم، وأولادهم الصغار تبعوهم بإيمان الآباء؛ لأن الولد يحكم له بالاسلام تبعا لوالده.

الثالث : واتبعناهم ذرياتهم بإيمان الآباء فأدخلناهم الجنة، وهذا مروى عن ابن عباس أيضا (٤).

(١) المبسوط ص ٣٥١ النشر ٣٧٧/٢ الاتحاف ص ٤٠٠.

(٢) الكشف ٢٩٠/٢.

(٣) ماسبق .

(٤) زاد المسير ٥٠/٨ - ٥١.

حاصل القراءتين :

في قراءة الجمهور إجمال قد يتوهم منه أن ذرية الذين آمنوا تتبع أباؤها في الايمان؛ فينتج عن ذلك إشكال إذ ليس كل من آمن اتبعته ذريته بإيمان، فبينت قراءة أبي عمرو هذا الإجمال وزال الإشكال. بينت قراءة أبي عمرو أن المقصود في الآية من وفقه الله من ذرية المؤمنين إلى الايمان بمثل ايمان آبائهم. ولذلك قال مكي بن أبي طالب (ت ٣٧٤هـ): «ولولا الجماعة لكانت القراءة الأولى (يعني: قراءة أبي عمرو) أحب إلي لصحة معناها؛ ولأنه ليس كل من آمن اتبعته ذريته بإيمان، إنما ذلك إلى الله يوفق من يشاء من ذرية المؤمنين إلى الايمان بمثل إيمانهم ويخذل من يشاء فلا يوفقه إلى الايمان» اهـ (١).

الموضع السادس :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الجمعة: ٩.

هكذا قرأ عامة القراء العشرة هذه الآية.

وقرأ عمر بن الخطاب وابن مسعود وأبي بن كعب (١) وابن عمر وابن عباس وابن الزبير وأبو العالية والسلمي ومسروق وطاوس وسالم بن عبد الله وطلحة: «فامضوا إلى ذكر الله» (٢).

معنى القراءات :

قراءة عامة القراء فيها: ﴿فَاسْعَوْا﴾ وظاهره وجوب السعي وأنه يكون في المشي خفة وسرعة (٣) لأن السعي عدو دون الشد من سعى يسعى سعياً (٤).

القراءة الشاذة: «فامضوا» أي: امشوا دون سرعة.

حاصل القراءات :

قراءة عامة القراء فيها إيهام حيث قال: ﴿فَاسْعَوْا﴾ وهذا يخالف ما جاء عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون، وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا» (٥). وبينت القراءة الشاذة المراد من السعي في القراءة المتواترة وأنه السعي القلبي، بمعنى اهتموا بها وانشغلوا بها وأقبلوا عليها فلا تفوتكم، فبينت أن «السعي» يقصد به «المضي»، لأن «المضي» ليس من مدلوله السرعة (٦).

ففي التعبير بـ﴿فَاسْعَوْا﴾ مكان «فامضوا» تنبيه إلى أن المطلوب وقت سماع النداء للجمعة الإقبال بالنية والإرادة والعمل والخشوع والسكينة

(١) سبق تخريج هذه القراءة عنهم ص ١٤٥-١٤٦.

(٢) المحتسب ٣٢١/٢-٣٢٢.

(٣) البحر المحيط ٢٦٨/٨.

(٤) حديث صحيح .

أخرجه البخاري في كتاب الأذان باب لا يسعى إلى الصلاة حديث رقم (٦٣٦) ومسلم في كتاب المساجد باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة.. حديث رقم (٦٠٢) واللفظ له.

(٥) النشر ٢٩/١ مناهل العرفان ١٤١/١.

(٦) لسان العرب ٣٨٥/١٤.

في المشي إليها، وهذا ما فهمه السلف رضوان الله عليهم قال الحسن البصري في هذه الآية: «أما والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نُهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، لكن بالقلوب والنية والخشوع» (١).

قال قتادة في هذه الآية أيضا: «فالسعي أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها» (٢).

قال مالك بن أنس: «وإنما السعي في كتاب الله العمل والفعل، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٠٥] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى. وَهُوَ يَخْشَى﴾ [عبس: ٨] وقال: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى﴾ [النازعات: ٢٢] وقال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ٤].

قال مالك: فليس العمل الذي ذكر الله في كتابه بالسعي على الأقدام، ولا الاشتداد، وإنما عني العمل والفعل» اهـ (٣).

وقرر الشافعي ما قاله مالك رحمهما الله (٤).

وتلاحظ الأمور التالية :

(١) أن الآية على القراءة المتواترة فيها قرينة تدل على أنه لا يقصد بـ «السعي» سرعة المشي، وتتلخص هذه القرينة في تعدية الفعل «سعى» بحرف الجر «إلى».

قال ابن منظور (ت ٧١١هـ): «وسعى إذا مشى، وسعى إذا عمل، وسعى إذا قصد، وإذا كان بمعنى المضي عدي بـ «إلى» وإذا كان بمعنى العمل عدي باللام، والسعي القصد» اهـ (٥).

(٢) حمل القرطبي (ت ٦٧١هـ) وأبوحيان (ت ٧٥٤هـ) هذه القراءة الشاذة على أنها قراءة تفسيرية.

قال القرطبي بعد إيرادهِ للآثار التي ذكرت هذه القراءة: «وهو كله

(١) ابن أبي شيبه في المصنف ١٥٧/٢.

وعزاه السيوطي في الدر المنثور ١٦٢/٨ إلى سعيد بن منصور وابن أبي شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) تفسير الطبري (دار الفكر) ١٠٠/٢٨.

وعزاه في الدر المنثور ١٦٢/٨ إلى عبد بن حميد والبيهقي في الشعب.

(٣) موطأ مالك (عبد الباقي) ١٠٧/١.

(٤) الأم ١٩٦/١.

(٥) لسان العرب ٣٨٥/١٤.

تفسير منهم لا قراءة قرآن منزل، وجائز قراءة القرآن بالتفسير في معرض التفسير» اهـ (١).

قال أبوحيان عن ذلك أيضا: «وينبغي أن يحمل على التفسير من حيث أنه لا يراد بالسعي هنا الإسراع في المشي، ففسروه بالمضي، ولا يكون قرآنا لمخالفته سواد ما أجمع عليه المسلمون» اهـ (٢).

قلت : الذي يظهر - والله أعلم - أنه لا يصح الجزم بقرآنيته لمخالفتها للرسم، كما لا يصح الجزم بعدم قرآنيته لاحتمال أن تكون من الأحرف التي لم يجمع عليها عثمان رضي الله عنه الناس عليها، وعلى كل حال فإنه يستفاد منها في التفسير، والله أعلم .

أما ماورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قيل له: «إن أبي يقرأها: ﴿فَاسْعُوا﴾ قال: أما إنه أقرؤنا واعلمنا بالمنسوخ، وإنما هي «فامضوا»؛ فإنه لم يصح عنه بهذا السياق (٣).

(١) تفسير القرطبي ١٠٢/١٨ .

(٢) البحر المحيط ٢٦٨/٨ .

(٣) إسناده ضعيف بهذا السياق .

أخرجه الطبري (دار الفكر) ١٠٠-٩٩/٢٨ من طريق إبراهيم النخعي عن عمر . قلت : إبراهيم لم يلق عمر كما نص على ذلك ابن أبي حاتم في كتاب «المراسيل» ص ١٨-١٧ .

وأخرج ابن أبي شيبة في مصنفه ١٥٧/٢ من طريق مغيرة عن إبراهيم عن خرشة نحوه مختصرا على ذكر قراءة عمر فقط دون ذكر نسخ القراءة .

قلت : مغيرة هو ابن مقسم ثقة متقن إلا أنه كان يدلس عن إبراهيم كما قال ابن حجر في التقریب ص ٥٤٣ .

ويلاحظ : أن هذا الطريق قد يعضد الأول فيرقيه إلى مرتبة الحسن لغيره، ولكن بدون قول عمر بنسخ القراءة المتواترة، فيبقى على حاله من الضعف والله أعلم .

وعزى هذا الأثر في كنز العمال ٩٢/٢ من طريق خرشة بن الحر عن عمر إلى أبي عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف .

في هذا الأثر بهذا السياق نكارة في المتن، إذ كيف تكون هذه القراءة ﴿فَاسْعُوا﴾ منسوخة ثم يجمع عليها الصحابة، ثم لم أثبتها عمر في المصحف الذي كان عنده، ثم عند حفصة ابنته ومنها أخذه عثمان ونسخ المصحف، وبالله التوفيق .

الباب الثالث

القراءات المتعلقة بالعموم والإطلاق والإجمال

ويشتمل على ثلاثة فصول :

- الفصل الأول : في القراءات المتعلقة بالعموم .
- الفصل الثاني : في القراءات المتعلقة بالإطلاق .
- الفصل الثالث : في القراءات المتعلقة بالإجمال .

يشتمل هذا الباب على القراءة العامة الدلالة التي جاء ما يخصها في قراءة أخرى، أو ما يخص بعض أفرادها بالذكر، أو ما يبين أنها عامة أريد بها الخصوص، كما يشتمل على القراءة المطلقة التي جاء ما يقيد بها في قراءة أخرى، ويشتمل على القراءة المجملة التي جاء ما يبين المراد منها في قراءة أخرى.

وبناء على هذا التقسيم فقد قسمت هذا الباب على ثلاثة فصول كما يلي :

الفصل الأول : في القراءات المتعلقة بالعموم .

يتضمن هذا الفصل الآيات التي أنتج اختلاف القراءات ما سبيله في مباحث العموم، كالقراءة العامة التي خصت بعض أفراد العام بالذكر، أو القراءة العامة التي ورد في قراءة أخرى ما يبين أن المراد بها الخصوص، وقد سقت المواضع حسب ورودها في المصحف الشريف، وعددها ثلاثة عشر موضعا.

وقد مهدت لهذا الفصل بالتمهيد التالي :

تمهيد : في تعريف العموم .

ويتضمن النقاط التالية :

(١) العام في اللغة والاصطلاح .

(٢) معنى التخصيص .

(٣) أنواع العام .

وإليك البيان :

(١) العام في اللغة والاصطلاح .

العام في اللغة من عم يعم إذا شمل الجميع، تقول عمهم الأمر يعمهم
عموما أي: شملهم يقال عمهم بالعطية (١) أي: شملهم بها فردا فردا .
العام في اصطلاح الأصوليين: اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له
بحسب وضع واحد، دفعة بلا حصر (٢).

فخرج بقولهم: «مستغرق لجميع ما يصلح له» مالم يستغرق نحو قولك: بعض
الحيوان انسان.

وخرج بقولهم: «بحسب وضع واحد» المشترك اللفظي كـ «العين» فلا يسمى
عاما بالنسبة الى شموله الجارية والباصرة؛ لأنه لم يوضع لهما وضعاً واحداً
بل لكل منهما وضع مستقل.

وخرج بقولهم: «دفعة» ما كان عمومه بدلي لا دفعي شمولي كما في عموم
المطلق فإنه بدلي كالنكرة في سياق الاثبات تقول: «شاهدت رجلاً» فكلمة «رجل»
مستغرقة، ولكن استغراقها بدلي لا دفعة واحدة فهي تصدق على أي رجل،
ولكنها لا تتناول أكثر من واحد منهم دفعة واحدة.

وخرج بقولهم: «بلا حصر» لفظ عشرة مثلاً؛ فإنه محصور باللفظ فلا يكون من
صيغ العموم على رأي الأكثرين.

(١) معجم مقاييس اللغة ١٨/٤ لسان العرب ٤٢٦/١٢ .

فائدة : انظر حول العموم والخصوص والألفاظ العربية في «الصاحبي»
ص ٣٤٤ وما بعدها، وفي «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» ٤٢٦/١ وما بعدها .

(٢) حرر هذا التعريف الشنقيطي في مذكرة أصول الفقه ص ٢٠٣ .

وانظر روضة الناظر ص ١٩٤ وأحكام الآمدي ٢٨٦-٢٨٨ تفسير النصوص ٩/٢-١١ .

(٢) معنى التخصيص :

في اللغة من خص يخص ، تقول: خصه بالشئ يخصه أفرد به دون غيره(١).

وفي اصطلاح الأصوليين: تخصيص العام قصره على بعض أفراده بدليل متصل أو منفصل(٢).

(٣) أنواع العام :

العام ثلاثة أنواع :

الأول : العام الباقي على عمومته .

كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ هود:٦، فكلمة ﴿دَابَّةٍ﴾ نكرة في سياق النفي تفيد العموم، ولا مخصص لدلالة الآية. وكقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ...﴾ النساء:٢٣؛ فكلمة ﴿أُمَّهَاتُكُمْ﴾ جمع مضاف يفيد العموم فأمر كل واحد محرمة عليه، ولا مخصص لدلالة الآية.

الثاني : العام المراد به الخصوص .

كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ آل عمران:١٧٣ فمن المعلوم بضرورة العقل أن المراد بكلمة ﴿الناس﴾ لا كل الناس منذ فجر البشرية، وإنما المراد ناسا معينين.

الثالث : العام المخصص .

كقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ العصر:١-٣، فكلمة ﴿الْإِنْسَانَ﴾ معرف بآل للاستغراق، أي: كل إنسان في خسر، وجاء الاستثناء فخصص من الوقوع في الخسران الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر(٣).

وبعد هذه المقدمة أسوق هنا المواضع التي جاءت على هذا السبيل، مراعيًا ترتيب المصحف الشريف وقد بلغ عددها ثلاثة عشر موضعا، وهذه المواضع هي التالية :

(١) لسان العرب ٢٤/٧.

(٢) التعريفات ص٥٣ وانظر الأحكام للآمدي ٤١٠-٤٠٧/٢.

(٣) الإتيقان (أبو الفضل) ٤٤/٣-٤٦ تفسير النصوص ١٠٢/٢-١٠٥ دراسات في القرآن الكريم ص١٧٩-١٨١.

الموضع الأول :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ، ثُمَّ أَتِمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرِبُوهَا، كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٨٧.

هكذا قرأ عامة القراء العشرة: ﴿وابتغوا ما كتب الله﴾.

وقرأ الحسن البصري والحسن بن قرة: «واتبعوا» من الاتباع ورويت عن ابن عباس(١).

عن عطاء بن أبي رباح قال: قلت لابن عباس: كيف تقرأ هذه الآية: ﴿وابتغوا﴾ أو «اتبعوا»؟ قال: أيتها شئت، قال: عليك بالقراءة الأولى(٢).

وقرأ الأعمش: «واتوا ما كتب الله لكم» وهي قراءة شاذة لمخالفتها رسم المصحف(٣).

معنى القراءات :

معنى القراءة المتواترة: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ من الابتغاء وفي المراد أقوال(٤):

الأول : ابتغوا الولد، يدل عليه أنه عقيب قوله: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ وقال بعض أهل العلم: لما كانت المباشرة قد تقع على ما دون الجماع أباحهم الجماع الذي يكون من مثله الولد فقال: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يريد الولد(٥).

قال أبوحيان (ت٤٥٧هـ): «لما أبيحت لهم المباشرة أمروا بطلب ما قسم الله لهم، و أثبتته في اللوح المحفوظ من الولد وكأنه أبيح لهم ذلك لا لقضاء

(١) تفسير القرطبي ٣١٨/٢ البحر المحيط ٥٠/٢ الدر المنثور ٤٧٩/١.

(٢) إسناده صحيح.

أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٧١/١ ومن طريقه أخرجه الطبري في تفسيره (شاکر) ٥٠٨/٣.

وعزاه في الدر المنثور ٤٧٩/١ إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٣) تفسير الزمخشري ١١٥/١ البحر المحيط ٥٠/٢.

(٤) زاد المسير ١٩٢/١ تفسير القرطبي ٣١٨/٢ البحر المحيط ٥٠/٢.

(٥) زاد المسير ١٩٢/١.

الشهوة فقط، لكن لابتغاء ما شرع الله النكاح له من التنازل» اهـ (١).
قلت : هذا قول ابن عباس ومجاهد والحكم بن عتيبة وعكرمة والحسن
والسدي والربيع والضحاك (٢).

الثاني : هو محل الوطء، أي: ابتغوا المحل المباح الوطء فيه
دون ما لم يكتب لكم من المحل المحرم لقوله تعالى: ﴿فَاتَوَّهْنَ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ
اللَّهُ﴾ البقرة: ٢٢٢.

الثالث : هو ما أباحه بعد الحظر، أي: ابتغوا الرخصة والإباحة
والتوسعة.

قلت : هذا قول قتادة وابن زيد، واستحسنه ابن عطية (ت ٥٤٢هـ) (٣).
الرابع : وابتغوا ليلة القدر.

قلت : روي هذا القول عن ابن عباس ومعاذ بن جبل (٤).
قال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): «وهو قريب من بدع التفاسير» اهـ (٥).
قلت : عدّه الكرمانى (توفي بعد ٥٠٠هـ) من عجائب التفسير (٦).
الخامس : هو القرآن، أي: ابتغوا القرآن فما أبيح لكم وأمرتم به
فهو المبتغى.

قلت : صحح هذا القول الزجاج (٧) (ت ٣١١هـ).
السادس : هو الأحوال والأوقات التي أبيح لكم المباشرة فيهن لأن
المباشرة تمتنع في الحيض والنفاس والعدة والردة.
السابع : هو الزوجة أو المملوكة كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ المؤمنون: ٦.
ومعنى القراءة الشاذة: «واتوا ما كتب الله لكم» أي: ابتغوا المحل
المباح الوطء فيه، والمعنى: افعلوا ما أذن الله لكم في فعله من غشيان
النساء في جميع ليلة الصيام (٨).
وقراءة الحسن: «واتبعوا ما كتب الله لكم» معناها: اتبعوا القرآن فما
أبيح لكم وأمرتم به فهو المبتغى.

-
- (١) البحر المحيط ٥٠/٢.
 - (٢) تفسير القرطبي ٣١٨/٢.
 - (٣) انظر تفسير القرطبي ٣١٨/٢.
 - (٤) زاد المسير ١٩٢/١.
 - (٥) تفسير الزمخشري ١١٥/١.
 - (٦) غرائب التفسير وعجائب التأويل ٢٠١/١.
 - (٧) معاني القرآن وأعرابه للزجاج ٢٥٦/١.
 - (٨) البحر المحيط ٥٠/٢.

حاصل القراءات :

القراءة الشاذة ترجح المعنى الأول والثاني من معاني القراءة المتواترة.

وقراءة الحسن ترجح المعنى الخامس من معاني القراءة المتواترة. ولا مانع من إرادة جميع هذه المعاني المذكورة في معنى القراءة المتواترة، وقراءة الحسن: «واتبعوا ما كتب الله لكم» تؤيد ذلك جميعه فهي على العموم.

ويلاحظ أن القراءة المتواترة ذكرت فرداً من أفراد العموم المستفاد من قراءة الحسن فلا تفيد التخصيص، لكن تفيد مزيد اهتمام بهذا الأمر الذي يدل عليه السياق وهو ابتغاء الولد، ويرجحه القراءة الشاذة: «واتوا ما كتب لكم».

قال أبوحيان (ت ٧٥٤هـ) بعد ذكر القول الخامس من معاني القراءة المتواترة: «... ويرجحه قراءة الحسن ومعاوية بن قرة: «واتبعوا» من الاتباع ورويت أيضا عن ابن عباس» اهـ (١).

وقال كذلك رحمه الله بعد ذكره أن معنى القراءة المتواترة: افعلوا ما أذن الله لكم في فعله من غشيان النساء في جميع ليلة الصيام قال: «ويرجح هذا قراءة الأعمش: «واتوا ما كتب الله لكم» وهي قراءة شاذة لمخالفتها سوار المصحف» اهـ (٢).

ويلاحظ مايلي :

قال أبو جعفر الطبري (٣١٠هـ) عند تفسيره لهذه الآية: «والصواب من القول في تأويل ذلك - عندي - أن يقال: إن الله تعالى ذكره قال: ﴿وَابْتَغُوا﴾ بمعنى اطلبوا ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني الذي قضى الله تعالى لكم.

وإنما يريد الله تعالى ذكره اطلبوا الذي كتبت لكم في اللوح المحفوظ انه يباح فيطلق لكم، وطلب الولد إن طلبه الرجل بجماعه المرأة، مما كتب الله له في اللوح المحفوظ، وكذلك إن طلب ليلة القدر فهو مما كتب الله له، وكذلك إن طلب ما أحل الله وأباحه فهو مما كتبه له في اللوح المحفوظ.

وقد يدخل في قوله: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ جميع معاني الخير المطلوبة، غير أن أشبه المعاني بظاهر الآية قول من قال معناه: وابتغوا ما

(١) البحر المحيط ٥٠/٢.

(٢) ماسبق .

كتب الله لكم من الولد؛ لأنه عقيب قوله: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ بمعنى: جامعوهن،
فلأن يكون قوله: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بمعنى: وابتغوا ما كتب الله في
مباشرتكم إياهن من الولد والنسل، أشبه بالآية من غيره من التأويلات التي
ليس على صحتها دلالة من ظاهر التنزيل، ولا خبر عن الرسول ﷺ اهـ (١).
قلت: ما قاله - رحمة الله عليه - من الأشبه بمعنى القراءة المتواترة
هو الظاهر، لكن ورود القراءة الأخرى يدل على باقي المعاني، وهي مقبولة
في التفسير على كل حال والله أعلم.

(١) تفسير الطبري (شاكر) ٥٠٨/٣-٥٠٩.

الموضع الثاني :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ البقرة: ١٩٨.

هكذا قرأها عامة القراء العشرة.

وقرأ ابن عباس وابن الزبير: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج» (١).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانت عكاظ ومجنة وزو المجاز أسواقا في الجاهلية، فلما كان الإسلام فكأنهم تأثموا فيه، فنزلت: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج». قرأها ابن عباس» (٢).

معنى القراءات :

تفيد القراءة المتواترة إباحة مطلق ابتغاء فضل الله (يعني: التجارة) في كل زمان ومكان دون تخصيص.

وتفيد القراءة الشاذة تخصيص بعض أفراد هذا العموم بالذكر وهو: «مواسم الحج»، وذكر بعض أفراد العموم لا يفيد تخصيص العام، إنما يفيد خصوصية هذا الفرد بمزيد اهتمام بالحكم المذكور والله أعلم.

حاصل القراءات :

القراءة المتواترة عامة والقراءة الشاذة خاصة إذ خصصت بعض أفراد القراءة المتواترة بالذكر اهتماما به، ولإزالة التأثم الذي شعر به بعض الصحابة من اتجارهم في الحج إذ كان محلا لأسواقهم في الجاهلية.

(١) البحر المحيط ٩٤/٢.

(٢) إسناده صحيح.

أخرجه البخاري في صحيحه في مواضع منها كتاب البيوع باب ماجاء في قول الله عزوجل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ [الجمعة: ١٠-١١] والسياق لهذا الموضع، وفي كتاب الحج باب التجارة أيام الموسم والبيع في أسواق الجاهلية.

وأخرجه أبوداود في كتاب الحج باب التجارة في الحج حديث رقم (١٧٣٢) وفي باب الكرى حديث رقم (١٧٣٤) والحاكم في المستدرک ٤٤٩/١، ٤٨١-٤٨٢ والبيهقي في السنن الكبرى ٣٣٣/٤-٣٣٤.

وأخرج هذه القراءة عن ابن عباس أبوعبيد في فضائل القرآن ص ٢٣٦ أثر رقم (٥٦٥) والطبري في تفسيره (شاكر) ١٦٥/٤، ١٦٦، ١٦٨ وابن أبي داود في المصاحف ص ٨٤.

ويلاحظ مايلي :

قال أبوحيان (ت٧٥٤هـ): «والأولى جعل هذا تفسيرا (يعني: قراءة ابن عباس) لأنه مخالف لسوار المصحف الذي أجمعت عليه الأمة» اهـ (١).
قال ابن حجر (ت٨٥٢هـ): «وقراءة ابن عباس: «في مواسم الحج» معدودة من الشاذ الذي صح اسناده وهو حجة وليس بقرآن» اهـ (٢).
وقال أيضا: «... فهي (يعني قراءة ابن عباس) على هذا من القراءة الشاذة، وحكمها عند الأئمة حكم التفسير» اهـ (٣).

(١) البحر المحيط ٩٤/٢.

(٢) فتح الباري ٢٩٠/٤.

(٣) ماسبق ٥٩٥/٣.

الموضع الثالث :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِحَيٍّ مُّصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ آل عمران: ٣٩.

هكذا قرأ عامة القراء العشرة.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿فَنَادَاهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ (١).

وقرأ ابن مسعود: «فناداه جبريل» (٢).

قال الطبري: «حدثني المثنى قال: حدثنا إسحاق بن الحجاج قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبي حماد: إن قراءة ابن مسعود: «فناداه جبريل وهو قائم يصلي في المحراب»..» اهـ (٣).

حاصل القراءات :

بينت قراءة ابن مسعود أن الاطلاق في اللفظ العام ﴿المَلَائِكَةُ﴾ على القراءة المتواترة انما من باب اطلاق العام وإرادة الخاص.

قال أبو حيان (ت ٧٥٤هـ): «الظاهر أن مناديه جماعة من الملائكة لصيغة اللفظ، وقد بعث تعالى ملائكة إلى قوم لوط وإلى ابراهيم وفي غير ما قصة، وذكر الجمهور أن المنادي هو جبريل وحده، ويؤيده قراءة عبدالله في مصحفه: «فناداه جبريل وهو قائم»..» اهـ (٤).

وقال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): «وإنما قيل الملائكة على قولهم: «فلان يركب الخيل»..» اهـ (٥).

قال أبو حيان مفسرا مراد الزمخشري: «يعني: أن الذي ناداه هو من جنس الملائكة لا يريد خصوصية الجمع، كما أن قولهم: «فلان يركب الخيل» لا

(١) المبسوط ص ١٤٢ النشر ٢/٢٣٩.

(٢) تفسير الطبري (شاکر) ٦/٣٦٤ تفسير القرطبي ٤/٧٤ البحرالمحيط ٢/٤٤٦.

(٣) إسناده ضعيف .

أخرجه الطبري (شاکر) ٦/٣٦٤.

قلت : وفي السند المثنى شيخ الطبري وهو الأبلي لم أقف له على ترجمة، وإسحاق ابن الحجاج أورده ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٢/٢١٧ ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا.

(٤) البحرالمحيط ٢/٤٤٦.

(٥) تفسير الزمخشري ١/١٨٨.

يريد خصوصية الجمع وإنما يريد مركوبه من هذا الجنس، وخرج عليها الذين
قالَ لَهُمُ النَّاسُ... ﴿[آل عمران: ١٧٣] وهو نعيم بن مسعود» اهـ (١).
قلت : يعني أبوحيان رحمه الله أن هذه الآية من باب العام الذي أريد
به الخاص.

(١) البحر المحيط ٤٤٦/٢.

قلت : وقد توسّع الإمام الشافعي في كتابه «الرسالة» ص ٥٨-٦٢ في تقرير هذا المعنى
في «باب بيان ما نزل من الكتاب عام الظاهر يراد به كله الخاص».

الموضع الرابع :

قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ التوبة: ١٧.

تنوعت القراءات في قوله: ﴿مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ :
فقرأ أبو عمرو ويعقوب وابن كثير: ﴿مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ على الإفراد، ووافقهم ابن محيصن واليزيدي.
وقرأ باقي العشرة: ﴿مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ على الجمع، ووافقهم الحسن والأعمش (١).

معنى القراءات :

القراءة بالتوحيد: ﴿مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ المراد المسجد الحرام بمكة بدليل قوله بعدها: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ التوبة: ٢٨.
قال أبو عمرو: وتصديقها قوله: ﴿أَجْعَلْنَمُ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾ التوبة: ٢٩ (٢).

ويحتمل أن المراد بالافراد الجنس فيدخل المسجد الحرام في مقدمته (٣).

القراءة بالجمع: ﴿مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ فيها أوجه:

الأول: أن المراد جميع المساجد، فيدخل المسجد الحرام دخولا أوليا وأولويا على طريق الكناية كما لو قلت: «فلان لا يقرأ كتب الله» فإنك أكدت نفي قراءته للقرآن من تصريحك بذلك، أو من باب وضع المفرد مكان الجمع والعكس كقولك: «فلان كثير الدرهم» و«فلان يجالس الملوك» وهو يملك دراهم كثيرة، ولا يجالس إلا ملكا واحدا.

الثاني: أن المراد المسجد الحرام، وأطلق عليه الجمع إما باعتبار أن كل مكان منه مسجد، وإما لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها (٤).

(١) المبسوط ص ١٩٣ النشر ٢/٢٧٨ الاتحاف ص ٢٤٠.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/١٩١ حجة القراءات ص ٣١٦.

(٣) البحر المحيط ٥/١٨ الاتحاف ص ٢٤٠.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/١٩١ البحر المحيط ٥/١٩.

حاصل القراءات :

أفادت الآية بقراءة من قرأ: ﴿مَسَاجِدَ﴾ بالجمع نفي أن يعمر المشركون، أي: مسجد من المساجد.

وأفادت القراءة بالإفراد تعيين المسجد الحرام بالذكر تأكيداً لشأنه في ذلك، فالقراءتان من باب ذكر بعض أفراد العموم، وهي لا تفيد التخصيص، وإنما تفيد التأكيد والاهتمام بهذا الفرد.

ويلاحظ مايلي :

قال ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ): «واتفقوا على الجمع بالحرف الثاني: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٨] لأنه يريد جميع المساجد» اهـ (١).

قلت : لا شك أن اتفاقهم على الجمع في هذا الحرف إنما هو لأن القراءة سنة متبعة متلقة عن الرسول ﷺ.